

كيث باين

السلم المكسور

كيف تؤثر اللامساواة

على طريقة تفكيرنا وحياتنا وموتنا



ترجمة: سارة الخمعلي



السَّلم المكسور

كيف تؤثر اللامساواة على طريقة تفكيرنا وحياتنا وموتنا

كيث باين

ترجمة سارة الخمعلي

الكتاب: السِّلْمُ المكسور

المؤلف: كيث باين

ترجمة: سارة الخمعلي

مراجعة الترجمة: أحمد م. أحمد

التصنيف: اقتصاد

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 0 - 723 - 429 - 614 - 978 ISBN:

Copyright © 2017 by Keith Payne

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com

read@mdrek.com

DarMadarek

"مضرون" ... غلبت انتاج مواد مترجمة تقدمها اعداد
بمجهود الزملاء، من خلال الظاهر، الذي اختار ان يكون
الدعم والجهد، هدية لأمة، منة رحمة الله، حيث كانت ترسل
كالسحابة، وتغيب كالطير، وتكتب العام بسيف.

ترقي الدخيل

٢٠١٨/٩/٢٥

الفهرس

مقدمة ٧

الفصل الأول: اقتصاديات مسؤولية الغداء ٢٥

الفصل الثاني: سهل نسبياً ٥٧

الفصل الثالث: منطق الفقراء ٩٧

الفصل الرابع: اليمين واليسار والسلم ١٣٩

الفصل الخامس: حياة طويلة وشواهد قبور طويلة ١٩١

الفصل السادس: الله والمؤامرات ولغة الملائكة ٢٢٩

الفصل السابع: انعدام المساواة بين البيض والسود ٢٦٣

الفصل الثامن: السلم المشترك ٣٠١

الفصل التاسع: فن العيش عامودياً ٣٣٧

شكر وتقدير ٣٧٧

مقدمة

تستغرق الرحلة من العاصمة الأمريكية (واشنطن) إلى مدينة جاكسونفيل في ولاية فلوريدا ساعتين؛ وهو وقت أكثر من كافٍ لتغيير مجرى حياتك بالكامل. لا أحد يعرف السبب الذي جعل جوزيف شاركي يقف أثناء تلك الرحلة الجوية ويستدير ليطوّق بذراعه رأس المسافر الجالس وراءه في الدرجة الاقتصادية. قد يكون ذلك الراكب تحدث بصوت مرتفع للغاية، أو قد يكون ركل بقدمه ظهر المقعد. ولكن استناداً إلى شهود عيان فإن ذلك الراكب لم يفعل أي أمر من شأنه استثارة تلك الهجمة. دفعت الضجة والصراخ الصادران عن تلك الهجمة طاقم الطائرة لأن يهرعوا للسيطرة على الموقف. غير أن شاركي لم يستجب لأوامر الطاقم بل عمدَ إلى ركل أحد المضيفين بركبته في وسطه. ثم سار إلى مخرج الطوارئ محاولاً فتحه في أثناء الرحلة الجوية، إلا أن المضيف تمكن في نهاية الأمر، بمساعدة العديد من الركاب، من التغلب على شاركي وتوثيق يديه بالقيود حيث اعتُقل وسلم للجهات الأمنية فور هبوط الطائرة ليوامجه مصيره في السجن لمدة عشرين عاماً.

لسوء التصرف الذي يصدر من ركاب الدرجة الأولى نكهة مختلفة، حيث في عام ٢٠٠٩، بدأ بعض من الأطفال بإحداث بعض الضجيج على متن رحلة جوية من بالم بيتش إلى نيويورك كانت إيفانا ترامب على متن الرحلة الجوية ذاتها. ووسط ذلك الضجيج قامت بوضع سماعات الأذن محاولة بذلك إشغال نفسها عن الفوضى والضجيج المحيطين بها، إلا أن بكاء أحد الأطفال أفقدها صوابها واستشاطت غضباً، فصرخت عليهم ونعتهم بـ «السفلة الصغار» بينما كان بعض رجال الأمن يرافقونها إلى خارج الطائرة.

تعتبر الطائرات صوراً مصغرة من عالمنا وما نواجه فيه من مخاوف تقلقنا أثناء ممارستنا لحياتنا اليومية. حيث يلقي بنا مع مئات الغرباء، مرغمين جميعاً على مستوى من الود الذي ندّخره في العادة للأحباب أو زملاء العمل. نتكدس في أنبوب معدني ضيق يستتفر ما تطور فينا من خوف من الأماكن الضيقة. وبمجرد أن تحلق الطائرة، لا يعود هناك أي مهرب للخروج من هذا المكان الضيق والمغلق... يبدأ الوقت بالتباطؤ حتى تشعر بأن لا نهاية له ولا مهرب منه. نجد أنفسنا معلقين في الهواء على ارتفاع آلاف الأقدام عن الأرض. وهو الأمر الذي من شأنه أن يثير مشاعر الخوف لدينا من المرتفعات. يرتج هيكल الطائرة ويهتز بما يكفي لتذكيرنا بشكل مستمر بأننا في الوقت الراهن قد تقطعت بنا السبل، وبأننا معلقون في الهواء دون أي دعائم أرضية تمسك بالطائرة، بحسب ما نستطيع رؤيته. هكذا نجلس، وليس لأحد منا أن يقرر متى نقلع أو متى نصل أو متى نستطيع استعمال أجهزتنا الإلكترونية. نجلس منتظرين دون أن نعلم مَنْ يرافقنا على متنها، وغير متأكدين من كيفية سير الرحلة، أو مَنْ منا يمتلك مسند الذراع الجانبي. وطيلة الوقت ثمة ما يذكرنا بفكرة الموت. فأي تجربة من شأنها أن تكون أكثر وجودية؟

ولكن بجانب مشاعر القلق التي حرضتها تلك المخاوف، هنالك أمر آخر يجدر بنا ذكره ويعتبر أيضاً عالماً مصغراً من حياتنا اليومية، ألا وهو أن الطائرات تعتبر التجسيد المادي والملموس لسلّم الهرمية. فلو قمنا بقياس تدرج الهرمية على الطائرة فإننا سنجد أن الطائرة تعتبر مثلاً ملموساً لذلك.

حيث يجسد الهيكل المعدني الأصم والمُنَجَّد للطائرة السلم الاجتماعي الذي تمثل تدرّجه صفوف المقاعد والمسافرين.

إن فهم خطة توزيع مقاعد الطائرة وفقاً لضوابط الهرمية يتيح لنا فهم السبب الخفي وراء الهجوم المفاجئ على الغرباء وشتم الأطفال على الرغم من وجودهم في رحاب تلك السماء الرحبة. وقد قام عالما النفس كاثارين ديسيل ومايكل نورتون بإجراء دراسة حديثة أثبتت أن توزّع الهرمية الاجتماعية في السفر الجوي تعتبر قوة هائلة تجبرنا على التصرف بشكل معين أثناء الطيران. قام الباحثون بتحليل بيانات الملايين من رحلات الطيران لتحديد ماهية العوامل التي تقف وراء حالات الغضب العارمة الصادرة من بعض الركاب جواً في الهواء على متن الطائرات وكانت أولى هذه العوامل أنهم يقومون بمقارنة أنفسهم بالمسافرين الآخرين الذي هم على نفس الرحلة لكن في الدرجة الأولى من الطائرة حيث رجّح الباحثون أن غضب هؤلاء الركاب ناتج عن شعورهم بانعدام المساواة، ويمكننا أن نرى المزيد من حالات غضب الركاب العارمة في الطائرات التي تحوي مقصورة خاصة لفئة الدرجة الأولى أكثر من غيرها من الطائرات التي ليس لديها تلك المقصورة. وبحسب ما اكتشفوه أيضاً فإن احتمالات حدوث حالات الغضب العارم بين الركاب تزداد بمعدل ٤ مرات في قسم الدرجة الاقتصادية للطائرات التي لديها مقصورة الدرجة الأولى أكثر من غيرها من الطائرات التي لا تحتويها. هناك عوامل أخرى مهمة أيضاً يجب أخذها بعين الاعتبار مثل تأخر موعد الرحلة. لكن وجود قسم خاص لفئة الدرجة الأولى يزيد من احتمال الانزعاج لدى المسافرين بحيث أن انزعاج المسافرين من تأخر الرحلة لمدة تصل إلى ٩ ساعات ونصف يعادل انزعاجهم من وجود قسم خاص لفئة الدرجة الأولى على نفس الرحلة التي سيستقلونها.

ولاختبار هذه الفكرة من زاوية أخرى، قام الباحثون بالنظر إلى الفروق من حيث كيفية صعود المسافرين إلى متن الطائرة. معظم الطائرات التي تحوي مقصورة فئة الدرجة الأولى يكون الصعود إليها من المقدمة، وهو المكان المخصص من الطائرة لفئة الدرجة الأولى، مما يجبر المسافرين ذوي الدرجة الاقتصادية على أن يبذلوا جهداً إضافياً للمشّي على امتداد الممر، جارين معهم أمتعتهم مروراً بمقاعد الأترياء المريحة، غير المخصصة لهم. ولكن حوالى ١٥ بالمائة من الرحلات، التي يكون الصعود على متنها من منتصف أو من مؤخرة الطائرة، ينعلم فيها الضغط النفسي لدى ركاب الدرجة الاقتصادية. وكما كان متوقعاً فإن موجات الغضب الشديد بين الركاب تزداد بمعدل الضعف لدى الطائرات التي يكون الصعود على متنها من المقدمة وتزداد احتمالية حدوث تلك الحالات من الغضب بين الركاب بنفس المقدار لو أنهم قاموا بانتظار طائرة تأخرت رحلتها لمدة ٦ ساعات ونصف.

تكشف نتائج هذه الدراسة الحقيقة، أنها لا تجعلنا فقط نتصور كيف لانعدام المساواة أن يدفع إلى احتداد العلاقة بين من يملكون المال وبين الذين لا يملكونه. بل أيضاً تبين أن حوادث حالات الغضب العنيفة المتفشية بين الركاب تحدث حتى وإن لم يكن هناك فقراء في تلك الرحلة وهو الأمر الذي يجعلني مفتوناً بهذه الدراسة. وبما أن متوسط سعر تذكرة الدرجة الاقتصادية يكلف عدة مئات من الدولارات فإن القليل جداً من الفقراء يمكنهم توفير قيمة تذكرة السفر على طائرة تجارية حديثة ولكن

حتى الاختلافات النسبية بين مسافري الطبقة المتوسطة المحترمين الذين يسافرون بالدرجة الاقتصادية يمكنها أن تخلق الصراع والفوضى. وفي الواقع أثبتت الدراسة أن الفوضى ليست مقتصرة على أصحاب الفئة الاقتصادية وحسب إذ إن أصحاب فئة الدرجة الأولى هم عرضة أكثر بكثير من أصحاب الفئة الاقتصادية في إحداث الفوضى وحالات الغضب العارمة عندما يكونون على تماسٍ شخصي مع الحشود المسافرة في الطائرات التي يكون الصعود على متنها من المقدمة وتصرف إيفانا ترامب كان شاهداً على ذلك، عندما تصبح الفروقات كبيرة لدرجة لا يمكن تجاهلها حينها يبدأ الجميع التصرف بغرابة.

لكنهم لا يتصرفون على وجه الغرابة بأي طريقة قديمة كانت. تؤثر الفروقات على أفعالنا ومشاعرنا بنفس المنهجية والنمطية القابلة للتنبؤ مراراً وتكراراً. الفروقات تصنع منا أشخاصاً قصيري النظر وأكثر عرضة للسلوك المحفوف بالمخاطر وعلى استعداد للتضحية بمستقبل آمن في سبيل المتعة اللحظية. كما أنها تجعلنا أكثر ميلاً إلى اتخاذ القرارات الفاشلة. الفروق تجعلنا نؤمن بأشياء غريبة، تجعلنا نتشبث بشكل خرافي بالعالم كما نريده نحن وليس كما هو حاله بالفعل. الفروقات تفرقنا وتشقنا إلى معسكرات ليس لها علاقة بالدخل المالي فقط بل أيضاً بالفكر والعرق وهو الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى تآكل الثقة فيما بيننا. الفروق تولّد الإجهاد النفسي، وتجعلنا جميعاً أقل صحة وسعادة.

تخيل أحد الأحياء المليئة بالناس الذين قمت بالإشارة إليهم أعلاه: قصيري النظر، أناس غير مسؤولين يقومون بخيارات سيئة، أناس سيئو الظن يؤمنون بالتحيز العنصري المبني على العرق والفكر، أناس يؤمنون بالخرافات ولا يستمعون إلى صوت العقل، أناس يحولون حياتهم إلى عادات تدميرية ذاتية بينما يتكيفون مع التوتر والقلق في حياتهم اليومية. هذا هو المعنى التقليدي للفقر ويمكن أن يكون بمثابة وصف نمطي للسكان في أي حي فقير في المدينة أو وسط منطقة بيوت نقالة. ولكن كما سنرى في الفصول المقبلة فإن انعدام المساواة يُولد تلك النزعات حتى بين أفراد الطبقة الوسطى والأثرياء.

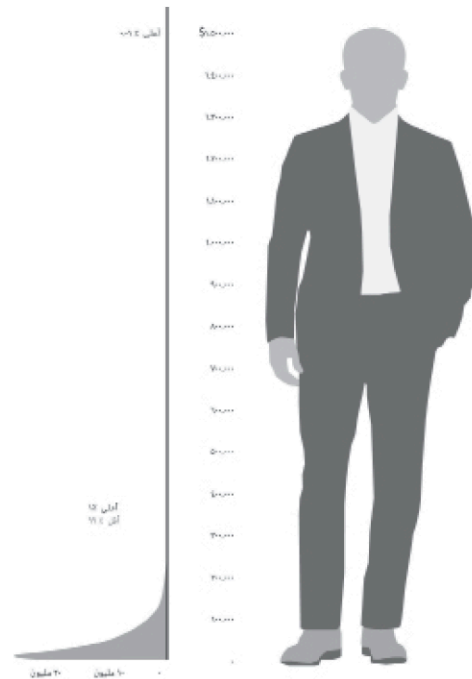
الأمر الآخر الملحوظ حول دراسة حالات الغضب العارمة في الطائرة هو أن تلك الدراسة أوضحت أن انعدام المساواة هو أمر مختلف عن الفقر، على الرغم من أنه يجعلنا نشعر بنفس الفظاعة. هذه الظاهرة هي موضوع هذا الكتاب. انعدام المساواة يجعل الناس يشعرون بالفقر ويتصرفون كالفقراء حتى وإن لم يكونوا كذلك. حيث تتم محاكاة انعدام المساواة بالفقر في أذهاننا لدرجة أن الولايات المتحدة الأمريكية (وهي الدولة الأغنى في العالم والأكثر انعداماً في المساواة) لديها الكثير من الخصائص التي تجعلها دولة نامية أكثر من كونها دولة وقوة عظمى.

وبحسب ما جرى توثيقه في أغلب الأحيان، فإن التفاوت في مستوى الثروة والدخل المالي يصل الآن إلى أعلى مستوى له منذ أجيال. في حين أن أغنى ٨٥ شخصاً في العالم يمتلكون ثروة قدرها أكثر من ثروة ٣.٥ مليار شخص فقير من سكان هذا الكوكب مجتمعين. وفي أمريكا، يحظى أغنى ١ بالمائة بأكثر من ٢٠ بالمائة من جميع مداخيل أغنى دولة على الإطلاق.

إن فهم مقياس انعدام المساواة الاقتصادية في أمريكا اليوم هو أمر صعب ولا يمكننا تخيله، إنه أمر يفوق تصورنا. وهو يشبه محاولة تخيلنا لمسافة سنة ضوئية أو إدراك ضخامة أعداد الخلايا العصبية الموجودة في الدماغ والتي تصل إلى مئة مليار خلية عصبية، أو كيف لا يزال عدد الموصلات العصبية لتلك الخلايا أكبر بكثير من عدد الخلايا نفسها. هذه الأرقام ببساطة ليست على المستوى البشري. لذلك دعونا بدايةً ننظر إلى الاقتصاد في إطار يعتبر أكثر ارتباطاً ومنتساعاً كيف يفكر الناس بوضعهم الاقتصادي ضمن ذلك الإطار.

تسير الكثير من الميزات البشرية، مثل الطول، وفق منحنى يأخذ تقريباً شكل الجرس. يحتوي هذا المنحنى على معدل يلتقي معظم الناس حوله، مع ذيول مائلة تتحدّر نحو الصفر على كلا الطرفين. يعتبر هذا النمط هو النمط ذاته الذي تنتمي له مجموعة واسعة من الخصائص، مثل عدد النتوءات في بصمات الأصابع، أو الخصائص الكيميائية للعناصر المسجلة في موسوعة جينيس، أو مقياس محيط الصدر للجنود الاسكتلنديين. تم توثيق منحنى الجرس مرةً ليصبح بذلك قانوناً عالمياً للطبيعة. وقد تبين لاحقاً أن المنحنى غير صائب، لكن النمط شائع إلى الحد الذي يسهل علينا معرفة سبب قيام المفكرين الأوائل بتحديد هذا الاستنتاج.

عندما يأخذ الناس بالاعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، سيبدو أنهم يفكرون وفق معيار منحنى الجرس. مؤخراً، قام مركز بيو Pew للأبحاث (1) بإجراء استبيان يطلب فيه من الأمريكيين تحديد الطبقة التي ينتمون إليها. وأظهرت النتيجة منحنى الجرس الكلاسيكي، حيث وصف ٨٩ بالمائة ممن أجابوا على الاستبيان أنفسهم بالطبقة المتوسطة. ووصف ٧ بالمائة فقط أنفسهم أعضاء في الطبقة الدنيا، ووصف ٢ بالمائة فقط أنفسهم في الطبقة العليا. وفي نظر الأمريكيين، نحن جميعاً ننتمي إلى الطبقة الوسطى.



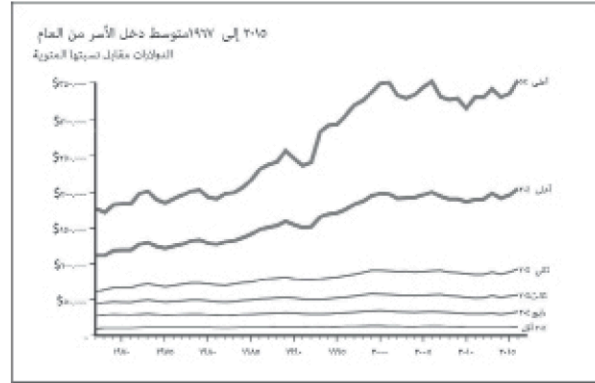
وصل توزيع الدخل المالي في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ارتفاع الإنسان.

انظر إلى توزيع الدخل الفعلي في الشكل التوضيحي ١، ومع ذلك، ستري قصة مختلفة تماماً. لوضعه على مقياس بشري، قمت بإنشاء الرسم البياني بحيث يكون أعلى عُشر واحد في المائة بارتفاع رأس رجل يبلغ طوله ست أقدام. يعبر المحور الرأسي عن الدخل السنوي. ويعبر المحور الأفقي عن عدد الأسر في كل مستوى من مستويات الدخل المالي. بدءاً من يسار الأخير، يقابل الإنش الأول أفقر ٢٠ بالمائة من الأمريكيين. نتابع إلى الجزء العلوي من قَدَم الشكل، ويمكنك الوصول إلى الدخل المتوسط، حيث نصف الأسر الأمريكية تحت تلك النقطة والنصف الآخر من أعلاه. نسبة ٨٠ بالمائة الموجودة في الأسفل التي حُددت عند مستوى الـ ١٠٠٠٠٠ دولار: إذا كانت عائلتك تجني مبلغاً من ستة أرقام فأنت في القمة حيث الـ ٢٠ بالمائة الأعلى وتعتبر أكثر ارتفاعاً بـ ٤ انشآت على مسطرة القياس.

تُبين الكثافة الكبيرة على الجهة اليسرى أن جميع السكان، تقريباً، يتجمعون بالقرب من القاع. بينما يُظهر الخط الدقيق الصاعد إلى الأعلى الأشخاص الذين تصل أرباحهم إلى الملايين، حيث لا توجد الكثافة. تمكث ٨٠ بالمائة من الأسر تحت كاحل الشكل المعروض.

في حين تتوج مليون دولار ونصف قمة المقياس، يجني بعض الأشخاص أكثر بكثير من ذلك. ولو تضمّن الكتاب هذا النوع من الثراء الفاحش لكان من الضروري أن يكون أطول بكثير مما هو عليه لكي يصل مؤشر الرسم البياني إلى مستوى دخلهم، أو سيصبح الجزء الموجود في القاع والذي يتضمن نسبة ٩٩٪ من الدراسة صغيراً للغاية ولا يمكن قراءته. ولذلك، ومثل معظم الرسوم التوضيحية لتوزيع الدخل المالي، فإن هذا الرسم البياني لا يتضمن الدخل المالي لـ اليكس رودريغيز(٢) ومعظم الرياضيين المحترفين، هذا الرسم البياني لا يتضمن حساب أوبرا وينفري(٣) التي يعتبر دخلها المادي الأعلى من بين المشاهير ويتجاهل مديري صناديق الاحتياط. ولو تضمن هذا الرسم البياني الدخل السنوي لجون بولسون(٤) والذي يعتبر حالياً أعلى مديري صناديق الاحتياط دخلاً، فلربما لن يصل الرسم البياني إلى رأس رجل طويل القامة بل سيصل إلى سقف مبنى شاهق الارتفاع.

غالباً ما يعتبر توزيع الدخل المالي بين الناس أمراً غير متوازن وذلك يعود لسببين رئيسيين: السبب الأول هو أن للقاع حدوداً دنيا طبيعية وذلك يعني أنك لن تستطيع تجاوز ذلك الحد وتجني أقل من الصفر، على الأقل ليس لفترة طويلة. السبب الثاني هو أن كسب المال يحتاج إلى مال، وذلك يعني أنك تستطيع استثمار الثروة وبذلك تضاعفها؛ حيث يصنع المال دورة طبيعية يصبح فيها الأغنياء أغنى وبذلك يمتد الخط المُعبر عن الدخل المالي للأغنياء في الرسم البياني. وأولئك الذين ليس لديهم ما يستثمرونه من المال ببساطة لا يمكنهم المشاركة في تلك الدورة وبالتالي فإنهم يبقون متجمعين في قاع الرسم البياني.



متوسط دخل الأسر من العام ٢٠١٥ إلى ١٩٦٧ ، الدولارات مقابل نسبتها المئوية و ذلك حسب الإحصاء الأمريكي.

على الرغم من أن توزيعات الدخل دائماً ما تكون معوجة، إلا أن توزيع الدخل اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية هو ملتوٍ وغير متكافئ وغير متساوٍ أكثر بكثير مما كان عليه في الماضي ومما هو عليه في الاقتصاديات المتقدمة الأخرى. يُظهر الشكل التوضيحي ٢ مدى تغير الدخل المالية على مدى الخمسين سنة الماضية لكل دخل خمسي، بما في ذلك أغنى ٥ بالمائة (عُدلتُ المبالغ بالدولار من أجل التضخم) يمكنك رؤية تحركات وتوجهات الذيل الطويل من الشكل التوضيحي ١: الأغنى يصبحون أغنى، بينما الفقراء في حالة جيدة، الفقراء يبلون بلاء مثيراً للاهتمام، إن أفقر ٥ بالمائة من الأمريكيين مازالوا في مكانهم منذ خمسين سنة.

ربما أنك لم تتوقع هذه النتيجة للفقراء (ولا حتى للطبقة الوسطى التي لم تتزحزح من مكانها أيضاً)، حيث ينص القول المعروف والمأثور على أن الأغنياء يصبحون أغنى والفقراء يصبحون أفقر. هذه هي المقولة التي يجمعها الناس من عناوين الأخبار عن تزايد انعدام المساواة في دخول الأمريكيين المالي حيث نسمع يومياً عن القلق الاقتصادي المتزايد وعن زيادة الشعور باليأس وانعدام الأمل في المستقبل حيث كشف أحد الاستطلاعات الأخيرة عن أن نصف الأمريكيين ممن هم تحت سن الثلاثين يقولون إن الحلم الأمريكي قد مات، هذا القلق هو قلق حقيقي وأحد أهداف هذا الكتاب هو فهم هذا القلق بشكل كامل. ولكن عندما نتحدث عن اندلاع شعلة تضخم الدخل المالي فإن الخمس الأفقر هم بالضبط حيث تركناهم في عام ١٩٦٧م.

في حين أن الفقراء قد لا يصبحون أفقر إلا أن هنالك أحد الجوانب اللافتة للنظر في انعدام المساواة ألا وهو أن الوقوف وعدم التحرك سيجعلك تشعر وكأنك تتراجع إلى الوراء في حال كان الجميع من حولك يتقدمون إلى الأمام. هل سبق لك أن استقلت قطاراً ثابتاً في حين أن القطار المجاور لك ينطلق ويغادر مكانه وأنت لا تزال في مكانك؟ إنه أمر يجعلك تشعر في هذه الدنيا وكأنك تتحرك فجأة في الاتجاه المعاكس. حيث كلما زاد غنى الأغنياء واعتلوا مستويات جديدة في الثراء، كلما شعر أصحاب الطبقة المتوسطة والفقيرة أنهم أكثر فقراً مقارنةً بأولئك الأغنياء. وكما سنرى في الصفحات المقبلة، فإن هذا الشعور ليس مجرد وهم بل إنه شعور حقيقي ذو عواقب في منتهى الخطورة.

امتألت الرفوف بمؤلفات كتبت عن أسباب انعدام المساواة الاقتصادية والتي تركز على الأحداث التاريخية الواسعة النطاق مثل التقدم التقني وأنماط التجارة المعولمة أو السياسات الحكومية مثل الضرائب وأولويات الإنفاق. هذا الكتاب لا يتعامل مع مثل هذه التحليلات؛ بل إنه يدرس أثر انعدام المساواة الاقتصادية علينا كأشخاص، كما ويشرح أيضاً كيف لثروات الآخرين (أعلى ٥٪، ١٪، أو ١٠٪) أن تغير كيفية عيشنا في هذا العالم.

لماذا هناك لثروة الأغنياء تأثير على كيفية عيش أبناء الطبقة المتوسطة حياتهم؟ مع ذلك، لا يوجد علاقة منطقية تربط بين طريقة عيش الطبقة الثرية وطريقة عيش الطبقة المتوسطة، وأيضاً لا يوجد هنالك علاقة منطقية بين حركة القطار المجاور لك وبين شعورك بالتحرك بالاتجاه المعاكس، لكن على الرغم من ذلك لا يزال هناك تأثير على الآخر، وحقيقة أن هذا التأثير لا يمكن تفسيره بالخصائص الحركية للقطار إلا أنه يمكن العثور على التفسيرات في العقل البشري من خلال قدرته على تحويل الإدراكات الحسية (انتبه، نحن نتحرك!) إلى أفعال (تشبث بمقابض اليد!).

وعلى سبيل المثال، لماذا الشعور بالفقر يُسقط سنوات من حياتك ويجعلك تعيشها كما لو كنت فقيراً؟ لماذا حجم منزل جارك يؤثر على هرمونات التوتر لديك؟ لماذا انعدام الأمن المالي يقودك إلى اتخاذ قرارات غير صائبة تؤدي إلى المزيد من انعدام الأمن المالي؟ لماذا يقودك نجاحك المالي إلى اعتبار أولئك الذين يخالفونك الرأي على أنهم أغبياء وبلهاء بدلاً من مجرد كونهم أشخاص يمتلكون آراء مختلفة؟

إن معرفة الإجابات على تلك الأسئلة لن تغير توزيع المدخولات المالية، وكتاب السلم المكسور لن يوفر اقتراحات سياسية جديدة لتغيير معدلات الضرائب أو تقوية وتعزيز الضمان الاجتماعي ولكنه سيقدم شيئاً لا يقل أهمية عن ذلك. سيساعد كتاب السلم المكسور في تفسير بعض تناقضات من يعيشون حياة عصرية وجديدة في عالم مليء بالتقنية ذات الجودة العالية حيث تكون فيه شاشات التلفاز المسطحة رخيصة القيمة بالنسبة لمدخولهم المالي ولكن الأمن المالي لديهم هو أمر يتعذر الوصول إليه، عالم يكون فيه متوسط مساحة المنزل ٢٦٠٠ قدم مربعة ولكن العائلة التي تقطن فيه لا تستطيع توفير مبلغ ٤٠٠ دولار نقداً للأموال الطارئة.

في حين أن تحديد الأسباب الرئيسية والعواقب الاقتصادية لانعدام المساواة المالية هو أمر مهم، إلا أن هدفي هنا إلى أن يكون شخصياً أكثر. حيث يتمحور هدفي على ربط ما نعرفه عن توزيع الدخل المالي والتعداد السكاني بماذا يعني فعلاً أن تكون فرداً يعيش في هذا الوقت وهذا المكان ومحاطاً بعائلة وأصدقاء وزملاء عمل جميعهم يتحركون نحو مستقبل لا ندركه. إن فهم كيف تُشكّل تصنيفات الثروة تفكيرنا هو أمر من شأنه أن يجعلنا أكثر مهارة في ممارسة حياتنا ضمن تلك التصنيفات. وفي حالة تمكن الناس من التقبّل والتكيف مع تلك الأفكار، فإنهم بذلك يمكنوننا من اتخاذ الخطوات اللازمة في سبيل الحد من انعدام المساواة المالية. أما في الوقت الراهن فإننا سنبدأ مع التجربة الإنسانية التي لحظناها من حالات الشغب في الطائرات التي يسودها العنف والقطارات المتوقفة والبيوت الأنيقة الأخرى وكل ما من شأنه أن يجعلنا نشعر بأننا نهوي إلى أسفل.

الفصل الأول

اقتصاديات مسؤولية الغذاء

لماذا يؤلم الإحساس بالفقر المرء كما لو كان فقيراً بالفعل

علمت أنني فقير في أول يوم من عمل مسؤولية الغذاء الجديدة، أما قبل ذلك فقد استبقت مدرستي المحاسبة حتى الصف الرابع بقدر ما تسعفني ذاكرتي. كنت أعرف أن بعض أقراني يدفعون المال عندما يذهبون إلى ركن المحاسبة وبعضهم، مثلي، لا يدفعون. لكن مسؤولية الغذاء القديمة جعلتنا نتحرك ضمن الطابور، سواء كنا نملك المال أو لا نملكه، بنفس سلاسة انزلاق صواني غدائنا البلاستيكية على سطح الطاولة الحديدية لركن الغذاء. وفي يوم من الأيام رحلت تلك المسؤولية لتحل محلها سيدة أخرى أصغر عمراً وعلى ما يبدو أنها كانت تحاول أن تجتهد في عملها الجديد. وبمجرد أن مررت بها حاملاً معي غدائي، استوقفتني لتطلب مني دولاراً ورُبَّع دولار. حينها شعرت أن توازني قد اختل وهو الشعور ذاته الذي تشعر به عندما يتوقف بك المصعد بشكل مفاجئ وسريع جداً. بدأت بالتلعثم، وهي ردة الفعل الوحيدة التي كانت لدي حيث لم يكن لدي سنتاً واحداً. كنت سأعطيهما، بكل سرور، أي مبلغ من المال في سبيل الإفلات من ذلك الموقف. في تلك اللحظة أتت سيدة كبيرة العمر، نحيفة وطويلة القامة وترتدي قميصاً زهري اللون بدت فيه مثل طائر البشروس وهو يرتدي غطاءً للرأس، انحنت وهمست في أذن مسؤولية الغذاء الجديدة ثم سُمح لي بإكمال طريقي. وأخيراً عاد طابور الغذاء إلى مسيره الصامت. لكن أسبوعاً حرجاً مرَّ قبل أن تعرف مسؤولية الغذاء الجديدة من يدفع ومن لا يدفع.

لاتزال تعيش معي تلك اللحظة التي أدركت فيها ما تعنيه وجبات الغذاء المجانية التي حصلت عليها حيث أنني أشعر بالحرارة تسري في وجهي في كل مرة أتذكر ذلك الموقف. على الرغم من أن عائلتي لم تكن تملك مالاً أقل من اليوم السابق، إلا أن تلك اللحظة غيّرت كل شيء بالنسبة لي. بدأت ألاحظ الفروقات بيني وبين أقراني في الفصل الدراسي. ومع أننا جميعاً كنا نرتدي الزي المدرسي نفسه، إلا أن الأطفال الذين دفعوا ثمن وجبات الغذاء الخاصة بهم بدوا وكأنهم أكثر أناقة. هل هي الأحذية؟ حتى إن لشعرهم مظهراً أجمل، هل ذهبوا إلى الصالون بدلاً من قصه في المنزل باستخدام وعاء ومقص؟ لقد كبرنا جميعاً بنفس الوقت ولكن كانت هنالك عشرات الأميال تفصل بيننا.

كان لدى أطفال وجبات الغذاء المجانية لهجة آبائنا الجنوبية نفسها في التثدق في الحديث بينما الأطفال الذين يدفعون ثمن وجبات غدائهم كانت أصواتهم مشابهة لأصوات مذييعي الأخبار، أصوات من لا مكان وكل مكان في الوقت ذاته.

لطالما كنت طفلاً خجولاً في المدرسة، كنت صامتاً طوال الوقت. من أنا حتى أتكلم؟ امتد سلّم اجتماعي جديد بشكل مفاجئ، أمامي وفوقي. كانت الأحذية والشعر واللهجة درجات ذلك السلم، كان ذلك السلم شفرة للتو تعلمت حلها. حقيقة أن لا شيء تغير في الظروف المحيطة بي هو أمر لا يهم،

الأمر المهم هو أن منظوري للحياة قد تغير. الآن عرفت أنني في حقيقة الأمر فقير.

إذا كنت معتاداً على التفكير في الغنى والفقر من الناحية المالية فقط، كما يفعل المحاسب، فإن ردة فعلي لا معنى لها استناداً إلى موقعي. لم يغير إدراكي لما يدور حولي من الدخل المادي لوالدي، لم يغير نفقاتنا الشهرية، لم يغير أي شيء في هذا العالم، باستثنائي أنا. إنه جعلني أعيد توجيه انتباهي وتغيير مفاهيمي وأفكاري وأفعالي، لقد غير مستقبلي.

لفهم كيف نفكر عن وضع معين، ألق نظرة على صورة السلم في الصفحة التالية (الشكل التوضيحي ١.١).



رسم بياني لسلم المكانة، يستخدم لقياس التصورات الذاتية عن المكانة النسبية.

تخيل أن الأشخاص الموجودين في أعلى السلم هم الأفضل. لديهم أكبر قدر من المال والتعليم الأفضل والوظائف الأعلى أجراً. بينما الأشخاص الموجودون في قاع السلم هم الأسوأ. لديهم المال الأقل والمستويات الأخفض من التعليم والوظائف الأدنى أجراً، في حال حصلوا على وظيفة من الأساس. إذا كنت ستقيم وضعك الاقتصادي مقارنة بالأشخاص الآخرين، فبأي درجة ستضع نفسك ضمن تلك العشر درجات؟

تلك الصورة البسيطة هي واحدة من أكثر المقاييس استخداماً لقياس الحالة الاجتماعية الشخصية. دعونا نسميها سلم المكانة الاجتماعية. ينبغي لنا أن نكون قادرين على التنبؤ بشكل كامل أين سيضع الشخص نفسه على السلم بمجرد معرفة دخله المادي ومستوى تعليمه ووظيفة بمركز اجتماعي عالي.

إلا أننا لا نستطيع التنبؤ بذلك، ولا حتى أن نقرب من التنبؤ الصحيح. إنه أمر صحيح أن متوسط الأشخاص ذوي الدخل المالي الأعلى لديهم مستوى تعليم عالٍ ووظائف ذات مركز اجتماعي مرموق يضعون أنفسهم في مكان عالٍ من السلم. لكن التأثير قليل نسبياً، فعلى سبيل المثال في عينة مكونة من ألف شخص سيقم البعض أنفسهم في أعلى السلم والبعض الآخر سيقم نفسه في أسفل السلم والكثير منهم سيقم أنفسهم في الوسط، ولكن فقط ٢٠٪ منهم من سيقم نفسه اعتماداً على الدخل المادي والتعليم والوضع الوظيفي.

هذه العلاقة الصغيرة بين المعايير التقليدية لتصنيفات المكانة الاجتماعية وبين كيفية قيام الناس بملاحظتها وتمييزها هو أمر مثير للدهشة. حيث أن الكثير من الناس الذين هم حسب المعايير التقليدية لتصنيفات المكانة الاجتماعية يعتبرون من الأثرياء إلا أنهم قاموا بتصنيف أنفسهم في أسفل ذلك السلم. وفي المقابل عمد الكثيرون من الناس الذين هم حسب المعايير التقليدية لتصنيفات المكانة الاجتماعية يعتبرون من الفقراء إلى تصنيف أنفسهم في أعلى ذلك السلم.

أثبت تحليل اقتصادي أن تصورات الناس الاقتصادية عن أنفسهم تصورات غير متجانسة مع واقعهم، هي مجرد ضوضاء مثل تلك المنبعثة من المذيع عند التحويل بين المحطات. إذا لم تتوافق التصورات الذاتية مع المعايير الموضوعية مثل المال، فستكون التصورات أسوأ بكثير مما هي عليه بالواقع. بالتأكيد يعتبر المال جزءاً من القصة لكنه ليس القصة الكاملة ولا حتى الشخصية الرئيسية للقصة.

يجب علينا أن نأخذ التصور الذاتي عن المكانة الاجتماعية بجدية، لأن ذلك يكشف الكثير عن مصائر الناس، حيث أنه إذا قمت بوضع نفسك على درجة أقل في ذلك السلم فإنك على الأرجح ستعاني من القلق والاكتئاب والألم المزمن خلال السنين القادمة. كلما تضاعلت الدرجات التي تختارها على السلم كلما زاد احتمال أن تتخذ قرارات غير صائبة ويقل أدائك في العمل. كلما تضاعلت الدرجات التي تختارها على السلم كلما زاد تصديقك للنظريات الخارقة للطبيعة ولنظريات المؤامرة. كلما تضاعلت الدرجات التي تختارها على السلم كلما كنت أكثر عرضة لمشكلات الوزن والسكري ومشكلات القلب. كلما تضاعلت الدرجات التي تختارها على السلم كلما تضاعلت عدد السنوات المتبقية التي ستعيشها.

دعوني أوضح بأنني بكل بساطة لا أؤكد أن مجرد كونك فقيراً سيرجح حدوث كل تلك الأمور لك؛ بل بدلاً من ذلك أقول إنه يرجح أن تحدث لك كل تلك الأمور إذا شعرت بأنك فقير، بغض النظر عن دخلك المالي الفعلي. لا شك بأن أحد الأسباب التي تجعل الأشخاص يشعرون بالفقر هو كونهم بالفعل فقراء، لكن كما رأينا في تلك القصة أن هؤلاء الناس (الذين يشعرون بالفقر لأنهم فعلاً فقراء) هم ٢٠٪ فقط. أما البقية، فعلياً أن ننظر إلى الناس العاديين متوسطي المستوى ونتساءل لماذا هم كذلك، بغض النظر عن دخلهم المالي الفعلي، فالكثير منهم يشعرون أنهم بالكاد يغطون مصاريفهم وأنهم يعيشون من الراتب إلى الراتب، الكثير منهم يشعرون بأن جيرانهم يعرفون شيئاً هم لا يعرفونه، وأنهم لو استطاعوا جني المزيد من المال لكان كل شيء في حال أفضل. لفهم سلم المكانة الاجتماعية ينبغي علينا أن ننظر إلى ما وراء الحسابات المصرفية ونبدأ بالنظر إلى الناس.

ندرك جميعاً حجم الأموال التي نجنيها، لكن القليلين جداً منا يعرفون ما إذا كان ما نجنيه هو ما يكفيننا وذلك لأن الطريقة الوحيدة لتحديد مقدار ما «يكفي» بالفعل هو مقارنة أنفسنا بالآخرين. إننا نقوم بإجراء المقارنات بالأشخاص الآخرين بشكل معتاد لدرجة أنه من النادر أن نلاحظ بأننا نقوم بالمقارنة. عندما تصل سيارة جديدة لجارنا، فإننا بالعادة لا نقول لأنفسنا: «لديهم سيارة حديثة من شركة (أودي) لذلك فأنا أحتاج واحدة أيضاً» وذلك لأننا أكثر رُقياً ونضجاً من ذلك. قد نقول لأنفسنا أن ثروة جارنا هي أمر لا يعنيننا، أو أنه قام بشراء سيارة جديدة لأنه بذل جهداً كبيراً في عمله. إذا كانت لدينا رغبة فورية بمجاراة ما يفعله جارنا فإننا قد نلغي تلك الفكرة بمجرد ظهورها. ومع ذلك، عندما نركب سيارتنا الخاصة بنا في المرة القادمة، فإننا سنلاحظ كيف أن المقاعد مهترئة أكثر من السابق. إذن المقارنات الاجتماعية أمر لا مفر منه.

من الصعب التعرف على مثل تلك المقارنات في العمل في حياتنا وذلك لأنها تحدث في المشهد الخلفي بينما نحن نرقب المشهد الأمامي فقط. فعلى سبيل المثال، عندما يعلو الضجيج في المطعم فإننا نشعر بأن الشخص الذي نتشارك معه العشاء يتحدث بصوت منخفض وذلك لأن تركيزنا على وجه ذلك الشخص وليس على الأمور الأخرى المحيطة بنا في ذلك المكان.

في حين أننا نشعر بالثراء أو الفقر استناداً إلى المقارنات التي نجريها، إلا أن المقارنات الاجتماعية دائماً ما تحدث في المشهد الخلفي لتسبب بعض المناطق العمياء. فكر لمدة دقيقة واحدة ما هي الأمور التي تهكم أكثر، ما هي القيم التي جعلت منك ما أنت عليه اليوم؟ ما هي الدوافع التي تقودك؟ لقد قمت بسؤال مئات الأشخاص تلك الأسئلة خلال السنوات الماضية، وكانت أغلب الإجابات تتضمن مبادئ أساسية مثل الدين والحب والولاء والأمانة والنزاهة، وعلى الرغم من وجود شيء من التنوع في بعض الإجابات إلا أنه يمكننا حصرها جميعاً ضمن بطاقة أعمال صغيرة، حيث أن كل تلك الإجابات كانت متشابهة سواء كانوا رجالاً أو نساء، من أهل الشمال أو من أهل الجنوب، ديمقراطيين أو جمهوريين؛ كل تلك الإجابات كانت متشابهة. ومع ذلك لم يذكر أحد الأمر الذي يصح على الدوام، سواء كانت تلك الإجابات ناتجة عن دراسات علمية أو من مجرد كونك إنساناً: «أنا أرغب بالمكانة الاجتماعية».

قد لا يعترف آخرون بذلك ولكن يمكننا بالتأكيد رؤيته في سلوكهم إذ نلاحظ ذلك في الملابس التي يشترونها، وفي المنازل التي يختارون العيش فيها، وفي الهدايا التي يقدمونها. وفوق كل شيء فإنه يمكننا تمييز ذلك في المعايير المتغيرة باستمرار لما يعتبر «كافياً». فلو قلنا إنك تلقيت أي زيادة في مدخولك المادي الشهري، فإنك تتأقلم مع المستوى الجديد لوضعك المادي لبضعة أشهر ثم ما يحدث بعد ذلك هو أنك ستعود من جديد للشعور بأنك تعيش من الراتب إلى الراتب. كلما زاد مستوى إنجازاتك كلما زادت معها معايير المقارنة الخاصة بك. على عكس الأعمدة الثابتة التي تُنشئها في دفتر الحسابات حيث تعتبر المكانة الاجتماعية هدفاً متحركاً وذلك لأنه يُحدّد بناءً على المقارنة المستمرة بالآخرين.

إننا نجري المقارنات الاجتماعية لكل الناس في كل مناسبة، ومع ذلك فإننا، وبشكل غامض، ننجح مراراً وتكراراً في العثور على مكان في النصف العلوي لسلم المكانة الاجتماعية حيث تكون

إقامتنا هناك أكثر راحة. فكر لدقيقة واحدة عن مدى إنجازاتك في عملك، ما مدى براعتك في العمل؟ ما مدى وفائك لصديقك؟ هل أنت سائق جيد للسيارة؟ أنت تعلم في أعماق نفسك بأنك أفضل من الشخص المتوسط والعادي في كل تلك النواحي. وفي الواقع يعرف معظم الناس في أعماقهم أنهم أفضل من الناس العاديين في أغلب الأشياء. وهذا، بقدر ما يمكن لأي شخص أن يخمنه، غير ممكن الحدوث على الإطلاق.

ويطلق على تلك النتيجة اسم «تأثير بحيرة ووبغون» (الواقعة بعد بلدة غاريسون كاييلور الخيالية)، حيث تكون كل النساء قويات وكل الرجال رائعي المظهر وكل الأطفال فوق المتوسط. «تم اكتشاف ذلك التأثير بالصدفة أثناء دراسة أجريت في عام ١٩٦٥ م، للناجين من حوادث السيارات. حيث أمضى الباحثون ستة أشهر في إجراء مقابلات مع جميع المرضى الذين أدخلوا إلى مستشفى سياتل(5). جراء الإصابات التي لحقت بهم في حوادث مركبات النقل (السيارات والشاحنات)، وقاموا بمقارنة المرضى بمجموعة من المتطوعين في تلك الدراسة والذين كانوا يتطابقون مع المرضى في العمر والجنس والعرق والتعليم. كان سؤال (قيّم قدرتك على قيادة السيارة) أحد أسئلة المقابلة الموجهة للمرضى، على الرغم من أن ذلك السؤال لم يكن أحد النقاط الرئيسية للدراسة إلا أنه السبب وراء تذكر تلك الدراسة إلى اليوم وذلك لأن نزلاء المستشفى قيّموا أنفسهم بأنهم أفضل من المتوسط في قيادتهم للسيارة. وبالواقع كان تقييمهم مرتفعاً مثل ارتفاع تقييم أولئك المتطوعين الذين لم يسبق لهم إجراء حوادث للسيارات. من الواضح أن أولئك المرضى لم يسمحوا لدخولهم المشفى إثر حادثٍ مروري أن يؤثر على صورتهم الذاتية عن أنفسهم بأنهم سائقون ماهرون.

هل كان من الممكن أن تلك الحوادث في الحقيقة لم تكن غلطة أولئك المرضى؟ قام الباحثون بدراسة سجلات الشرطة، كل حالة على حدة، لتحديد من كان منهم بالفعل مسؤول عن الحادث ومن منهم كان الضحية. وأظهرت نتيجة تلك الدراسة بأن هؤلاء السائقين كانوا المتسببين في الحوادث التي حصلت لهم، بعد ذلك تبين لنا بأن تقييماتهم كانت مُبالغاً بها وهو الأمر ذاته الذي يفعله الآخرون.

ثم اكتشف مثال آخر، وفي وقت مبكر، على ذلك التأثير في استطلاع كبير تم إجراؤه بواسطة مجلس الجامعة والتي كانت بدورها تقدم اختبارات سات للقبول بالجامعة. حيث طلب في إحدى السنوات مما يقارب المليون طالب الذين قاموا بإجراء اختبار سات بأن يقيموا أنفسهم مقارنة بمتوسط الطلاب (المتوسط هو النقطة التي تكون في المنتصف بين الأفضل والأسوأ) حيث لم تكن التقييمات حول سات فحسب، بل كانت أيضاً حول الصفات الشخصية مثل القيادة والقدرة على العمل مع الآخرين وكانت النتيجة بأن ٧٠٪ قيموا أنفسهم بأنهم أعلى من المتوسط من ناحية القدرة القيادية و ٨٥٪ قيموا أنفسهم بأنهم أعلى من المتوسط من ناحية القدرة على العمل مع الآخرين.

وفي دراسة أخرى، طلب عالم النفس قسطنطين سيدكيديس وزملاؤه من مجموعة متطوعين أن يقيموا كم كانوا أشخاصاً صالحين، حيث اعتبر المتطوعون أنفسهم بأنهم أكثر أخلاقاً ولطفاً وأجدر بالثقة وأكثر صدقاً من الشخص المتوسط، وهي نتيجة غير مُفاجئة، إلا أن ما حدث هو أنه تم إرسال

هؤلاء المتطوعين في زيارة إلى السجن وسُجلت أسماؤهم كمُدانين بالإجرام ورُجِّحَ بهم خلف القضبان وهو المكان الذي طلب منهم فيه تقييم أنفسهم. والنتيجة كانت أن التصنيف الوحيد الذي لم يقوموا بتقييم أنفسهم على أنهم أفضل من الشخص المتوسط هو «الالتزام بالقانون» حيث قاموا بتقييم أنفسهم بالمتوسط، وبالنظر إلى أنهم أعطوا ذلك التقييم وهو خلف القضبان يقضون حكمهم القضائي، فإن ذلك التقييم يفتقر إلى الموضوعية.

وعلى مر السنين قامت مئات الدراسات بتكرار تأثير بحيرة ووبغون. أظهرت تلك الدراسات أن الكثيرين منا يؤمنون بأننا أعلى من المتوسط في الذكاء والإصرار والاجتهاد وفي لعبة التنس وبأي خاصية إيجابية أخرى. كلما زادت قيمة الميزة في أنفسنا، كلما زادت مبالغتنا في تقييمها. كانت دراستي المفضلة في هذا المجال هي التي طُلب فيها من زملائي أساتذة الجامعة بأن يُقيموا قدرات شرحهم وتعليمهم مقارنة بزملائهم، الأمر المدهش الذي حدث هو أن ٩٤٪ قالوا إن القدرات التي يمتلكونها هي أفضل من المتوسط. إن نزوع معظم الناس إلى تقييم أنفسهم بأنهم أكثر إدراكاً للأمور وأقل تحيزاً من الشخص العادي هي حقاً أساس كل التحيزات.

وبالطبع، فإن الدفع بأنفسنا إلى أعلى السلم في عقولنا ليس هو السبيل الوحيد لتحقيق أقصى استفادة من مقارناتنا الاجتماعية، فما نفعه أحياناً أننا نقوم بجر الآخرين إلى الأسفل. مؤخراً كنت واقفاً في طابور المحاسبة لدى أحد متاجر السوبر ماركت حيث عرفت بأن كيم كارداشيان زاد وزنها وأن دولي بارتن تبذر أموالها وأن مايلي سايروس^{١٢} تسيء استخدام موهبتها وعلى ما بدا أيضاً فإن بعض ربات البيوت بدأن في جدال فيما بينهن. لماذا تنهال علينا أخبار «المشاهير» مثل قصاصات الورق الملونة في الاحتفالات، بينما لم يسبق لنا أبداً أن قرأنا على أغلفة المجلات والجرائد عن (دايل) المتخصص في صيانة أجهزة التبريد والتدفئة وعلاقته مع (بريندا) ممرضة الرعاية الصحية المنزلية؟

الإجابة بالطبع هي أننا مفتونون بالأشخاص ذوي المكانة العالية على ذلك السلم. ولطالما تم تقديم الأشخاص ذوي المكانة العالية إلينا في الأعمال الدرامية على أنهم أبطال، وهذا الأمر ليس بجديد فهو يحدث من عصر أرسطو وذلك لأن الشخص الذي بدأ حياته في قمة ذلك السلم هو الوحيد الذي ستحدث له نقمة السقوط والتخلي عن تلك القمة. في حياتنا اليومية، والفنية، تلاحق أعيننا حياة الأغنياء والمشاهير وتغض النظر عن الأشخاص العاديين الذين يترنحون يميناً ويسرةً.

لماذا نهتم كثيراً بالمكانة الاجتماعية؟ هذه هي الفكرة الموجودة في أغلب الكتب حيث يكون النقاش مبنياً على أساس أن الكائنات البشرية هي أكثر الكائنات تميزاً في المملكة الحيوانية، إلا أن رغبتنا الشديدة في الحصول على مكانة اجتماعية أعلى هو أمر لا يفرق بيننا. وبالواقع فإنه أمر قديم نشترك به مع أبناء عمومتنا (قردة البابون والشمبانزي). إن مشاهدة تلك القردة تتنافس بشكل علني وجسدي، وقد يصبح عنيفاً أحياناً، وذلك في سبيل المحافظة على منصبهم في الهرمية هو أمر يشعروا بتغربنا عنها وتشبهها بنا في الوقت ذاته. إنه مثل شعورنا بعدم الراحة عندما نشاهدها تتزاوج إذ نشعر بالإحراج من سوقيتها ومع ذلك نتفهم دوافعها.

تتصرف الرئيسيات في المملكة الحيوانية بشكل مشابه كثيراً للبشر عندما يتعلق الأمر بالتحديق بالمشاهير. في دراسة قادها عالم الأعصاب مايكل بلات، أُعطيت فيها قرود المكاك الريسوسي rhesus macaque الخيار في النظر إلى مجموعة مختلفة من الصور في حين تم تعقب حركات عيونها. تضمنت واحدة من المجموعات صور قرود من نفس جماعتها ولكنها ذات مكانة اجتماعية أعلى، بينما تضمنت المجموعة الثانية صور قرود من نفس جماعتها أيضاً ولكن مكانتها الاجتماعية منخفضة. في كل مرة ينظر فيها القرد إلى صورة يُكافأ برشفة من عصير الفواكه تقدم له بواسطة أنبوب شرب (بالنسبة لقرود المكاك العطشى، فإن رشفة من العصير البارد تعتبر هدية مرحباً بها أكثر من أي مكافأة أخرى). وقام الباحثون بتغيير كمية العصير التي يتلقاها القرد على النحو التالي: في كل مرة ينظر فيها القرد إلى صور قرود ذات مكانة منخفضة يحصل فيها على كمية عصير أكثر، وفي كل مرة ينظر فيها القرد إلى صور قرود ذات مكانة عالية يحصل فيها على كمية عصير أقل.

كانت تفضيلات القرود واضحة حيث رغبت جميعاً بالنظر إلى القرود ذات المكانة الاجتماعية العالية وضحت بكمية كبيرة من العصير في سبيل ذلك. وفي واقع الأمر كان لها أن تحصل على كمية عصير إضافية لو تحملت رؤية القرود ذات المكانة الاجتماعية المنخفضة. كان هنالك أمر آخر تفضل رؤيته ذكور قرود المكاك أكثر من مشاهدة القرود المشهورة، ألا وهو رؤية الأجهزة التناسلية لإناثها.

ما علاقة تصرفات القرود بنا؟ بداية، تشترك قرود المكاك معنا في تركيبة الحمض النووي بنسبة ٩٣٪ وهذا لا يعني بالضرورة أننا جميعاً الشيء نفسه. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار نتائج مراقبة قرود المكاك مع نتائج مراقبة رئيسيات أخرى مشابهة لها مثل قرود الشمبانزي وقرود البابون الأفريقية التي تعتبر أكثر شبهاً لنا، فإنك ستبدأ في رؤية نموذج متتابع. لقد عاش آخر الأسلاف المشتركين لقرود المكاك والبشر معاً قبل حوالي ٢٥ مليون سنة، فترة أبكر بكثير من ستة إلى ثمانية ملايين سنة التي تفصلنا عن سلفنا المشترك مع الشمبانزي. إن التشابه في وجود الرغبة الجامحة في الحصول على المكانة الاجتماعية بين البشر وقرود المكاك يعني أن الصفة كانت موجودة فعلاً لدى أجدادنا وبذلك فإنها تعتبر صفة قديمة.

يحدثنا علماء الآثار عن فترات واسعة من تاريخنا التطوري قائلين إن أسلافنا عاشوا في مجموعات صغيرة تقنص الطرائد وتجمع الثمار من الغابات والسهول، هذه الطريقة في الحياة استمرت على الأقل لمائة ألف سنة. وخلال تلك الفترة كانت المجتمعات البشرية متساوية وهو الأمر الذي تعرفنا عليه من الأحافير والقطع الأثرية حيث كانت جميعها متشابهة لدى كل من كان يحوزها. ولاحقاً عندما أصبحت تلك المجتمعات البشرية أكثر تراتبية، تم العثور على الملوك والفراعنة مدفونين بتلال من الكنوز، وأحياناً دُفنت كلابهم المفضلة وزوجاتهم وعبيدهم معهم، وبالمقابل فإننا لا نشهد ذلك الأمر في قبور الأشخاص من الطبقات الأدنى سوى أنهم قد يُدفنوا مع دثار إذا كانوا سعيدي الحظ.

عندما عرفت لأول مرة وأنا طالب جامعي عن أولئك الصيادين وجامعي الثمار والمتساويين في

المكانة الاجتماعية، تخيلتهم مُحبين ومسالمين ويتشاركون ما ملكت أيديهم، تقريباً مثل الهبيين لابسِي المآزر غير المشوهين بالماديات الحديثة. وفي الواقع فإن السبب الرئيسي الذي جعل من الجماعات البشرية صيَّادة اللحوم وجامعة الثمار أكثر مساواة ليس أنهم خيَّرون أكثر مما نحن عليه اليوم بل لأنه كان من الصعب تجميع ثروة أكثر من أقرانك في المجموعة ذاتها حيث لم يكن هناك ثروة يمكن تجميعها تتجاوز صيد اليوم أو غنائم التوت ليوم غد. في ذلك الوقت كانت المشاركة تخلق وعياً أفضل للواقع، فماذا يمكن لشخص واحد أن يفعل بكل تلك اللحوم عندما يصطاد فيلٌ مستودون¹؟ أفضل طريقة للاستفادة من تلك اللحوم هو تخزينها في بطون العائلة والأصدقاء. في تلك البيئة سيُفهم ذلك التصرف على أنه حسنُ نية حتى إذا احتاج ذلك الشخص إلى مساعدة فإنه سيجدها من تلك العائلة والأصدقاء.

يعمل هذا النظام من المشاركة المتبادلة لأن الناس يتذكرون، يتذكرون ما حصل عليه الشخص وما هو الجهد المبذول من كل شخص للحصول على ذلك الشيء، وأنهم يشعرون بالاستياء عندما يحصل شخص على أكثر من غيره. في دراسة للقرود الكبوشية (وهو نوع القرود التي تنتمي لها القرود التي نراها في الشارع تعزف الموسيقى على آلة موسيقية قديمة) أشارت إلى أن هذه الموهبة في الممارسة الاجتماعية هي قديمة أيضاً. يتصرف القرود مثل البشر، إنهم يصابون بالذهول والغضب عندما يحصلون على نهاية غير متوقعة لمسألة ما. قامت ساره بروسنان، المتخصصة بالقرودة العليا، بتصميم لعبة تبادلية بسيطة للقرود الكبوشية. بداية أعطت أحد القرود حجراً صغيراً، بعد ذلك، كانت تمد يدها، وحين يرُجع لها القرد الحجر، كانت تعطيه الخيار. عندما لعبت القردة تلك اللعبة، كانوا دائماً يتاجرون بالحجر مقابل الخيار.

في الجزء الحاسم من تلك التجربة، قامت ساره بروسنان بإضافة قردين إلى اللعبة بحيث يمكنهما مشاهدة بعضهما البعض وهما يتاجران ويبادلان الحجر بقطعة من الخيار. بعد ذلك قامت بمبادلة حجر القرد الثاني بحبات من العنب، والتي تعتبر لدى القردة وجبة خفيفة أفضل بكثير من الخيار، ثم قامت بالرجوع إلى القرد الأول وبدأت اللعب معه بنفس اللعبة وذلك لتحديد ما إذا كان القرد سيختار الاختيار «العقلاني» (بالمعنى الاقتصادي الضيق) وسيأخذ قطعة الخيار حيث أن بعضاً من الطعام أفضل من عدمه، أو أنه سيحتج، وهو الأمر الأكثر ذكاءً اجتماعياً، ويتخلى عن الطعام في سبيل تطبيق العدالة؟

هذه المرة لم يتناول القرد المغبون شريحة الخيار. نظر إليها ثم رماها في وجه ساره بروسنان. كررت هذه اللعبة عشرات المرات مع العديد من القردة. في بعض الأحيان تلقي القردة قطعة الخيار جانباً وأحياناً تقوم القردة بقذف قطعة الخيار في وجه ساره بروسنان. وفي أحيان أخرى لا تقوم القردة بإرجاع الحجر، لماذا تدفع الحجر للحصول على صنف رديء؟

لم تعد شريحة الخيار، والتي كانت مقبولة لعدة دقائق سابقة، جيدة بما يكفي لقبولها عندما حصل القرد الآخر على حبات العنب. كانت النتيجة لافتة للنظر، وذلك لأنها أظهرت لنا بأن القردة تهتم بمكانتها مقارنة بأقرانها أكثر من شيء صالح للأكل. كان لديها إحساس رفيع بالعدالة أكثر بكثير مما توقعه الباحثون.

يحرص علماء الرئيسيات على ألا يصفوا الحالات الداخلية للحيوانات بمصطلحات بشرية في دراساتهم. لذلك عندما يقفز القرد إلى أعلى وأسفل ويكشّر عن أسنانه ويندفع بقوة فإن العلماء قد يطلقون عليه «العرض العدواني» ولكنهم لن يقولوا بأن القرد كان غاضباً. إذا شاهدت مقطع فيديو لتجربة عالمة ساره بروسنان، فإنه من الصعب عدم تفسير سلوك القردة بغير أنها تعبر عن المشاعر التي لديها. تقذف الخيار في وجه الباحثة ثم تهزّ مقدمة القفص وتصرخ مثل سجين يحاول أن يقوم بأعمال شغب. أنا لست عالم رئيسيات، لذلك يمكنني القول بأن القردة كانت غاضبة.

يشير ذلك الاكتشاف إلى أن القردة الكبوشية تكره الحصول على مردود مادي غير عادل، تماماً مثل البشر، كما تشير الدراسات إلى أن تلك النزعات في تصرف القردة هي نزعات موجودة داخل القرد خضعت للتطور ولم تكن نزعات مكتسبة. إذا كان الاهتمام بالعدالة أمراً يولد مع الإنسان حقاً، فإنه يجب علينا أن نجد الدليل على ذلك لدى الأطفال الصغار. وفي الواقع يُظهر الأطفال الصغار الذين هم بعمر الثلاث سنوات ردة فعل مشابهة للقردة الكبوشية. فعلى سبيل المثال، قامت دراسة بالطلب من أزواج من الأطفال مساعدة الباحث في تنظيف بعض الكتل، أحياناً كانت المكافأة عادلة بين الاثنين حيث أعطاهم الباحث بعض المصقات. وأحياناً كانت غير عادلة حين أعطى الباحث أحد الأطفال مصقات أكثر من الآخر. وعلى الرغم من عدم قدرة الأطفال على القول إن تلك المكافآت لم تكن عادلة، إلا أنهم أصبحوا غاضبين بشكل ملحوظ عندما تم إعطاؤهم قدراً أقل من أقرانهم. وكما يعلم آباء الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة، أن أولئك الأطفال لا يحتاجون لتعلم أن الحصول على نفس الكمية أمر عادل لكن الحصول على كمية أقل هو أمر غير عادل. قد يحتاج تعلم عد الأرقام بعض الوقت إلا أنهم لن يحتاجوا وقتاً لتعلم الإنصاف لأنه كما اتضح لنا في تلك التجربة هو أمر موجود لديهم بالفطرة.

ويكاد يكون من المؤكد أن جماعات البشر الأولى اعتمدت تراتبية المكانة حيث كان بعضهم في مرتبة أعلى من الباقين ولكن انعدام القدرة على جمع كميات كبيرة من المال ومع تعداد سكان بالعشرات وليس بالآلاف فإنه وبكل بساطة من المستحيل أن يكون الفرق بين أعلى سلم تراتبية المكانة وأسفله كبيراً جداً. ومثل أقاربنا من الرئيسات، كان البشر الأوائل يهتمون في أعماقهم بالمكانة الاجتماعية وذلك ضمن عصباتهم الصغيرة حيث كان الهيكل الاجتماعي الطبيعي للإنسان العاقل المبكر هو السلم الاجتماعي، لكن ذلك الهيكل كان قصيراً جداً.

لم تكن الطبيعية البشرية هي الأمر الذي تغير، بل كان أمراً عملياً جداً وملموساً وحديثاً للغاية وهو اكتشاف الإنسان للزراعة. فبعد آلاف القرون التي كان خلالها الصيد والالتقاط هما الطريقة الوحيدة للحياة، ظهرت الزراعة قبل مائة قرن من الآن بشكل متواقت تقريباً في العديد من الأماكن على هذه الأرض، وعلى مقياس تطوري، يُعدّ ذلك غمضة عين. وبشكل مفاجئ ولأول مرة على الإطلاق، استطاع الناس أن يستقروا في مكان واحد يزرعون فيه المحاصيل ويخزنون الحبوب في أوعية طينية كما بدأوا أيضاً بتربية الماشية التي تعتبر، برأي الراعي، آلات متحركة لتخزين اللحوم حيث بمجرد أن يتراكم الطعام بكميات كبيرة يصبح بمقدور البعض أن يجمع اللحم بكميات أكبر من أقرانه، وفعلاً تمكنوا من ذلك. لم يمض وقت طويل على ظهور المدن في بعض الأماكن مثل مصر

في الشرق الأوسط والصين والهند والأمريكيتين، وعلى مقربة من تلك المجتمعات الزراعية الكبيرة والكثيفة، بدأت فروقات الثروة بالظهور.

في حين أنه من الصعب تحديد مدى انعدام المساواة الاقتصادية في العصور القديمة، إلا أنه يمكننا توقع أنها كانت عالية جداً حيث كان لدى معظم المجتمعات الزراعية ملك أو حاكم قوي يهيمن على ثروات طائلة. في المنطقة السفلى للسلم الاجتماعي كانت غالبية الناس العاديين فلاحين وكانت العبودية تمارس عموماً. وفي التاريخ الحديث وصل التفاوت في الدخل المالي إلى أعلى نقطة له في أواخر العشرينيات ومباشرة قبل انهيار سوق الأسهم المالية في عام ١٩٢٩م والكساد الكبير الذي تبع ذلك، حيث سُجِّلَتْ أعلى نقطة للتفاوت في الدخل المادي. أما اليوم فلقد وصلنا إلى نفس الدرجة من التفاوت في مستوى الدخل المالي التي كانت موجودة قبل فترة الكساد الكبير.

إذا لم يكن البشر مخلوقات متفردة عندما يتعلق الأمر باهتمامهم بالمكانة الاجتماعية، فإن أحد الفروقات التي يمكننا الادعاء بها هي أننا قمنا ببناء سلام اجتماعية بذلك الارتفاع الذي يُقَرَّم السلام الاجتماعية التي بناها أسلافنا من الصيادين وجامعي الثمار وأقربائنا من الرئيسيات. تمهد تلك الفروقات الكمية للتناقضات بين مقياس انعدام المساواة الذي طورناه والمقياس الذي نحن بصدد اليوم.

ثمة الكثير مما يعتمد على كيفية فهمنا للفوارق بين ما يمتلكون وما لا يمتلكون. إذا سألت الناس ما إذا كان هنالك انعدام للمساواة أم لا، فإن إجاباتهم ستكون متحيزة ومبنية على مكانتهم، حيث إن الناس الذين لديهم بعض المعاناة الاقتصادية سيقولون إن مستوى انعدام المساواة كبير جداً، وفي المقابل سيقول الناس الذين استفادوا من النظام الحالي إنه على ما يرام. كيف يمكننا الحكم على اللاعدالة بأنها «زائدة عن الحد»؟

اتَّخَذْتُ أهم وجهات النظر حول ذلك السؤال شكلاً أنيقاً في منزل يقع في مدينة بالتيمور في عام ١٩٢٨م. فقد أصيب جون، البالغ من العمر ٧ سنوات، ابن وليام راولز بالدفتيريا. وهي عبارة عن عدوى تنفسية مشابهة لأعراض الإصابة بالإنفلونزا. وعلى عكس الأنفلونزا، فإن الدفتيريا تقتل ما يصل إلى ٢٠٪ من الأطفال الذين يصابون بها. لكن ابن وليام راولز كان يحظى بأفضل رعاية طبية يمكن أن تشتري بالمال. وذلك لأن وليام راولز كان أحد أبرز المحامين في بالتيمور. ومع العناية المستمرة تعافى جون من ذلك المرض. لكن قبل أن يتعافى قام بنقل العدوى إلى شقيقه الأصغر (بوبي) وكان (بوبي) أقل حظاً حيث توفي قبل عيد ميلاده السادس.

وبعد ذلك بعام أصبح جون طريح الفراش مرة أخرى أما هذه المرة كانت بسبب الالتهاب الرئوي أيضاً تعافى من المرض إلا أنه نقل العدوى إلى أخيه الأصغر ابن السننتين (تومي) والذي توفي أيضاً. كبر جون راولز ليصبح أهم فيلسوف سياسي في القرن العشرين ويقول كاتب سيرة حياته إن وفاة أشقائه المؤلمة كانت هي الأكثر تأثيراً في حياته، ربما كان أخوته الصغار أقل صلابة منه، ربما كانوا ببساطة أقل حظاً. والنظام المناعي القوي لم يكن الشيء الوحيد الذي يملكه جون، بل كان يحمل ذكاءً لامعاً وانضباطاً صارماً. يعتقد معظمنا أن من يمتلك تلك الصفات المرغوبة فإنها

ستجلب له مكانة اجتماعية عالية يستحقها في مجتمع الاستحقاق.

ومع ذلك كان جون راولز مشككاً بتلك الفكرة حيث قال، إذا كان الرجل بارعاً فلماذا يثنى عليه لكونه كذلك؟ كان فقط محظوظاً كونه وُلِدَ ذكياً. إذا كانت لديه أخلاق عمل قوية فإنه يربح الجائزة الكبرى فقط لأنه مجتهد وملتزم بمبادئ عمله وإذا كان هنالك صبي قوي نجا من مرض مهلك ولم ينجُ منه فتى آخر فإن ذلك ببساطة يعبر عن حقيقة وحشية الحياة. لم يرَ جون راولز في ذلك أمراً أخلاقياً جديراً بالثناء.

الجزء الأكثر شهرة من نظرية جون راولز للعدالة هو عبارة عن تجربة فكرية تسمى «حجاب الجهل». تخيل أنك استيقظت من نوم عميق وأنت على متن رحلة فضائية بين النجوم ولا تتذكر أي شيء عن نفسك ولا تعرف هل أنت غني أم فقير، قوي أم ضعيف، ذكي أم غبي. وبينما تقترب مركبتك الفضائية من كوكب جديد فإنه يتوجب عليك أن تختار المجتمع الذي ترغب العيش فيه من بين العديد من المجتمعات. ولكن المشكلة تكمن في أنك لا تعرف المنصب الذي ستشغله في المجموعة التي ستختارها.

بعض المجتمعات الفضائية لديها انعدام مساواة بشكل لا يصدق، حيث العبودية هي المبدأ العام. مجتمعات أخرى يكون فيها انعدام المساواة بمستوى أقل، ولكنه لا يزال متطرفاً حيث يكون بعض السكان في تلك المجتمعات فقراء جداً والبعض الآخر أغنياء بشكل فاحش. وهناك مجتمعات متساوية مع فروق بسيطة بين من يملكون المال ومن لا يملكونه. أي مجتمع ستختار؟

قد يختار بعض الجريئين المجتمع غير المتكافئ ويরাهنون على الهبوط في مكانة ممتازة. لكن جون راولز رأى أن أي شخص عاقل سيختار المجتمع القائم على المساواة وهو الأمر الذي سيضمن له بأن أسوأ النتائج في تلك الحالة يمكن تحملها. كانت وجهة نظر جون راولز تنص على أنه إذا قمت بسؤال الناس كيف يحكمون على انعدام المساواة بأنها منصفة أو ظالمة، فستكون آراؤهم ببساطة مبنية على قدراتهم واهتماماتهم الشخصية. وسوف يدافع الأفراد الأذكي والأقوى والأكثر تنافسية عن المردود المالي غير العادل وذلك لأنهم بدأوا بالانتفاع منه.

وأيضاً فإن أولئك الذين لديهم أسوأ الاحتمالات سيختارون التوزيع المالي الأكثر إنصافاً. إذاً فإنه بدلاً من تعبيرهم عما يعتقدونه عادلاً ومنصفاً، فإنهم سيختارون ما يرجع عليهم بالنفع. وعلى الرغم من أنه لا أحد يستطيع أن يبعد كل ما شأنه أن يؤثر على مكانته الاقتصادية والاجتماعية بالكامل، إلا أن جون راولز يعتقد بأن النظر من خلال «حجاب الجهل» من شأنه أن يساعدنا على الرؤية بموضوعية أكثر.

يعتبر حجاب الجهل مجرد تجربة فكرية. إلا أن دراسة قام بها عالم النفس مايكل نورتون وخبير الاقتصاد السلوكي دان أريلي بلُ خطوا بها خطوة أبعد وذلك بتطبيقها على البيانات الفعلية. قاموا بتقسيم السكان إلى خمسة أخماس متساوية، من أفقر ٢٠٪ إلى أغنى ٢٠٪، ثم طلبوا من مجموعة تابعة تضم أكثر من خمسة آلاف أمريكي أن تقدر أية حصة من إجمالي ثروة الدولة يمتلكها كل قسم. على الرغم من معرفة الناس في تلك الدراسة بانعدام المساواة المالية، فقد دلت ردودهم على أنهم

قللوا من تقدير حدتها على نحو كبير. فعلى سبيل المثال حكموا بأن الخمس الأغنى يمتلك حوالي ٥٩٪ من ثروة الدولة بينما هو في الواقع يمتلك ٨٤٪.

ثم، باستخدام المجموعات الخمس نفسها، طلب الباحثون من المشاركين أن يصفوا ما يعتقدونه مناسباً من الحصص في العالم المثالي. خصّ الخاضعون للاختبار الخمس الأغنى بثلاث الثروة، والخمس الأفقر بـ ١٠ بالمائة من الثروة (وفي الواقع فإن الحصة الحقيقية المخصصة للخمس الأدنى هي ٠.١ بالمائة) لم تكن تلك المخصصات المالية المثالية مشابهة لنظيراتها في الولايات المتحدة الأمريكية وهي الدولة التي تعد الأكثر انعداماً في المساواة المالية. وبدلاً من ذلك بدت تلك المخصصات المالية المثالية مماثلة لنظيراتها في السويد والتي تعد واحدة من أكثر الدول إنصافاً على وجه الأرض.

كان الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في تلك الدراسة هو ما فعله الباحثون تالياً حيث عرضوا على المشاركين زوجاً من الرسوم البيانية دائرية الشكل التي توضح توزيعات مختلفة للثروة. وعلى الرغم من أن المشاركين لم يعلموا بذلك إلا أن الرسم البياني الأول يوضح التوزيع المالي للولايات المتحدة الأمريكية والرسم البياني الثاني يوضح التوزيع المالي لدولة السويد. حيث قام الباحثون بسؤال المشاركين عن المجتمع الذي يرغبون أن يعيشون فيه في حال كان سيتم اختيارهم عشوائياً لأن يكونوا في أي وضع اقتصادي في ذلك المجتمع الذي سيختارونه. وبعبارة أخرى، وضع الباحثون أولئك المشاركين خلف حجاب جون راولز للجهل وتركوا لهم الخيار.

اللافت للنظر أن ٩٢٪ من الأمريكيين قاموا باختيار النموذج السويدي والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو حجم الإجماع على هذا الاختيار. قام كل من النساء والرجال باختيار النموذج السويدي بنسبة تتجاوز حد ٩٠ بالمائة فأغلب الناس الذين تتكون رواتبهم من ستة أرقام اختاروا النموذج السويدي (٨٩ بالمائة) وهي تقريباً نسبة مماثلة لنسبة الأشخاص الذين يقبضون راتب شهري أقل من ٥٠٠٠٠ دولار (٩٢ بالمائة).

كان هنالك إجماع حتى بين القوى السياسية حيث تم اختيار النموذج السويدي بشكل ساحق من قبل الجمهوريين بنسبة ٩٠٪ ومن قبل الديمقراطيين بنسبة ٩٤٪. بعد أربعين سنة من عرض جون راولز لمفهوم حجاب الجهل، تصرف الناس كما توقع تماماً حيث اختاروا الخيار الأكثر عقلانية.

استخدم جون راولز حجاب الجهل ليثبت أنه بمجرد أن تتلاشى المصلحة الذاتية، يستطيع أي شخص أن يرى أن المساواة أمر يجب تفضيله على عدم المساواة. وأكدت دراسة نورتون وأريلي أن غالبية الناس في الواقع يفضلون المساواة إلى حد معين. لم يختار المشاركون في تلك الدراسة المساواة الكاملة فلازالوا يؤمنون أن الخمس الأغنى يجب أن يكون لهم نسبة أعلى بكثير مما هي عليه من إجمالي الثروة مقارنة بالخمس الأفقر، لكن الفرق بين الواقع الذي نعيشه الآن وبين ما ينبغي أن يكون عليه، يعني أننا سنجد أنفسنا في مأزق غريب وذلك يعود إلى أن اقتصادنا الحديث يثبت أنه غير ملائم لأنواع المخلوقات التي تطورنا إليها على مدى آلاف القرون الأخيرة.

يعد انعدام التوافق بين قابليات غذائية تتطور ببطء من جهة وبين سرعة تغير البيئات من جهة

أخرى أحد مصادر زيادة البؤس في العالم الحديث، دعونا نأخذ الجوع على سبيل المثال: لا يعتمد التطور على الكائن الحي حتى يدرك حالته من «أنا أحتاج هذا العدد المحدد من السعرات الحرارية للبقاء على قيد الحياة» وصولاً إلى «لذلك سأكل هذا الطعام بعينه». يعتبر التفكير عملية معقدة للغاية وغير موثوقة وغير ملحة بما يكفي لذلك. وبدلاً من ذلك تصفي البيئة الطبيعية الموردة للأغذية طعاماً يميز ذلك الطعام الذي نأكله. لقد طورنا شغفنا بالمواد الغذائية التي نأكلها مثل السكر والدهون وذلك لأنهما يؤثران بشكل أساسي على زيادة الوزن. كان مصدر الغذاء شحيحاً لدى أسلافنا لدرجة أن خطر الجوع يفوق أي سلبات محتملة ناتجة من زيادة الأكل.

يميل الإنسان البدائي النهم للسكريات والدهن إلى التغلب على الآخرين الذين يتمتعون بشراهة أقل لهذه المواد، ونتيجة لذلك انتشرت تلك الخصلة بين البشر. ولكن في عالمنا اليوم حيث يتوافر الغذاء بكثرة، تسهم تلك الرغبة في الأكل إلى السمنة ومرض السكري وأمراض القلب. زودتنا طبيعتنا البشرية بتفاوت مفيد بين الوقت الذي تمتلئ فيه معدتنا بالطعام والوقت الذي ترسل فيه إشارة الشبع إلى الدماغ الأمر الذي ساعد أجدادنا القدامى على أن يأكلوا كمية أكثر في كل وجبة يتناولونها. والمشكلة هي أن هذه الآلية لا تزال تعمل إلى الآن.

تعيث نفس أنواع عدم التطابق فساداً في حياتنا الجنسية. لم يعتمد التطور على الأفراد في اتخاذ القرارات المتعلقة بتنظيم الأسرة من أجل نقل جيناتهم. وبدلاً من ذلك خلق بعض أنواع البشر غير المقاومين لبعض أنواع من البشر الآخرين ومن ثم خلّقنا بطريقة تجعل من تلك النشاطات التي تحدث ونشعر فيها بدوار العينين وارتعاش أصابع الأقدام نشاطات تخدم في إنجاب الأطفال. من جهة، يبدو أن ذلك النظام حقق نجاحاً عظيماً حيث زاد عدد السكان في العالم ليصل إلى سبعة مليارات ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار أن نصف حالات الحمل التي تحدث في الولايات المتحدة - ٨٠٪ من حالات الحمل كانت بين المراهقين، هي غير مقصودة، أو تأمل حقيقة أن حوالي ٢٥٪ من المتزوجين في الولايات المتحدة الأمريكية يعترفون بأنهم قد أقاموا علاقات خارج نطاق الزواج. علينا أن نتساءل عن مدى الانسجام بين نموذج الحياة الجنسية في العصر الحجري وبين الواقع المعاصر. ربما يكون نظام التناسل لدينا ناجحاً وملائماً جداً لطريقة الحياة التي نرغب في عيشها اليوم وقد نكون قادرين على تجنب الكثير من الحزن والأسى لو استطاع بعض الأشخاص أن يكونوا أكثر مقاومة.

وهناك أيضاً انعدام توافق بين المكانة الاجتماعية التي نتوق للصعود إليها وبين بيئتنا الاقتصادية الحديثة. وكما سنرى في الفصل التالي فإن المكانة الاجتماعية عالية المستوى مفيدة لصالح البقاء والتناسل. ترك أجدادنا القدامى الذين كافحوا من أجل المكانة الاجتماعية سلالات بشرية أكثر من منافسيهم الضعفاء الكثيرين نتيجة لذلك فإنهم أورثونا رغبة جامحة في الحصول على مكانة اجتماعية أفضل. تعتبر القوة والمال ونيل إعجاب الآخرين أموراً لا يمكن مقاومتها تماماً مثل عدم مقامة الكثير من الناس للطعام والجنس. قد يرث الإنسان الصبور الأرض في نهاية المطاف، ولكن لازال الأقوياء يملكونها بقوة حتى الآن.

على مدى آلاف القرون، تطورت السلالم الاجتماعية وعقولنا وأجسادنا بما يكفل ارتقاءنا بضع

درجات أعلى فقط. إذا كان سلم العالم المعاصر لا يزال بنفس مستوى السلم البشري الذي اعتدنا عليه من قبل، فقد لا تكون حاجتنا الملحة في الحصول على مكانة اجتماعية عالية أمراً شائكاً، ولكن بدلاً من ذلك فإننا نواجه أمراً مكافئاً هو تسلق ناطحات السحاب. وأيضاً إذا كنا من النوع الذي لا يهتم كثيراً بالمكانة الاجتماعية فإن انعدام المساواة الهائل الموجود اليوم قد يكون مقبولاً. ولكن تتحطم رغبتنا الجوهرية في الحصول على مكانة اجتماعية عالية أمام ما نراه من حولنا من انعدام المساواة وما له من آثار وخيمة على الجميع، ليس فقط على الفقراء بل أيضاً على أبناء الطبقة المتوسطة.

دمغت وجبات الغذاء المجانية وبطاقات الأكل المجانية والأجبان الحكومية(6). طفولتي بعلامات محسوسة تشير إلى الدرجات التي تحتلها عائلتي على سلم المكانة الاجتماعية. لكن ذلك الارتباك الذي شعرت به في طابور الغذاء عندما كنت في الصف الرابع، لم يكن مبنياً على كمّ النقود التي لم تكن بحوزتي بل على تصوري الذاتي قافراً من الصف مع حقيقة موقعي على سلم مكانة جديد.

عندما نتأمل في حاجة البشر إلى المكانة الاجتماعية والاقتصادية مع الأخذ بعين الاعتبار أن العديد من اقتصاديات العالم أصبحت تحتوي على فجوة كبيرة جداً بين الأغنياء والفقراء في العقود الأخيرة الماضية، فإن تصورنا عن انعدام المساواة يتغير. فإذا كان ردنا على انعدام المساواة مبنياً على حاجتنا إلى المكانة الاجتماعية، فإن انعدام المساواة المالية ببساطة لا يعنى بكمية النقود التي نملكها؛ إنه يعنى بمكان ووقوفنا مقارنةً بالأشخاص الآخرين ومن هذا التصور فإن المال يعتبر ببساطة طريقة واحدة نحافظ من خلالها على موقعنا الذي ارتقينا إليه في ذلك السلم. الشعور بالفقر هو ما يشكل الفرق، وليس مجرد أن تكون فقيراً. وهذا هو السبب في أن تصورك الذاتي عن مكانك في ذلك السلم يعبر عن الكثير مما قد تكون عليه في المستقبل.

الفصل الثاني

سهل نسبياً

لماذا لا نستطيع التوقف عن مقارنة أنفسنا بالآخرين

لم تقرر مولي أورشانسكي أبداً رسمَ الحد الرسمي الفاصل بين الأشخاص الذين يملكون المال والأشخاص الذين لا يملكون المال، حيث نشأت هي نفسها على الجانب السلبي من ذلك الحد، كانت واحدة من ستة أخوات تنام كل اثنتين منهما على سرير واحد في برونكس. كانت أول فرد أكمل تعليمه الثانوي، ثم الجامعي، من عائلتها الأوكرانية المهاجرة. لم تحلم مولي أورشانسكي أبداً بأن تلك الأرقام التي عدتها على يدها ومن ثم رتبته في أعمدة أنيقة على صفحات مجلة مغمورة، ستحدد لملايين الناس المفهوم الغريب لـ الكفاية.

في عام ١٩٦٠م، عملت أورشانسكي كباحثة في إدارة الضمان الاجتماعي وذلك للبحث عن أفضل الطرق لقياس حجم الفقر من بيانات التعداد السكاني. قبل عملها كان من الصعب تحديد عدد فقراء الولايات المتحدة الأمريكية وذلك يرجع إلى قلة توفر نماذج إحصاء الفقراء. كانت إحدى أفكار أورشانسكي هي تصنيف العائلات على أنها فقيرة استناداً إلى تكلفة الطعام، ونتيجة لبحثها عرفت أن العائلة المتوسطة في ذلك الوقت تصرف ثلث دخلها المالي على الطعام. وأصدرت وزارة الزراعة، في ذلك الوقت، أربع خطط غذائية للأسرة، كل خطة تصف مجموعة من المستلزمات الرئيسية التي ستحتاجها الأسرة لتناول وجبات غذائية صحية. تم ترتيب تلك الخطط الغذائية بدءاً بالأكثر غلاءً (الخطة الوفيرة) وانتهاءً بالأقل تكلفة والتي يمكن للأسر أن تعيش عليها (الخطة الاقتصادية). ونتيجة لذلك، صدرت دراسة في عام ١٩٦٣م اقترحت فيها أورشانسكي أن الباحثين قد يحددوا الفقراء بواسطة أخذ ثاني أقل وجبة تكلفة، وضرب تلك التكلفة في ٣. وضمن تلك الصياغة يمكننا تعريف الكفاية على أنها القدرة على إطعام عائلتك وتغطية النفقات الأساسية، وسيتم اعتبار أي دخل مادي أقل من ذلك الرقم على أنه تحت خط الفقر.

في عام ١٩٦٤م، أعلن ليندون جونسون «الحرب على الفقر» وبسبب افتقار إدارة الضمان الاجتماعي إلى مقياس رسمي لتحديد من هو الفقير. قررت الإدارة تبني نموذج «مؤشر أورشانسكي» لتحديد المؤهلين للحصول على المساعدات الحكومية. فوجئت مولي أورشانسكي بهذا القرار مثلها مثل الآخرين حيث إنها قامت بتطوير طريقته لمساعدة الباحثين على قياس الفقر ولم تقصد بها أبداً أن تستخدم لتحديد المؤهلين للحصول على المساعدات الحكومية، وعلى الرغم من أنها فضلت استخدام خطة ثاني أرخص وجبة غذائية كأساس للمؤشر، إلا أن الحكومة أرادت استخدام الخطة الأقل تكلفة (الخطة الاقتصادية). ورداً على ذلك قامت مولي أورشانسكي بإضافة القليل من الحشو على الميزانية من خلال اقتراح إضافة ١٥ سنناً يومياً كمصروف لشراء مبهجات للأطفال أو لشراء كوب من القهوة. من خلال ذلك التزوير والإضافة على الميزانية يمكنك رؤية آثار شخص عاش فقيراً يوماً ما. قالت مولي أورشانسكي مرة «عندما أكتب عن الفقر فإنني لا أحتاج إلى

مخيلة جيدة، أنا أمتلك ذاكرة جيدة». في نهاية الأمر اعتمد اقتراحها من قبل المشرف عليها بالعمل وقامت الحكومة باختيار خطة الوجبات الأقل تكلفة (الوجبات الاقتصادية)، وبذلك تم رسمياً اعتماد خط الفقر وللمساعدات الحكومية للفقراء بنفقة قدرها ٣ أضعاف تكلفة أرخص طريقة ممكنة لإطعام الأسرة.

لا تزال حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم ذلك النموذج إلى اليوم لتحديد الفقر إلا أنه تم تعديله ليواكب التضخم المالي الحالي، وليس بسبب التغيرات التي طرأت على النفقات التي تتحملها الأسر. كان لتلك التغيرات تأثير كبير على مر السنين. فمثلاً، في ستينيات القرن الماضي أنفقت الأسر ثلث دخلها على الطعام ودفعت قيمة اللوازم الأخرى الثلثين الباقيين، أما اليوم فإن الأمريكيين ذوي الدخل المتوسط ينفقون ١٣٪ فقط من دخلهم على الطعام. أما التكاليف الأخرى فقد ارتفعت بشكل كبير جداً، نتيجة لذلك فإن ٨٧٪ المتبقية تغطي احتياجات مثل السكن والمواصلات ورعاية الطفل والرعاية الصحية. ولكي نخلق الآن معنى مكافئاً لخط الفقر مثلما كان عندما تم ابتكاره في الماضي، فإنه سيكون علينا مضاعفة الحد الأدنى لتكلفة الطعام ليس بالعدد ٣، وإنما بالعدد ٨.

يعتبر خط الفقر اليوم لعائلة مكونة من ٤ أفراد هو ٢٣٨٥٠ دولاراً في السنة، سواء كانت تلك العائلة تعيش في مدينة نيويورك أو في تعيش على طريق ريفي في أركنساس (Z). ومع ذلك فإنه في عام ٢٠١٣ م عندما قامت غالوب بول (8) بإجراء استطلاع للرأي سألت فيه الأمريكيين عما هو أقل دخل يعتقدونه تستطيع من خلاله أسرة مكونة من ٤ أفراد العيش عليه، كان متوسط الأجوبة هو ٥٨٠٠٠ دولار.

كانت أجوبتهم مرتبطة بمدخلهم المالي الخاص بهم. تقول الأسر التي يجني أفرادها أقل من ٣٠٠٠٠ دولار بأنهم يحتاجون ٤٤٠٠٠ دولار ليحصلوا على كامل كفايتهم من لوازم المعيشة، بينما الأسر التي تجني ٧٥٠٠٠ دولار أو أكثر بأنهم يحتاجون إلى ما لا يقل عن ٦٩٠٠٠ دولار ليحصلوا على كامل كفايتهم من لوازم المعيشة. عندما قامت غالوب بالسؤال عن كم يحتاجون أن يجنوا من المال ليصبحوا أغنياء، كانت الإجابة المتوسطة هي ١٥٠٠٠٠ دولار، ولكن أيضاً تعتبر هذه الإجابة مُستندة على الدخل المالي للمجيبين على ذلك الاستطلاع أنفسهم. وكلما زاد الدخل المالي الذي يجنيه الشخص، كلما زاد معه اعتقاده بأنه سيعتبر غنياً. بالنسبة لمعظم الناس يبدو أن تكون غنياً يعني أن تجني تقريباً ثلاثة أضعاف ما تجنيه في الوقت الحالي.

لذا من هو الفقير بالفعل، ومن هو خلاف ذلك؟ الإجابة على ذلك السؤال معقدة أكثر مما تبدو عليه. أفصحت نتائج الاستبيانات الحكومية الحالية بأن ٩٦٪ من الأسر الأمريكية والتي تعتبر تحت خط الفقر، تمتلك أجهزة تلفاز. و ٩٣٪ منها لديها أجهزة مايكرويف و ٨٣٪ منها لديها أجهزة تكييف و ٨١٪ منها لديها هواتف نقالة. هل يمكن بالفعل وصف من يستخدمون تلك الأجهزة بالفقراء؟

دعونا ننظر إلى السؤال من زاوية أخرى. عاش توماس جيفرسون (وهو الرئيس الثالث للولايات المتحدة ومؤلف إعلان الاستقلال برافاهية، حيث قام ببناء مونتيسيلو وهي واحدة من أكثر المساكن شهرة في عصره. مونتيسيلو كان أمراً مبتكراً وذلك ليس من أجل هندسته المعمارية فحسب، بل

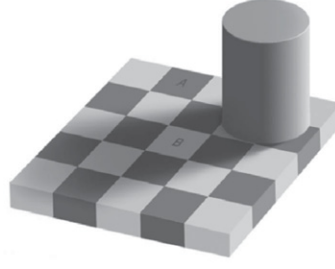
أيضاً من أجل أجهزته الذكية حيث كانت تلك الأجهزة سابقة لعصرها وتم اختراعها بواسطة توماس جيفرسون نفسه، فُخِذَ على سبيل المثال جهاز «تداخل المعلومات» في المكتب المنزلي لتوماس جيفرسون حيث لم يكن جهازاً لكشف الكذب وهو المصطلح الذي نستخدمه اليوم، بل كان عبارة عن جهاز غريب الشكل يحتوي على لوح للكتابة وسلسلة من الرافعات الخشبية المتصلة باثنين من أقلام الحبر. وتتلخص آلية عمل هذا الجهاز بأنك عندما تقوم بكتابة رسالة بأحد القلمين، فإن القلم الآخر يقوم، بنفس الوقت، بكتابة نسخة مطابقة لتلك الرسالة. وأيضاً كان هنالك مساعد صغيرة تشتغل بواسطة البكرات وذلك لنقل الطعام بين الطوابق. و«الساعة العظيمة» الخاصة بتوماس جيفرسون والتي لا تقوم تروسها المعقدة بحساب الوقت فحسب، بل إنها أيضاً تقوم بحساب اليوم والشهر.

على الرغم من تلك الأعاجيب التقنية إلا أن توماس جيفرسون لم يكن لديه في ذلك المنزل ماء ساخن ولا أجهزة تكييف ولا كهرباء ولا مايكروويف بالتأكيد. ووفقاً لتلك المعايير المادية فإنه سيتم الحكم عليه بأنه أفقر من الفقراء في أيامنا الحالية في البلدان المتقدمة. إذاً لماذا لا نعتبر بأنه قد عاش حياته فقيراً؟ الجواب هو، كما يوضح لنا المنظور التاريخي، أن معيار الفقر والغنى يقارن بما يملكه الآخرون من حولهم في وقت معين وفي مكان معين.

أشار آدم سميث إلى تلك النقطة بالتحديد في كتابه (ثروة الأمم):

أنا أفهم وفقاً للضروريات، ولا أعني بذلك مجرد السلع التي يُعتبر توفرها ضرورياً لدعم مسيرة الحياة الأساسية بل أعني الأعراف، لأية بلدة كانت، التي تقلل من شأن الأشخاص الذين لا يتمسكون بها (سواء كانوا أشخاصاً ذوي مكانة ووجاهة عالية أو أشخاصاً عاديين). فعلى سبيل المثال لا يعتبر القميص المصنوع من الكتان ضرورة من ضروريات الحياة الأساسية... ولكن حسب معطيات الوقت الحالي في القسم الأكبر من أوروبا يخلج الكثير من العمّال من الظهور للعامة بدون ذلك القميص المصنوع من الكتان... إنها الأعراف. وعلى نفس النهج، فإن الأحذية المصنوعة من الجلد ضرورة من ضروريات الحياة لسكان إنجلترا حيث يخلج الشخص (رجلاً كان أم امرأة) من الظهور للعامة بدون ذلك الحذاء حتى وإن كان من أفقر الناس.

وما كان بالأمس قميصاً مصنوعاً من الكتان أصبح اليوم هاتفاً ذكياً. أكثر من مائتي عام توصل أبو الاقتصاد إلى استنتاج يثبت العلم الحديث اليوم وهو أن الفقر والغنى هما أمران لا يعتمدان، إطلاقاً، على المبالغ المالية حيث أن هنالك بلداناً متقدمة بما يكفي لأن لا يعاني فقراؤها من الجوع، العامل الرئيسي لقياس مستوى الغنى والفقر هو الوضع النسبي. ولفهم لماذا لا يتضور فقراء تلك الدول من الجوع، علينا أن نحلل كيف يحكم العقل البشري على القيم بأكثر الطرق أصولية.



الإدراك يتناسب مع العوامل المحيطة ؛ و لهذا السبب يبدو المربع ب أفتح لوناً من المربع أ . تم اختراع الخدع البصرية من قِبل إدوارد أدلسون.

ألق نظرة على مربعات الشطرنج أدناه في الشكل ٢.١. يستحيل علي أن أقنعكم بأن المربع الرمادي (المعرّف ب أ) متطابق اللون تماماً مع المربع المعرّف ب ب، إلا أن واقع الأمر هو أنهما فعلاً متطابقا اللون. تفحص وانظر ملياً إلى الشكل، قربّه إلى عينيك وأملّه كما ترغب. مع ذلك لن تستطيع أن تجعل تلك الخدعة البصرية تختفي. يعمل عقلك بالضبط بنفس الطريقة التي ينبغي أن تعمل بها منظومة بصرية جيدة وهو الأمر الذي يجب أخذه بعين الاعتبار، ذلك أن عقلك يعلم أن الأشياء الواقعة في الظل تبدو أغمق مما هي عليه تحت الضوء، ما يفعله عقلك هو أنه يقوم بتحليل ظل الأسطوانة حسب هذا المنطق: «إذا بدا (ب) بهذا الإشراف وهو في الظل، فالمفترض به أن يكون أكثر إشراقاً تحت الضوء».

السبب الذي يجعل علماء النفس مفتونين بالخدع البصرية هو أنها تمكننا من التقاط نظرة خاطفة عرضية للخدع الذكية التي يستخدمها عقلنا عندما نختبر التناقض بين ما نعرف انه صحيح وما بين كيف تبدو الأشياء لنا. يعتبر فهمنا لخدعة الشطرنج البصرية متحيزاً وغير صحيح، ولكن التحيز موجود لأسباب وجيهة. حيث تبدو الأشياء في الحياة الواقعية غامقة اللون حقاً عندما تكون في الظل لذا فإن نظامنا البصري قد بُني ليأخذ تلك الحقيقة بعين الاعتبار. أن تلك الحقيقة سوف تنتهي إلى إدراك الأشياء بهدف أن يعالج الأمور والمعطيات التي يستقبلها بدقة أكبر في الحياة الواقعية.

إن الاعتماد على المعطيات هو أمر غير مخصص فقط للرؤية ولكنه يعتبر أمراً أساسياً تستعمله أدمغتنا لتصوير أي أمر ما. دعونا ننظر إلى إحساسنا بالجوع، نُعتبر معرفة متى نأكل ومتى نشبع أمراً حيوياً أساسياً وضرورياً لدرجة أننا نضطرّ لأنْ نطوّر في داخلنا مقياساً للسعرات الحرارية التي تدخل إلى أجسامنا، أليس كذلك؟ وما قد ذكر في الجملة السابقة هو أمر غير صحيح، حيث إن شعورنا بالجوع والشبع يتشكل إلى حدّ كبير استناداً إلى الظروف المحيطة بنا.

خذ طبقاً واملأه بأضلاع اللحم، قم بتكديس تلك الأضلاع على الطبق كما يفعلون في مطعم «دبا بيغ»، المفاصل المشوية هي المفضلة لدي. ثم، أثناء تناول تلك الوجبة اسأل الضيف عن مدى شعوره بالشبع، وفي الغالب سيميل إلى تقييم مستوى الشبع لديه قريباً من منتصف المقياس. الآن خذ ضلعين صغيرين وضعهما في منتصف طبق الضيف، ضع أحدهما فوق الآخر وقدمهما مع بعض الخضروات الصغيرة، بنفس طريقة تقديم المطاعم الراقية. بعد ذلك قم بفعل الأمر ذاته، اسأل

الضيف عن مدى شعوره بالشبع في منتصف تناوله للوجبة. سيميل الضيف إلى تقييم مستوى الشبع لديه نفس مستوى الشبع لدى ذلك الضيف الآخر الذي كان طبقه مكدياً بمفاصل اللحم المشوية، على الرغم من أن ما أكله أقل بكثير.

لا يحكم الناس عن مدى شعورهم بالشبع استناداً إلى عدد السعرات الحرارية التي تناولوها، بل على نسبة الطعام الموجود على الطبق التي تناولوها. والمثال الأكثر أناقة لتلك الدراسة أجراه براين وانسينك في جامعة كورنيل⁽²⁾، حيث قام فريقه بوضع أنبوب في قاع وعاء للحساء، وهذا الأنبوب متصل بحافظة كبيرة ممثلة بحساء الطماطم الموضوع فوق الطاولة. فالأمر الذي حدث هو أنه كلما أكل الضيوف من الحساء كلما تدفق المزيد منها إلى أوعيتهم عبر أنبوب ما يجعلها ثابتة على نفس المستوى. تدعى جامعة أوليف جاردن بأن لديها وعاء لا ينفد أبداً من المعكرونة، إلا أن مختبر براين وانسينك اخترع أول وعاء من الحساء لا ينتهي حقاً.

بعد ذلك قام الباحثون بدعوة مجموعات من المشاركين في البحث إلى وجبة غداء مجانية. أُجلس المشاركون على طاولات مكونة من أربعة مقاعد. كان اثنان من أوعية الحساء أوعية عادية بينما الأوعية الباقية هي أوعية لا منتهية من الحساء، لم يكن أحد من المشاركين يعرف ذلك. طلب من المشاركين بأن يأكلوا بقدر ما يريدون ثم يُسألون عن الكمية التي أكلوها وعن مدى شعورهم بالشبع. على الرغم من أن الأشخاص الذين كان أمامهم أوعية لا منتهية من الحساء تناولوا ضعفي الأشخاص الذين أكلوا من الأوعية العادية، إلا أنهم اعتقدوا بأنهم أكلوا الكمية ذاتها. الأمر الأكثر مدعاة للدهشة هو أن كلتا المجموعتين شعرتا بالشبع بالقدر ذاته. تشكّل إحساسهم بالشبع من خلال إدراكهم لمقدار ما تناولوه أكثر من إدراكهم لعدد السعرات الحرارية التي قاموا باستهلاكها، إذ كان إدراكهم لمقدار ما أكلوه يعتمد على مدى امتلاء أوعيتهم بالحساء مع الأخذ بعين الاعتبار حجم الوعاء.

في الليلة الماضية قمت بفتح ثلاثتي وتناولت الحليب، ولسبب ما طرقتُ علبة الحليب نصف الفارغة بسقف الثلجة بقوة لدرجة جعلت يدي تؤلمني، وأنت ابنتي راضة من الغرفة المجاورة. فوجئتُ مثلها تماماً لما فعلته، حاولت أن أشرح لها ما حدث، أي «أحتاج إلى المزيد من الحليب». على الرغم من أنه لم يكن لدي أي أفكار تخمن وزن الحليب في العلبة الكرتونية قبل أن أقوم بحملها، إلا أنني توقعتُ بأنها كانت مليئة بالحليب وذلك ما كانت عضلة ساعدي مستعدة له.

أظهرت العديد من الدراسات بأن التوقعات والمعطيات تحدد تصورنا عن الوزن. إن غالون الحليب يبدو أخف وزناً لو قمتَ للتو بحمل كيس مملوء بأغراض البقالة، مما لو حملتَ كيساً مملوءاً بالحلوى القطنية. في خمسينيات القرن الماضي، كان هذا التناسب في الأحكام المتعلقة بالوزن يعتبر قانوناً أساسياً يحكم كيفية قيام الدماغ بتحويل البيانات الحسية (مثل شد العضلات) إلى تصورات ذاتية للثقل. بعد ذلك دفعت إحدى الدراسات الجميع لإعادة النظر في افتراضاتهم.

في بداية الخمسينيات، كان دولاند براون طالب دراسات عليا في جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي الأمريكية عندما أجرى تجربة بدت، في معظم أجزائها، شبيهة بمئات الدراسات السابقة التي

أظهرت أن الأحكام الحسية كانت نسبية. بعد صف سلسلة من الأوزان المعدنية الصغيرة، طلب دولاند براون من المشاركين في الدراسة تناول تلك الأوزان وتقييم مدى ثقلها من «خفيف جداً» إلى «ثقل جداً». وبتابع خطوات العديد من الدراسات السابقة، قام براون دولاند بتتويع أوزان الأثقال المعدنية. عندما تناول المشاركون حملاً معدنياً ثقيلاً الوزن ثم حملاً معدنياً أخف وزناً بدا الثقل الثاني أخف وزناً بكثير مما هو عليه في الواقع وذلك مقارنة بالثقل الأول. ولكن عندما قام المشاركون بتناول حمل خفيف الوزن ثم تناولوا حملاً أثقل شعروا بأن الحمل الثاني يبدو أثقل وزناً بكثير مما هو عليه في الواقع.

ما حدث بعد ذلك هو أنه في منتصف تلك الدراسة قام دولاند براون بخداع المشاركين من خلال الطلب منهم بأن يتناولوا طبقاً مملوءاً بالأنقال يضعوه جانباً وذلك حتى يتمكنوا من الحكم على باقي الأنقال استناداً إلى ذلك الطبق والذي كان يحمل أوزاناً ثقيلة جداً، لكن عندما حمل المشاركون الوزن التالي فإنه لم يكن حمل طبق الأنقال مؤثراً على حكمهم على ثقله بحد ذاته. كيف يمكن لحمل ثقل واحد بأن يؤثر على الحكم على إدراك الوزن بينما حمل مجموعة من الأنقال لا يؤثر؟

لا يمكن لذلك التناقض أن يحدث لو كان تأثير النسبية قانوناً فيزيولوجياً ثابتاً يحكم عملية ترجمة ضغط العضلات إلى إدراك للوزن. كان ذلك دليلاً مبكراً مفاده أن المقارنات التي نجريها هي أكثر تعقيداً مما نفترض. نحن لا نقوم بالمقارنات الدائمة فحسب، بل إننا نضع افتراضات حاذقة حول ما هي المقارنات التي تحتسب وما هي المقارنات التي لا تحتسب.

نحن معتادون جداً على الحكم على الحالة الاجتماعية لدرجة أن إصدار الأحكام يأتي إلينا تلقائياً كما لو كنت تقود الدراجة الهوائية أو السيارة بعد سنوات من الممارسة. أنا أكتب هذا النص في صباح يوم شتوي بارد، في مقهى مزدحم، يجلس على الطاولات من حولي مجموعة كبيرة من سكان هذه المدينة الجامعية. هنالك رجل يبلغ من العمر ٥٠ عاماً، ذو شعر رمادي ونظارات كبيرة، يرتدي قميصاً ذا أزار وفوقه سترة ذات سحاب مغلق بالكامل. جلس مع ثلاثة من أبنائه المراهقين والذين كانوا بطريقة ما يتمتعون بثقة عالية بالنفس على الرغم من أنهم يرتدون قمصاناً عادية قصيرة الأكمام وقبعات بيسبول. ثم كان هناك زوجان في العشرينات من أعمارهما، كان الزوج يرتدي نظارة سميكة الإطار ذات لون أسود وكنز صوفية سوداء أيضاً، كان شعار العلامة التجارية (نورث ويست) هي الأكثر بروزاً في ملابسه. كما كان يتحقق من هاتفه الذكي باستمرار، بدت زوجته جميلة في بنطلون جينز وسترة مع النظارة الشمسية التي رفعت بها شعرها المسرح بشكل جميل وأقراط تتسجم مع الإسورة. يجلس بجانبهم ثنائي وأكبر منهما بعشرين عاماً تقريباً وقد انحنى كل نحو الآخر يتحدثان باهتمام حول موضوع ما. كان شعر الزوجة أشقر ومجعداً ينتهي طوله إلى عنقها المغطى بوشاح ملون منقوش ارتدته فوق سترة ذات رسوم مختلفة عن ذلك الوشاح. أما الزوج فكان يرتدي قميصاً أزرق اللون من الفانيلا، ذا شعر ولحية أزغبين. وعلى ما يبدو أنهما استيقظا للتو من النوم.

إذا دخلت إلى أي مقهى كهذا فإن مهمة تخمين المستوى الاجتماعي تبدو سهلة وواضحة للغاية حيث إنها تلوح كمهارة تستغرق سنوات لإتقانها ولكن في الواقع هي ليست كذلك. في أحد الأيام

عندما كانت ابنتي في الثالثة من عمرها، أشارت بإصبعها إلى الصورة المُعلقة على الحائط في منزلنا والتي تتضمن طفلة أخرى معها في دار الرعاية النهارية قائلة: «إيلي غنيّة مثلي» وهو في الواقع أمرٌ حقيقي. سألتها باندهاش تام مما ذكّرتَه للتو، مشيراً إلى طفلة أخرى: «ماذا عن تلك؟»، أجابت قائلة: «أوه، إنها فقيرة».

في تلك اللحظة أصبحت مفتوناً. كانت ابنتي تذهب إلى روضة نهارية تديرها الجامعة التي أدرّس بها. جميع من يحضر إلى ذلك البرنامج هو منتسب بطريقة ما إلى الجامعة. بعد ثلاثة سنوات من التوصيل من وإلى برنامج الرعاية النهارية وأيام اللعب الجماعية وحفلات أعياد الميلاد، تعرفت على عائلات الأطفال في صفها بشكل يكفي لمعرفة وظائف جميع أولياء الأمور. العديد منهم أساتذة جامعيين أو أطباء، البعض الآخر طلبة خريجين أو أعضاء هيئة تدريس.

قمت بإعادة توجيه انتباه ابنتي إلى صورة الصف مرة أخرى حيث قامت بتصنيف كل واحد منهم والبالغ عددهم خمسة عشر طفلاً وكانت آلية تصنيفها هي أنهم «أغنياء» في حال كان آباؤهم أساتذة جامعيون أو أطباء أما في حال كان آباؤهم طلاباً أو أعضاء هيئة تدريس فإن التصنيف سيكون «فقراء». وللحديث بموضوعية أكثر لم يُصنّف أحد من تلك العائلات فعلاً على أنه من «الفقراء» وذلك استناداً إلى مؤشر أورشانسكي. إلا أن ابنتي كانت تحكم نسبةً إلى نفسها ونسبةً إلى والديها الأستاذين الجامعيين وأخذاً بمعايير حُكمها فإن تلك المعايير تعتبر معايير دقيقة ومضبوطة. هل كل ما في الأمر أنها كانت محظوظة؟ لا ليس بالضرورة. يعتبر احتمال أن تقوم بتخمين صحيح خمسة عشر مرة على التوالي هو ثلاثة من مئة ألف. شعرت بمزيج غريب من الفخر والإحراج، هل كانت ابنتي ذكية بشكل مختلف؟ أو هل كانت مهووسة بشكل غير طبيعي بالمكانة الاجتماعية؟ في الواقع لم يكن أيًا من ذلك حيث تظهر الدراسات أن تصنيف الطبقة الاجتماعية للأشخاص الآخرين هو بالفعل لعب أطفال للكثير منّا.

اختبر عالما النفس مايكل كراوس و داسر كيلنتر مدى دقة البالغين في الحكم على الطبقة الاجتماعية وذلك من خلال الطلب من ٥٣ زوجاً من طلاب الجامعة، الذين لا يعرف أحدهم الآخر، أن يدرشوا مع بعضهم البعض لمدة ٥ دقائق أثناء تسجيل محادثتهم كمقطع فيديو (دعونا نطلق اسم «المدرشين» على أولئك المشاركين). بعد تسجيل مقاطع الفيديو، قاموا بعرض دقيقة واحدة من كل فيديو على مجموعة أخرى من المشاركين بالبحث، حيث طلب من المشاركين تخمين الطبقة الاجتماعية لكل شخص في ذلك الفيديو بواسطة تقييمهم على ذلك السلم الاجتماعي الذي رأيناه في الفصل الأول (دعونا نطلق اسم «المقيمين» على أولئك المشاركين).

بعد مشاهدة عينة قصيرة من تصرف الأشخاص في مقطع الفيديو، كانت انطباعات المُقيمين عن المدرشين دقيقة للغاية حيث قام المُقيّمون بوضع المدرشين على سلم الحالة الاجتماعية استناداً إلى تصريح المدرشين عن دخل عائلاتهم المادي ومستوى تعليم آبائهم.

قام الباحثان بترميز مقاطع الفيديو لرؤية ما هي الصفات الموجودة في المدرشين التي من شأنها أن توصلنا إلى اختلافات طبقاتهم الاجتماعية. وما وجده الباحثان هو أن الأغنياء من المدرشين

كانوا أقل تفاعلاً في الدردشة. حيث أمضوا معظم الوقت يعدلون من أشكالهم ويخربشون ويلعبون بأقلامهم وهواتفهم أو بالأشياء الأخرى. وعلى النقيض من ذلك كان الفقراء من المدرشين أكثر تفاعلاً في الدردشة. حيث كانوا يتفحصون مباشرة من يتحدثون ويضحكون ويؤمنون برأسهم أكثر. تعني المكانة الأعلى أن المشاركين الأغنياء لم يكن لديهم أي أمر متوافق مع اهتماماتهم. بينما في الجهة المقابلة كان المشاركون الفقراء يبذلون جهداً أكثر بكثير ليكونوا مقبولين ومحبوبين.

تظهر الأبحاث (مثل دراسة كراوس) أن الحالة الاجتماعية يمكن إدراكها بشكل سريع وبدهي مع القليل جداً من المعلومات. لكن الجدير بالذكر هو أن هنالك نوعاً آخر من الدراسات تظهر أن الأشخاص يمكنهم بالفعل إجراء مقارنات اجتماعية بين أنفسهم وبين الآخرين من دون أن ينتبهوا لذلك. تتمثل واحدة من أكثر نتائج الدراسات موثوقة في مجال علم النفس الاجتماعي هي أنه إذا فكرت، بإرادتك، بشخص متفوق عليك بشكل واضح في بعض المجالات فإن هذا التفكير من شأنه أن يجعلك تشعر بأنك أسوأ أكثر بكثير مما لو لم تفكر بذلك الشخص على الإطلاق. والعكس صحيح، حيث إذا فكرت بشخص أقل منك شأنًا فإن هذا التفكير يجعلك تشعر بالرضا عن نفسك نتيجة للمقارنة. طلب من فريق من علماء النفس بقيادة توماس موسويلير بدراسة عما إذا كان من الممكن لهذا التأثير للمقارنة الاجتماعية بعينه أن يحدث بلا وعي.

سأل الباحثون المشاركون في الدراسة عن معدل قدراتهم الرياضية باستخدام أسئلة مثل: «كم عدد تمارين الضغط التي يمكنك تأديتها؟» أو «ما هي المدة التي تستغرقها في الركض لمسافة مئة متر؟» لكن قبل أن يجيب المشاركون عن هذه الأسئلة، طُلب منهم أن يُظهروا قوتهم الرياضية لدقيقة واحدة بينما هم يحدقون إلى شاشة كمبيوتر تحتوي على سلسلة من الحروف العشوائية. الأمر الذي لا يعرفه المشاركون أنه خلال تلك الدقيقة تم استبدال الحروف العشوائية ١٠ مرات إلى اسم شخص مشهور لمدة خمسة عشرة بالآلاف في الثانية. في تلك الفترة، لم يكن الاسم واضحاً، لذلك فإن أي استجابة من المشاركين ستكون صادرة من اللاوعي.

تلقت مجموعة من المشاركين الاسم مايكل جوردان بينما المجموعة الأخرى تلقت اسم البابا يوحنا بولس الثاني. افترض الباحث موسويلير أن المشاركين سيعتبرون البابا رياضياً أقل من نجم كرة السلة مايكل جوردان، وكما هو متوقع، قِيم المشاركون قدراتهم الرياضية بشكل أفضل بعد تلقيهم السريع لاسم البابا عبر شاشة الكمبيوتر من تلقيهم لاسم جوردان. إن عملية المقارنة هذه ربما قد حصلت بدافع اللاوعي، لأن المشاركين لم يكونوا على دراية بتلقيهم للأسماء حينما كانوا يجيبون عن الأسئلة الشخصية لمعدل قدراتهم الرياضية.

فكر بما تعنيه مثل هذه الدراسات في تجاربنا اليومية. ففي دقيقة، ستجد نفسك جالساً إلى طاولة مقهى رصيف، مستمتعاً بمذاق فنان من القهوة بينما تقلب صفحات مجلة ما، وتشعر بالرضا العام عن نفسك. ولوهلة، تبدأ بالتفكير: «هل أعتبر حقاً إنساناً ناجحاً في هذه المرحلة من عمري؟»، «أراهن أن زميلي تشارلي في الشركة التي أعمل بها يتلقى راتباً أعلى مني.»، «هل علي استخدام الباركيه لمطبخي؟». على الرغم من أن أفكارنا تعبر عقولنا من غير سابق إنذار، إلا أنها عادةً محصلة عملية مستمرة تحدث خلف ستائر وعينا. مثلما ذكرنا مثال مايكل جوردان في السابق، ربما

قد شط دماغك بمجرد رؤية إعلان شركة تيفاني للمجوهرات الذي لم تلاحظ وجوده بينما كنت تقلب في صفحات المجلة، أو بمرور سيارة بورش بينما كنت تحرك السكر في فنجان قهوتك. فأنت لا تفكر ملياً ببياض صفحة المجلة ولا بسواد حبرها بالرغم من أنه يمكن فهم وإدراك تصورات النور والظلام كما في الخدعة البصرية للشطرنج. كما أنك لا تفكر بوزن ورق المجلة مع أنه سيكون هنالك فرقاً إذا رفعت الكرسي الذي تجلس فوقه بدلاً من رفع فنجان قهوتك. أنت أيضاً لا تفكر ملياً بالرغبة في أحشائك عندما تأمر بك باحتساء كوب قهوة آخر على الرغم من أن تلك الرغبة قد شكّلها حجم فنجانك.

هذا أبيض وذاك أسود. أريد كوباً آخر من القهوة. أريد مطبخاً حديثاً. نحن على دراية بهذه الأفكار وهذه العواطف والتي هي ذروة عمليات العقل، ولكننا نبقي غير واعين بهذه العمليات، في حين يراقب العقل باستمرار الأحاديث ويصنع المقارنات ويصدر ببساطة نتائج عملياته. وفي المقابل، سنجد أننا بدون أي وعي نجري هذه المقارنات.

لكن هنالك دليل واحد يمكنه إخبارنا بأننا نقارن أنفسنا بالغير دون وعي منا، وهو أننا نرى أنفسنا متنافسين لشيء ما غير مهم. في أيام الأربعاء وفي غرفة مؤتمرات صغيرة في تشابل هيل (10)، ستجد هناك سبعة أساتذة جامعيين، ومجموعتين من البطاقات ويقطينة ملونة ممثلة بقطع الشوكولا الجيدة. نتناول الغداء أنا وزملائي هناك في حين نلعب لعبة البطاقات المعروفة بـ (Oh Hell) ونحدث في القضايا الراهنة. أحياناً تكون بعض هذه الأيام مملّة نناقش فيها أمور القسم وبعض الأيام الأخرى تكون حماسية ومليئة بالنشاط والثرثرة. وتأتي تلك الأيام حيث يملأ الغرفة الصمت الطويل وأعيننا في حركة مستمرة ترقب حركة البطاقات ذلك لأن اللعبة على وشك الانتهاء.

لا يوجد هنالك مال للفائز. بل إن الفوز في الحقيقة أمر وضيع في هذه اللعبة حيث يتعيّن على الفائز حمل اليقطينة الملونة إلى منزله وتحمل نظرات الطلاب المستكبرة إليه. لكن اللعبة دائماً حماسية، هنالك شيء ما يصعب مقاومته مقابل إثبات قدرة شخص ما بأنه أفضل من غيره، حتى لو تطلب الأمر أسخف الطرق لإنجازها.

فلماذا نرتبط أنا وزملائي في لعبة لا تعود لنا بعائد مادي؟ ذلك أن عقلنا يفهم بأنه ليس هنالك فرق كبير بين المال والحالة الاجتماعية²، فكلاهما تتم معالجتهما بنفس المناطق الموجودة في العقل والتي أحياناً نسميها بـ «حلقة نظام المكافأة». وحلقة نظام المكافأة عبارة عن مجموعة متشابكة من مناطق العقل والتي تنشط خلاياها العصبية عندما نحصل على شيء ما نريده أو على وشك حصوله. إن كلمة «مكافأة» تأتي من تجربة بحثية مع الفئران. تقول التجربة، ضع فأراً في قفص وقم بإعطائه الطعام عندما يضغط على زر معين. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يبدأ الفأر بضغط الزر وكأنها آلة بيع أوتوماتيكية.

إذا كان لهذا الفأر سلك مزروع في جمجمته في مكان معين في دماغه، فسيولد نبضات إلكترونية من خلاياه العصبية. فإذا قربت ذلك السلك إلى مايكروفون فإنك ستسمع أصوات فرقعة مثل وشوشة الراديو. في البداية سيكون الصوت ضعيفاً ومتقطعاً لكن حالما يصل الفأر لضغط الزر ويرى الطعام

سيرتفع الصوت. وعندما يأكل الفأر الطعام وينتهي منه يبدأ الصوت بالتلاشي مجدداً. كلما رأى الفأر الطعام، كلما زادت رغبته في ضغط الزر.

هذا الرابط القوي بين النشاط الإلكتروني المتمثل بـ «أريد المزيد من فضلك!» وبين استجابة الفأر للمزيد من الطعام أعطى عالمي الأعصاب جيمس أولدز وبيتر ميلنر من جامعة مكغيل فكرة مبتكرة. فمن تجارب مكافأة الطعام مع الفئران تظهر لنا حلقة مغلقة مع هذه الفئران وهي: ضغط الزر، ظهور الطعام، ينشط نظام المكافأة في دماغ الفأر، ويبدأ الفأر بالضغط على الزر مجدداً للمزيد. الطريقة لتفسير هذه الدورة هي أن نشاط الدماغ الكهربائي يعتبر وسيلة للتأكيد على أن نتيجة ضغط الزر ستتكرر مجدداً. وطريقة أخرى تقول إن ضغط الزر وأكل الطعام هما وسيلتان تمكننا الدماغ من تحفيز نفسه. وبعبارة أخرى، لربما كان تحفيز الدماغ في هذه المنطقة هو بذاته وسيلة مكافأته وأن أكل الطعام هو مجرد طريقة لإثارته.

تساءل العالمان أولدز وميلنر عما سيحصل إذا أبعادوا الطعام وأوصلوا الزر ببطارية تحفز دماغ الفأر مباشرة. عندما قاموا بتجربة ذلك، قام الفأر بضغط الزر بشكل قهري وإلزامي. وفي نسخ لاحقة من التجربة، تخلت الفئران عن الطعام والماء فقط لضغط الزر بل أنها كانت تعبر مناطق مكهربة داخل القفص وتتحمل ألم أقدامها مقابل ضغط الزر. كان هذا التحفيز الإلكتروني كافياً لمنح أدمغتها إشارات مكافأة لدرجة أنها لم تحتج أي شيء آخر غير ضغط الزر. حيث كان بمقدورها ضغط الزر باستمرار حتى تصاب بالإرهاك.

إذا كنت تظن بأن نظام تحفيز الدماغ هذا سيكون ممتعاً للتجربة، أنصحك بأن تتراجع وتستمع بعلبة من البيرة بدلاً عن ذلك. إن مسارات الدماغ في نظام المكافأة تطورت لتجعلنا نسعى لنحصل على متطلبات الحياة مثل الطعام والماء والقيام بعملية التكاثر. لكن بعض المواد التي تجعلنا منتشيين مثل البيرة أو الكوكايين، جميعها تحفز نفس شبكة الدماغ. فعندما تشرب قليلاً من البيرة يعمل دماغك كيميائياً مثلما يعمل دماغ الفأر إلكترونياً عند تجربة أولدز وميلنر.

عند دراسة البشر، نحن بالطبع لا نستمتع إلى أصوات تصدر من أسلاك مزروعة في أدمغتنا. ولكننا ننظر إلى خرائط الدماغ الملونة من خلال أجهزة التصوير بالرنين المغناطيسي. عندما ترى صور الدماغ على هذه الأجهزة لأناس يأكلون الشوكولاته، أو يستمتعون بشراب المارتيني^{٢٧} أو يمارسون الجنس (بصعوبة تقريباً)، ستري نظام دوائر المكافأة ذاته الذي يضح بالحياة. وذلك لأن نفس شبكة الدماغ تستجيب لجميع هذه التجارب المختلفة، فشبكة نظام المكافأة تخلق نوعاً من «العملة المشتركة» بين جميع الأنواع المختلفة من المحفزات. ولن تُفاجأ إذا عرفت بأن هذه الشبكات تستجيب بالطريقة ذاتها عندما نجني المال. فالكثير من الدراسات أوضحت أنه عندما يقامر المشاركون في هذه الدراسات ويجمعون أرصدة مالية ويتخذون قرارات مالية لجني المال، فإن نظام المكافأة يستجيب كما يستجيب للطعام أو للجنس أو للمخدرات.

لكن الأمر الغريب الذي وجدوه هو أن النظام يستجيب بقوة للمكانة الاجتماعية كما يستجيب للمال. وكمثل على ذلك، تأمل هذه التجربة التي أجراها عالم الأعصاب كلاس فليسباخ. في هذه

التجربة تم مسح أدمغة المتطوعين بجهاز الرنين المغناطيسي بينما كانوا يلعبون لعبة بسيطة. في كل جولة من هذه اللعبة كان المتطوعون يتخذون بعض القرارات مثل تحديد أي صورة من صورتين تحوي على نقاط أكثر. لم يكن هناك وقت كافٍ للعد لذا كان عليهم تخمين العدد. عندما يجيب المتطوعون بشكل صحيح فإنهم يفوزون ببعض المال. وبعد كل قرار يُظهر جهاز الكمبيوتر كم من المال جنى اللاعب.

كان متوقعاً أن يستجيب نظام المكافأة عندما يفوز اللاعبون بالمال. لكن السؤال الحقيقي في هذه الدراسة هو ما إذا كان نظام المكافأة يهتم بالمكانة الاجتماعية، وهذا بالفعل ما تم إثباته بأنها هي الهدف. بغض النظر عن كمية المال التي يفوز بها اللاعب، فإن نظام المكافأة يستجيب أكثر إذا فاز اللاعب بمال أكثر من اللاعبين الآخرين، وبمعرفة اللاعبين أنهم أفضل من الآخرين فإنهم يبدون نفس استجابة الدماغ للجنس والمال والمخدرات. كما هو واضح، تعتبر المكانة الاجتماعية محفزاً قوياً، ودراسات كهذه تقترح أنه عندما نقول إن الناس يتعطشون لمكانة عالية فإن ذلك أكثر من مجرد تعبير مستعار.

وكما رأينا، يحكم الناس بدون أي مجهود على كل شيء من الخفة إلى الثقل إلى الطبقة الاجتماعية بواسطة المقارنة النسبية، فيقيمون المكانة الاجتماعية لغيرهم بلا تفكير ويرغبون أن يصبحوا أعلى من غيرهم في سلم المكانة الاجتماعية. وإذا قمت بجمع كلا الأمرين فسيكون لديك جنس بشري لا يتأثر بمقدار الثروة المادية بقدر تأثره الكبير بانعدام المساواة. ولقد رأينا أيضاً أنه عندما يتمحور الأمر حول شيء أساسي مثل الطعام فإن الدماغ والمعدة لا يمكنهما الحكم بدقة بأننا اكتفينا من الأكل. ثمة الكثير من الأحكام المجردة، مثل إذا كان لدينا مال كافٍ أو بيت كبير أو سيارة جميلة، التي لا بد أنها تشكلت من المقارنات النسبية، كما لو أنه لا يوجد حساسات لهذا الجوع ولا حليمة ذوقية لهذه الطعوم. إذاً، كيف لنا أن نحكم على ما هو «كافٍ» في حياتنا اليومية إذا أخذنا «المكانة الاجتماعية» بعين الاعتبار؟

في دراسة حديثة ومشهورة أجريت لتحديد ما هو مقدار المال الكافي، حلل عالما الاقتصاد أندرو كلارك وأندرو أوزوالد بيانات أخذت من خمسة آلاف بيت بريطاني. احتوى الاستبيان على أسئلة طُرحت على أهالي هذه البيوت عما إذا كانوا راضين عن وظائفهم بشكل عام ودخلهم بشكل خاص. احتوت البيانات أيضاً على أسماء وظائف المشاركين ودخلهم وسنوات خبرتهم وعدد ساعات العمل في الأسبوع.

تتناول كتب الاقتصاد التقليدية «العمل» على أنه سلعة تُشترى وتباع بسعر معين بناء على قوانين العرض والطلب. ومن هذا المفهوم، تستنبط نظرية الاقتصاد العامة التوقعات التي لا لبس فيها. وتقول بأن الناس سيكونون راضيين إذا ما جنوا ما لا كثيراً وعملوا لساعات أقل. لكن الغريب أنه عندما اطلع أوزوالد وكلارك على العلاقة بين الدخل والرضا وجدوا أن الناس الذين هم في الخمس الأعلى للدخل كانوا أقل رضا من الذين في الخمس الأدنى، وأن عدد ساعات العمل لم تصنع فرقاً لتحديد رضاهم. لم تكن النتائج منطقية.

لماذا لا يشعر الناس بالرضا عندما يدفع لهم أكثر؟ هناك سبب يقول إنه عندما تصعد السلم الاجتماعي، فستختلف مقارناتك. يقول برتراند رسل: «لا يحسد المتسولون الأغنياء، لكنهم بالطبع سيحسدون متسولين آخرين لكونهم ناجحين أكثر منهم». إذا كنت من الخمس الأعلى للدخل فإن السماء هي الحد إذ لا يوجد هناك من تقارن نفسك به. إذا كنت طبيب عائلة يجني مائتي ألف دولار في السنة، ربما تجد نفسك غير راضٍ عندما تقارن نفسك بطبيب جراحة دماغ يجني مليوناً في السنة. هذا يفرض أن المقارنة النسبية تتفوق على المال في قوتها للشعور بالرضا.

ولاختبار هذه الفرضية، نظر علماء الاقتصاد إلى جميع مداخل الأشخاص مقارنة بأناس آخرين في نفس الوظائف. فلقد استخدموا قاعدة بيانات كبيرة تحتوي على متوسط معدل الأجور لأناس من مختلف الوظائف. فمثلاً، إذا أخذوا بعين الاعتبار موظفاً في الخامسة والأربعين يعمل تقني مختبرات ولديه شهادة بكالوريوس، سيبحث العلماء عن متوسط العمر والمؤهل العلمي لتقني المختبرات لأجل حساب الدخل النسبي. وسيجدون أن الدخل النسبي له تأثير هام على مستوى الرضا. فدخل الموظفين لا يهمهم إلا بالنسبة القليلة بالإضافة إلى عدد ساعات العمل التي يعملونها. والأشخاص الذين يدفع لهم أجر أعلى من زملائهم هم أكثر رضا من غيرهم.

إن أهمية الدخل النسبي تم توضيحها وشرحها في معظم الدراسات حول العالم. فاستخدام بيانات اقتصادية لقياس مستوى الرضا تعتبر واحدة من أكثر الطرق مباشرة لتقييم العوامل الناتجة من المقارنات الاجتماعية التي تحدد ما هو كافٍ لنا. لكن تأثيرات الاختلافات النسبية لها تداعيات أبعد من مجرد المشاعر الذاتية للرضا. فالفقر والغنى يؤثران على جميع جوانب الحياة اليومية. ونحن جميعاً نعرف المشكلات المرافقة للفقر وذلك يفسر لماذا نختار أن نعيش في حي جميل ونضع أطفالنا في مدارس المناطق الغنية.

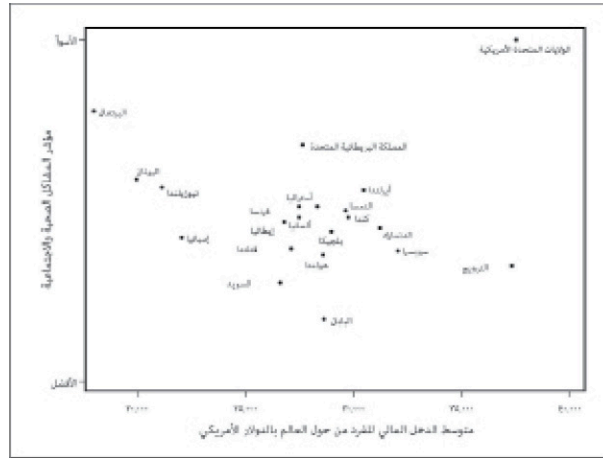
إذا كانت المقارنات النسبية مهمة كما ناقشناها آنفاً، لابد إذاً أن نتبعها عواقب. فإذا كان الدماغ يعتمد على المقارنات النسبية حتى ولو لمفاهيم أساسية في حياتنا فلا بد إذاً أن يقوم بذلك فيما يتعلق بالغنى. وإذا كانت أدمغتنا وأجسامنا متوافقة مع هذه المقارنات، فإن درجة انعدام المساواة حولنا، ليس فقط في أمر الغنى، يجب أن تلعب دوراً أساسياً في كل ناحية من نواحي الحياة حيث أن الغنى والفقر مهمان، وهما كذلك كما سنرى.

راجع عالما الأوبئة ريتشارد ويلكنسون وكيث بيكيت مؤلفات طبية كثيرة حول العلاقة بين الغنى ومجموعة متنوعة من الأمراض الاجتماعية. تضمّنت هذه المؤلفات جرائم القتل وجرائم العنف ومعدلات نجاح الطلاب في المدارس والتسبب والإنجاب عند المراهقين ومتوسط العمر المتوقع ومعدل وفيات الرضع وأمراض السمنة والأمراض النفسية وغيرها وبالتحديد تلك الأنواع من القضايا التي تكون أكثر سوءاً عند الفقراء. قارن العلماء معدلات هذه المشكلات في جميع البلدان الغنية التي توفرت فيها البيانات. وما وجدوه كان مذهلاً.

إذا أخذت بعين الاعتبار جميع بلدان العالم، فإن متوسط الدخل لكل شخص يرتبط بقوة بمتوسط العمر المتوقع وقابلية التعرض للمشكلات الاجتماعية مثل الجرائم. إن الأجور في البلدان الفقيرة

مثل الموزمبيق، هي أسوأ بما لا يقاس من البلدان الغنية مثل إنكلترا، لكن إذا نظرت فقط إلى الدول المتطورة اقتصادياً مثل دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا واليابان، فإن تلك العلاقة تأخذ بالتلاشي؛ عندما يكون الناس أغنياء بما يكفي لتأمين احتياجاتهم الأساسية، فإن الدخل المالي الإضافي لن يحميهم من نتائج الحياة السيئة.

لنفكر بمعدل جرائم القتل. فيما أننا نعتقد أن هذه المشكلات الاجتماعية هي مشكلات تخص الفقراء، فإنه من الواضح أن معدلات جرائم العنف ستكون عالية في الدول الأقل ثراءً مثل البرتغال وإسبانيا واليونان والتي يقدر متوسط الدخل المالي السنوي فيها حوالي عشرين ألف دولار للفرد. في حين تنخفض تلك المعدلات في الدول الأكثر ثراءً مثل النرويج والولايات المتحدة وكندا والتي يكون متوسط دخل مواطنيها أعلى بكثير. لكن في الحقيقة لم يكن هنالك رابط بين متوسط الدخل ومعدل جرائم القتل، وهو الأمر ذاته لمتوسط العمر المتوقع ومعدل وفيات الأطفال الرضع وأمراض السمنة والأمراض النفسية، فبحسب ما توصل إليه ويلكنسون وبيكيت فإن جميع تلك المشكلات الاجتماعية والصحية لا تربطها علاقة بمتوسط مستوى الدخل المالي. بل في واقع الأمر هنالك مشكلتان فقط من أصل عشرة مشكلات اجتماعية وصحية تربطهما علاقة بمستوى الدخل، وهما الإنجازات الدراسية والثقة بالجوار. فعندما يُحتسب متوسط هذه المشكلات العشر في جدول عام للصحة والمشكلات الاجتماعية (كما هو موضح في الشكل ٢.٢)، لا نجد هناك نتائج تربط بين تلك المشكلات وبين الدخل المالي. والدول الموزعة في الشكل التوضيحي ليس لها نمط واضح تتبعه.



لا يرتبط مؤشر المشاكل الصحية و الاجتماعية بقوة متوسط الدخل المالي لأفراد الدول المتقدمة. مقتبس من ويلكنسون و بيكيت ()

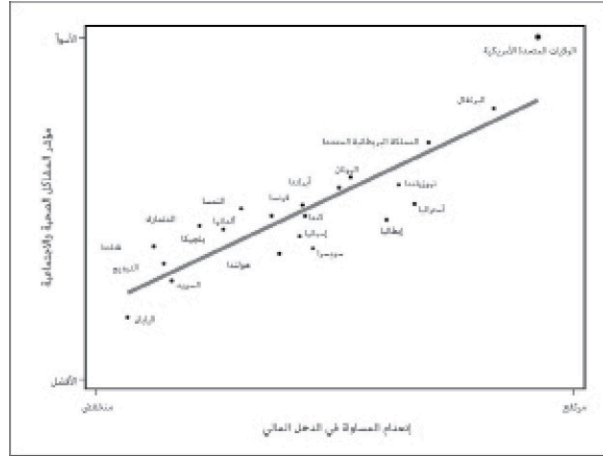
(٢٠٠٩)

الأمر المذهل في هذا الرسم البياني هو أن هناك ثلاثة دول تصطف في الأعلى، بعضها فوق الآخر، الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة والبرتغال على الرغم من أن معدل دخلها بالترتيب: عالٍ، متوسط، منخفض، في الأسفل؛ وفي المقابل يمكنك رؤية السويد واليابان والنرويج، حيث أن هذه الدول الثلاثة لديها معدل منخفض من المشكلات الاجتماعية على الرغم من التنوع الواسع لمستوى الدخل المالي. من الواضح أن هذه النتائج تطرح تحدياً ضد أي نظرية تنص على أن

الفقر يسبب المشكلات الاجتماعية أو أن عيوب بعض الأشخاص تسبب المشكلات الاجتماعية أو الفقر.

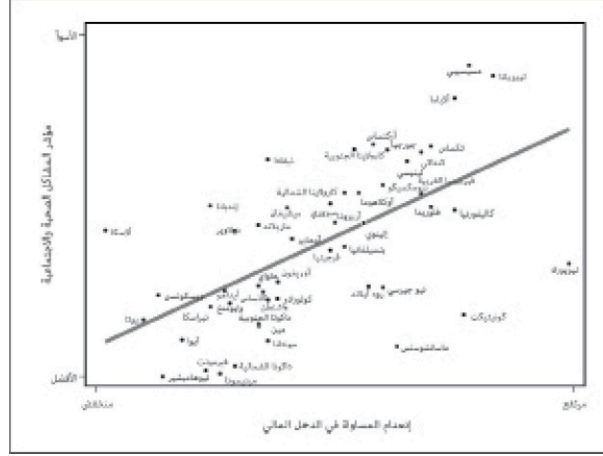
بعد ذلك قام ويلكنسون وبيكيت بالنظر إلى البيانات بشكل مختلف. فبدلاً من ربط مؤشر المشكلات الاجتماعية مع متوسط الدخل، قرروا ربطها بانعدام المساواة في مستوى الدخل المالي. تم حساب انعدام المساواة من خلال أخذ الحصة المالية التي تذهب إلى أغنى ٢٠ بالمائة من كل دولة وتقسيمها على الحصة المالية لأفقر ٢٠ بالمائة من كل دولة.

وكانت النتيجة أن أكثر الدول مساواة بين أفرادها مثل السويد واليابان، وصل مستوى انعدام المساواة فيها إلى ٤ تقريباً وهو الأمر الذي يعني أن أغنى خمس من بين تلك الدول تجني مائلاً أعلى بأربع مرات من الخمس الأفقر منها. وعلى العكس، فإن الدول التي يسود فيها انعدام المساواة مثل الولايات المتحدة والبرتغال قد بلغت نتيجتها ٨ تقريباً.



يرتبط مؤشر المشاكل الصحية و الاجتماعية بقوة مع انعدام المساواة في الدخل المالي في الدول المتقدمة. مقتبس من ويلكنسون و بيكيت (٢٠٠٩)

عندما نتفحص البيانات من وجهة النظر هذه (كما هو موضح في الشكل ٢.٣)، ستجد أن الدول في الرسم البياني تتدرج بشكل حاد في المنظومة. وستتزامن السويد واليابان والنرويج في الأسفل بمعدل منخفض من انعدام المساواة والمشكلات الصحية والاجتماعية. وفي كل خطوة تخطوها على خط انعدام المساواة نحو فنلندا والدنمارك وبلجيكا وما يتجاوزها فأنت بذلك تصعد درجة أعلى على سلم مؤشر المشكلات الاجتماعية. وعندما تصل أكثر الأمم انعداماً في المساواة- بريطانيا والبرتغال والولايات المتحدة- تجد أنها، أيضاً، لم تعد قيماً ناشزة بل تقع تماماً على الخط حيث يُتوقع وجودها على نفس الدرجة من انعدام المساواة. إن علاقة انعدام المساواة بالمواضيع العشرة التي بُني عليها ذلك المؤشر لا تزال قوية ومترابطة حتى عندما قام الباحثان بالمسح الإحصائي لمتوسط الدخل المالي لكل دولة على حدة.



يرتبط مؤشر المشاكل الصحية و الاجتماعية بقوة مع انعدام المساواة في الدخل المالي في الولايات المتحدة الأمريكية مقتبس من ويلكنسون و بيكيت (٢٠٠٩)

ربما كان الاختلاف في ثقافات واقتصادات وحكومات تلك الدول أكثر تبايناً من أن تصلح لعقد مقارنة فيما بينها. درس ويلكنسون وبيكيت هذه المشكلة وذلك بمقارنة خمسين ولاية من الولايات الأمريكية (كما هو ظاهر في الشكل ٢.٤)، حيث أظهرت تلك الدراسة أن الولايات التي لا تنعم بالمساواة لديها معدل عالٍ من المشكلات الاجتماعية والصحية وأن تأثير انعدام المساواة كان يفوق تأثير متوسط الدخل المالي. وخلاصة هذه الدراسة تشرح لماذا تبدو بعض الولايات الغنية مثل ولاية كاليفورنيا قريبة داخل الرسم من الولايات الفقيرة مثل ولاية ألاباما. وتشرح أيضاً لماذا تصطف بعض الولايات الفقيرة مثل ولاية آيوا وولاية يوتا إلى جانب ولايات غنية مثل ولاية نيو هامبشر. فحتى ضمن دولة واحدة، يتفوق تأثير انعدام المساواة على تأثير مستوى الدخل المالي ذاته.

بطبيعة الحال نعتقد أن القضايا التي تمثلت في «مؤشر المشكلات الصحية والاجتماعية» هي قضايا ناجمة عن الفقر. لكن تأثير انعدام المساواة سيبقى مستمراً حتى لو رضينا عن مستوى متوسط الدخل المالي. لذلك، بالنسبة لشخص لديه متوسط دخل جيد، فإن العيش داخل منطقة تتسم بانعدام المساواة لا يزال يعرضه لخطر المشكلات الحياتية. بمعنى آخر، سيكون أي شخص ينتمي إلى الطبقة المتوسطة ويعيش في تكساس التي يسود فيها انعدام المساواة عرضة للمعاناة الاجتماعية والصحية أكثر من الشخص الذي ينتمي إلى نفس الطبقة ويعيش في أيوا ذات المستوى المنخفض من انعدام المساواة.

تخيل أنك ستنتقل إلى مكان آخر للعيش فيه. معظم الناس سيختارون حياً ذا معدل قليل من الجرائم ويضم مدارس جيدة وجيراناً جديرين بالثقة. إحدى الطرق لاختيار مثل هذه الأمكنة هي القيام باستطلاعات رقمية مكثفة في الإنترنت عن البيانات التي تحتاج معرفتها مثل نتائج اختبارات مدارس تلك المناطق وإحصائيات الجرائم فيها. هناك أيضاً طريقة أكثر فعالية وهي البحث عن معامل جيني Gini coefficient ، وهو قياس انعدام المساواة الاقتصادية. إحصائيات جيني متاحة على الإنترنت لمعظم المناطق الحضرية. إنه لمن المدهش أن ترى أرقاماً تتشكل لتعطيك فكرة عامة عن

منطقة ما.

لدينا جميعاً فكرة جيدة عن الغنى والفقر وكيف يعيش ويشعر من ينتمي إليهما؛ سواءً أكانت بيوت الأغنياء المزخرفة والمترامية الأطراف وذات الأعشاب المشدبة في الضواحي الغنية، أو واجهات المحلات المتهالكة وحفر شوارع الأحياء الكئيبة والمنازل المتنقلة الصدئة والأجهزة الكهربائية المرمية المُشوّهة للمناطق الريفية الأفقر.

يعتبر انعدام المساواة أمراً تصعب رؤيته. حيث أن الأماكن التي يوجد فيها انعدام المساواة تنعم بكلا البيوت المزخرفة وواجهات المحلات المتهالكة وغالباً ما تفصل بينهما كتلٌ قليلة من الأبنية. لا توجد في أذهاننا صورة واحدة تعبر عن انعدام المساواة، لأن أساسها هو افتقارنا إلى تجربة مشتركة واحدة. الأمر الذي يعني عملياً عدم وجود مساحات مشتركة بين الأغنياء والفقراء، حيث يفصل الناس الذي يمتلكون المال والذين لا يمتلكونه بين بعضهم البعض في أماكن العيش والعمل والمدرسة.

انتقلت إلى كارولينا الشمالية بعدما كنت أعيش في كولومبوس، أوهايو. وعندما وصلت أنا وزوجتي وبحثنا عن أماكن لنقطنها بدأنا بمدينة درهام. أول ما لاحظناه هو أن المدينة كانت تنعم بملايين الأشجار التي كانت أوراقها تغطي كل شيء بقبة ورقية لتجعلها ظليّة في النهار وداكنة السواد في الليل. وبدأت الطرق والساحات كما لو أنها قد اقتطعت مؤقتاً من وسط غابة كثيفة. لكن الأكثر دهشة من أشجارها الجميلة كان النقيض.

حيث عندما كنا نقود وسط درهام، مررنا بحي ضم الكثير من بيوت المليون دولار والتي بنيت في العشرينيات وبقيت على حالها القديم وقد أُحيطت بأشجار الماغوليا والليمون. بعدها مررنا بطريق وفجأة اختفت تلك البيوت الفخمة، ووجدنا أنفسنا بجانب مبنى شقق قرميدي غطت واجهته سلام نجاة معدنية وملابس غسيل عُلفت على شبابيكه وقد ساد منظرها الضجر. وفي الشارع كان هناك رجال منهمكون بتصليح السيارات. مررنا ببضعة صفوف أخرى ووجدنا أنفسنا محاطين بمباني مكاتب زجاجية وقد اختلطت بمبانٍ حمراء أخرى كانت مسبقاً مستودعات تبغ لكنها تحولت إلى شقق أدوار علوية بأحجار قرميدية مكشوفة وعوارض خشبية. قدنا السيارة مروراً ببضعة صفوف لمبانٍ أخرى ثم ظهرت لنا أسوار عالية تعلوها أسلاك شائكة على الشارع أمامنا. وجدنا أيضاً الكثير من الشباب واقفين على قارعة الطريق بجانب مركز اجتماعي وقد رُفعت لوحات تأمر الناس بالابتعاد عن الطرق.

إن لـ درهام معدلات عالية من الجرائم بالنسبة للمنطقة. كما أن مدارسها الحكومية تعاني من انخفاض درجات الطلاب ومعدلات عالية في التسبب. توقعت أن مدينة درهام كانت مدينة فقيرة، ولكن في الحقيقة، متوسط دخلها يعتبر مرتفع أكثر من متوسط دخل مدينة كولومبس. والأمر المختلف بين المدينتين هو أن درهام لديها مستوى عالٍ من انعدام المساواة الاقتصادية، حيث تعتبر موطن للكثير من الفقراء وموطن للكثير من الأغنياء في الوقت ذاته. بالطبع بعض الأحياء تبدو حسنة لكن ذلك لا يمنعك من الإحساس بشعور مفاجئ وكما لو أنك تقفز بين مدن عديدة أو حتى

قرون مختلفة وذلك فقط من خلال المرور بين شوارعها.

أقمنا في غرفة صغيرة في حي تاريخي في درهام بينما كنا نبحث عن أماكن للإيجار. كان مالكو المكان زوجين لطيفين عاشا في المدينة لسنوات عديدة. كانا فخورين ببيتهما الذي رموه بطريقة جميلة. كان الزوج يعمل في النهار كشرطي في المدينة، ولأنه كان يعرف المدينة جيداً وعلى مستوى عالٍ من الاحتراف، سألناه عن رأيه بعناوين كنا نفكر بها. كان لدى الزوج آراء قوية وكان يقول «ليس من مصلحتك العيش هناك»، أو بعد برهة من التفكير يقول، «ربما تكون بخير هناك». لقد كان متحفظاً جداً الأمر الذي اثار مخاوفي. سألت صاحب النزل عن العنوان الأخير وتوقعت رؤية حماسه لأن المكان كان يقع بالقرب من منزله الجميل. نظر إلينا لفترة قبل أن يقول شيئاً ثم قال: «مفتاح غرفتك يفتح كلا البابين الأمامي والخلفي، لكن يفضل أن يكون الباب الأمامي مضاء جيداً في الليل. وعند خروجك بعد حلول الظلام تأكد من قفل البابين.»

لم أفهم وقتها أن انعدام المساواة يؤثر فقط على الفقراء ولكن أيضاً يؤثر على جميع الناس الذين يعيشون في المناطق التي تعاني منها. ومن وجهة نظر اقتصادية، فإن الفقر مختلف عن عدم المساواة الاقتصادية. فالفقر يعني ما يملك الشخص وما ينقصه، بينما انعدام المساواة يعني كيف يوزع المال، مبادئ المساواة بين الذين يملكونه وأولئك الذين لا يملكونه. ومن وجهة نظر نفسية، فالفقر وانعدام المساواة هما أمران متشابكان. فنحن ندرك مدى ثروتنا بمقارنتها مع الظروف المحيطة بنا في بيئتنا، لأننا افتراضياً ندرك هذه الظروف. إن مقارناتنا الاجتماعية القاسية تعني أن قيمتنا ليست منفصلة حقاً عن قيمة المالكين والمعوزين. عندما يصبح الغني أكثر غنى فالجميع يشعر بالفقر. هذه النزعة تفسر لماذا لبعض تلك الأماكن، التي تتصف بانعدام المساواة والتي تملك البيوت الفخمة والسيارات الفارهة والتي تعقبها شوارع مقفرة وكئيبة، أن تزيد من بؤس حياة الآخرين فيها نوعاً ما. هذه «النوعاً ما» ستتم مناقشتها في الفصل القادم حيث سنبدأ بفهم كيف يغيّر انعدام المساواة من طريقة تفكير الناس وتصرفاتهم.

الفصل الثالث

منطق الفقراء

انعدام المساواة له منطق الخاص به

نشأ جيسون في واحد من ثلاثة عشر منزلاً ذي تصميم يشبه حرف الـ A على الطريق السريعة ٦٠ في مدينة ماسيو الواقعة في ولاية كنتاكي. وعبر الطريق السريع توجد خطوط السكك الحديدية، حيث تتطلق منها قطارات الشحن في كل ساعات الليل والنهار. على الجانب الآخر من خطوط السكك الحديدية كان هناك حقل مفتوح تتبسط سمرته المائلة للصفرة على مدار السنة. كان ذلك الحقل بمثابة الحاجز الذي يفصل بين السكة الحديدية والطريق والمنازل عن ميدان الرماية، حيث يصوب الرجال فيه الرصاص على مجسمات الحمام الطينية. كانوا بعيدين بما فيه الكفاية عن الحي الصغير بحيث لم يكن باستطاعة السكان سماع أمر «استعدّ»، بل كان كل ما يستطيع السكان سماعه هو صوت إطلاق النار.

في طفولته، عمل جيسون في زراعة التبغ، حيث كان يقوم بتقطيع سيقان النباتات الطويلة ثم تثبيتها على قضبان خشبية حتى تصبح معلقة مثل الستارة المصنوعة من الأوراق الاستوائية. وذلك بهدف تخزين حزم التبغ من خلال تمريرها بين تلك العوارض الخشبية في مخزن المعالجة وذلك لتبقى معلقة ومخزنة هناك طيلة فصل الخريف حتى تجف تماماً وتتبخّر سوائلها. على الرغم من أن المكان الذي يعمل به جيسون كان فوق تلك العوارض الخشبية ونسبة تعرضه لخطر السقوط هي نسبة مرتفعة، إلا أن مكان عمله كان مرغوباً جداً وذلك لأنه لم يكن عليه أن يحمل حزم التبغ فوق رأسه. كان عمل جيسون عملاً شاقاً، إلا أن آثار قطران التبغ السوداء على يديه كانت كفيلة بإعطائه دفعة متواصلة من الطاقة والنشاط بينما يرشح النيكوتين داخل جلده.

عندما أصبح جيسون في عنفوان شبابه، أتحه إلى العمل في ورشة لصيانة هياكل السيارات حيث كان يعمل في تلك الورشة على تخليص هياكل السيارات من الصدأ، وإصلاح الخدوش الناتجة عن الحوادث الخفيفة، وصنفرة المنحنيات الملساء للمصدات وأغطية المحركات. كان ورق الصنفرة يركم أنفه بالغبار ويترك يديه نازفتين بالدم في نهاية اليوم. ولكن ما يدفع له في تلك الورشة كان أعلى مما يدفع له في صناعة التبغ. وبعد سنوات من العمل في ورش أشخاص آخرين، قام جيسون باقتراض ٨٠،٠٠٠ دولار لتأسيس ورشته الخاصة، هارباً بذلك من محدودية الأجور الساعية. إلا إن العمل انهار في ورشته وبقي هو غارقاً في دينه.

وبما أنه كان يشتري مذيبيات صناعية لعمله في الورشة، كان من السهل له شراء مواد كيميائية أخرى ممنوعة- مواد كيميائية مثل الأمونيا الجافة التي تستخدم لتخصيب تربة الحقول وقتل العفن وصنع الميثامفيتامين- بعد كل تلك السنوات من الصدأ والغبار والقطران، أصبحت حياته أكثر سهولة وسيولة مالية. ولأول مرة أصبح لديه شاحنة جميلة وجهاز كمبيوتر وبإمكانه أن يشتري لعائلته الملابس والأدوات التي لم يستطيعوا امتلاكها من قبل. عندما بدأ جيسون باستخدام

الميتامفيتامين استخداماً شخصياً، أصبح شخصاً مليوناً بالطاقة وأي شيء أمامه هو أمر قابل للتنفيذ. إلا أنه في إحدى الليالي حدث تسرب في علبة من الأمونيا الجافة من مخزن مجهول، وانبعثت رائحة كريهة أدت إلى قيام أحد الجيران بالاتصال بالشرطة حيث قضى جايسون عيد ميلاده الأربعين في السجن. وعندما أطلق سراحه بعد ثماني سنوات، لم يكن لديه القدرة على العمل الشاق كما كان يعمل في حقول التبغ عندما كان طفلاً صغيراً.

يعتقد معظم الناس أن بيع المخدرات هو الوسيلة الأسرع لتحقيق الثراء. لماذا يقومون بتعريض أنفسهم لخطر الذهاب إلى السجن وخسارة كل شيء قاموا ببنائه، أو حتى القتل؟ درس عالم النفس سودير فينكاتيش اقتصاد تجارة المخدرات وذلك من خلال العيش مع عصابة شوارع لبيع المخدرات في منطقة مشاريع الإسكان المتهاكة في مدينة شيكاغو على مدار عدة سنوات، لم يرَ فقط كيف يكون العمل في تجارة المخدرات بل إنه تمكن أيضاً من الوصول إلى مصادر تعليمهم لمعرفة آلية عمل تلك التجارة.

يجني تاجر المخدرات المتوسط حوالي ثلاثة دولارات ونصف دولار في الساعة وهو نفس الحد الأدنى للأجور في ذلك الوقت- أوائل التسعينيات من القرن العشرين. كان للعديد من أعضاء العصابات متدنية المستوى وظائف ثانوية في مطاعم للوجبات السريعة. وفي مستوى أعلى بدرجة في سلسلة القيادة كان يوجد قادة عصابات المستوى المتوسط مثل جي تي، والذي أصبح لاحقاً من أقرب المخبرين إلى فينكاتيش. كان جي تي يجني ما يقارب الـ ٣٠٠٠٠ ألف دولار في السنة ويعيش مع والدته. بالنسبة لجميع المشاركين في تجارة المخدرات في مدينة شيكاغو كان معدل الوفيات مرتفعاً ارتفاعاً هائلاً نتيجة لحالات العنف التي تقوم بها تلك العصابات من خلال التنافس على القطاعات. في كل عام يُقتل سبعة بالمائة من أفراد العصابة. وتلك النسبة هي أعلى بكثير من معدل وفيات الجنود الأمريكيين في حربي العراق وأفغانستان مجتمعين.

في أحد الأيام، أثناء وجبة الإفطار على مائدة جي تي، عرض جي تي أمام فينكاتيش اختباراً مصغراً حول كيفية التفكير كرجل عصابات:

-«فلنقل إن شخصين يقدمان لي عرضاً رائعاً «للمنتجات الخام». كان لدي معلومات كافية لأعرف أن المقصود بـ «المنتج الخام» هو الكوكايين المجفف والذي تقوم عصابة جي تي بتحويله إلى (كراك). «يقول لي أحدهم إنني إذا دفعت له ٢٠٪ أعلى من السعر المعتاد فسوف يمنحني خصماً بنسبة ١٠٪ لمدة عام من الآن، مما يعني أنه إذا قلّت نسبة توفر المنتج الخام بالسوق فإنه سيبيعني إياها قبل بيعها للفتية الآخرين الذي يتعامل معهم. بينما يقول الآخر أنه سيعطيني خصماً بنسبة ١٠٪ إذا وافقت على شرائه منه بالسعر الاعتيادي لعام من الآن. فماذا تفعل لو كنت مكانني؟...»

-«حسناً، ليس لدي أي فكرة عن كيفية عمل هذا السوق لذا فأنا لست متأكداً مما سأفعل»

-«لا، ليست هذه هي الطريقة التي ينبغي أن تفكر بها، يجب عليك دائماً أخذ الرهان المؤكد. في هذه اللعبة لا يمكن التنبؤ بأي شيء، لا مدى توفر المنتج ولا أي شيء آخر. الفتى الذي يخبرك أنه

سيكون لديه المنتج لمدة عام من الآن هو كاذب، لأنه من الممكن أن يكون في السجن أو ميت بحلول ذلك الوقت. لذا خذ الخصم الآن.»

سواء كانوا يعيشون في بلدة زراعية كئيبة أو في غيتو داخل المدينة، فإن مصير الأفراد مثل جيسون وجي تي مألوف. فالطفل الذي ينشأ في مثل تلك البيئة يكون في كثير من الأحيان أكثر عرضة للسجن أو الهرب من المدرسة أو أن يكون عاطلاً عن العمل بنسبة أعلى بكثير من طفل يعيش في ضاحية للطبقة المتوسطة. ولكن أينما اخترت أن تعزو النتيجة إلى السبب في قصص أولئك الأشخاص فهذا يكشف الكثير عن كيفية رؤيتك للعالم. كثيرون سينظرون إلى شبان مثل جيسون وجي تي على أنهم مسؤولون بشكل كامل عن مشكلاتهم التي يواجهونها، بينما البعض الآخر قد يركز على ضعف توفر الفرص التي أمامهم بسبب عوامل مثل الفقر أو ضعف البيئة التعليمية.

في حالة كنت من ضمن أغلبية الناس فإنك ستأخذ وقتك بالتفكير في هذه التفسيرات، وقلة منها تبدو مقنعة بشكل كافٍ. إحدى التفسيرات أنه بكل بساطة هنالك أشخاص بطبيعتهم كسالى، غير مسؤولين، أو غير أذكياء ومتواجدون في نظام عمل يُعرّف النجاح على أنه الاجتهاد بالعمل والإحساس بالمسؤولية والموهبة، والأشخاص الذين لديهم عيوب الشخصية هذه هم الأكثر عرضة لارتكاب الجرائم وذلك لأن الخلل الأخلاقي ذاته هو الذي يؤدي بهم إلى الفقر في المقام الأول. يتردى مستوى الأبناء الدراسي لأن الاحتمالات بأن يعلمهم أبائهم الكسالى والمهملون العادات الجيدة ضئيل، وأيضاً لأن الذكاء يعتبر صفة وراثية جزئياً. يعاني المراهقون الفقراء من حدوث حالات الحمل غير المقصودة وذلك نتيجة طيشهم. أما المراهقون الذين لا يمتلكون قوة الشخصية فإنهم عادة ما يتورطون في اتخاذ قرارات صحية سيئة مثل التدخين وتعاطي المخدرات والإفراط في الأكل.

وهناك نسخة أخرى من هذه النظرية تنص على أن الفقراء لديهم ثقافة مختلفة لا تشجع «قيم الطبقة المتوسطة» في الاجتهاد بالعمل والمسؤولية والاعتماد على الذات. وسواء كنت تتبع مصدر المشكلة إلى الفرد أو إلى الثقافة فإن التفسير أساساً هو نفسه: الشخصية السيئة تؤدي إلى الفقر والمشكلات المرافقة له. تعتبر نظرية عيوب الشخصية نظرية مغرية وذلك لأنها تتلاءم مع الأسلوب المألوف لكيفية بحث عقولنا عادة عن الأسباب عندما نحاول فهم سلوك شخص ما. نفسياً سننظر أولاً إلى شيء ما في الفرد نفسه وهذا منطقي كقاعدة عامة لأن الإجراءات غالباً ما تسترشد بالمعتقدات والنوايا والقدرات وما إلى ذلك. ومن المؤكد أن هناك بعض الصحة في نظرية عيوب الشخصية، لأنه من المنطقي أن الشخص الذكي ذا الإرادة الحديدية سينجح أكثر من الشخص الذي يعاني من ضعف الذكاء والتحكم بالنفس.

ومع ذلك فإننا نأخذ ذلك التفسير أكثر من اللازم، عندما لا نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن التصرفات تكون تبعاً لمواقف معينة. فعلى سبيل المثال دعونا نتناول تجربة تقليدية أجراها عالم النفس نيد جونز. قام المشاركون في تلك الدراسة بالاستماع إلى خطاب ألقاه أحد الطلبة ويتحدث فيه عن فيديل كاسترو. في النصف الأول من ذلك الخطاب عبر فيه الطالب عن تأييده لفيدل كاسترو

بينما في النصف الآخر عبّر فيه عن معارضته له. وقيل لنصف المشاركين إن الطالب المتحدث له حرية اختيار موقفه سواء مؤيد أم معارض. بينما قيل للمجموعة الثانية من المشاركين بأن الباحثين أجبروا المتحدث على الدفاع عن موقف معين. بعد الانتهاء من سماع الخطاب، سُئل المشاركون عن مدى صدق المتحدث حول تأييده لفيديل كاسترو.

وضع الباحثون توقعات منطقية تنص على أنه إذا كان لمن قال الخطاب حرية اختيار موضوعه فإن المستمعين لذلك الخطاب سيعتقدون بأن المتحدث كان صادقاً في مواقفه. أما عندما يكون موضوع الخطاب محدداً مسبقاً فمن المفترض أنّ المتحدث ليس صادقاً في ما يقول. لكن المفاجأة هي أن ذلك التوقع المنطقي بالذات كان خاطئاً. حيث افترض المشاركون بأن المتحدث كان صادقاً ومؤمناً بما يقوله في كلتا الحالتين (الحرية والإجبار). وبعبارة أخرى يمكننا القول إن الناس لم يبدوا قادرين على أخذ الموقف بعين الاعتبار. بل بدلاً من ذلك، قاموا بنسب محتوى الخطاب إلى معتقدات المتحدث حتى عندما شكّل ذلك الافتراض الذي من شأنه أن يعتبر صفة في وجه المنطق. نحن متحيزون بشدة تجاه النظر إلى تفاصيل حالة أماننا، تماماً كما لو كانت قطعة زجاجية. ولشرح السلوك المستند إلى خصائص الشخص بذاته، تم تكرار هذا التحيز مرات عديدة وهو الأمر الذي دفع الباحثين إلى تسميته بـ «خطأ الإسناد الأساسي».

يتم تطبيق خطأ الإسناد الأساسي على الكثير من المعطيات. خريج الكلية هو شخص ذكي، مدمن المخدرات هو شخص ذو إرادة ضعيفة، والشخص الذي يحصل على طعامه بواسطة قسائم الطعام هو شخص كسول. أحد الأسباب التي تجعل «خطأ الإسناد الأساسي» منتشرًا إلى حد كبير هو ببساطة أن التفكير بالناس يعتبر أمراً أسهل بكثير من التفكير بالمواقف والأوضاع. وجدت الدراسات اللاحقة أن الميل لتجاهل المواقف يصل أسوأ مراحلها عندما يكون انتباه الناس منصباً على مهمة ثانية في نفس الوقت الذي يطلقون فيه أحكامهم على الآخرين. بعبارة أخرى، من المرجح أن لا ترى ظروف وأوضاع الناس من حولك عندما تكون في عجلة من أمرك أو مشغولاً أو متعباً أو متقلّباً. كل ما يتطلبه الموضوع هو القليل من الحضور الذهني للتفكير بأن خريج الكلية هو شخص تم دعمه من قبل عائلته، أو التفكير بأن الشخص المستفيد من قسائم الطعام هو شخص مجتهد في عمله لكنه علق في وظيفة ذات أجر منخفض.

وعلى خلاف نظرية عيوب الشخصية، فإن هناك تفسيراً شائعاً لسلوك الهزيمة الذاتية والذي يأخذ أيضاً الظروف بعين الاعتبار. تنص تلك النظرية على أن الفقر بحد ذاته هو من يسبب تلك المشكلات في الحياة. وأن الفقراء هم الذين يكونون أكثر عرضة لارتكاب الجرائم بسبب افتقارهم إلى المزيد من الفرص المشروعة لاكتساب لقمة العيش. الأطفال الفقراء لا يبلون بلاءً حسناً في دراستهم وذلك لأن المدارس في المناطق الفقيرة ليس لديها الكثير من المال لتوظيف المعلمين الأكفاء بالإضافة إلى أنه لا يتوفر الوقت لدى آبائهم للإشراف على دراستهم ومساعدتهم في حل الواجبات. الافتقار إلى الوظائف ذات الأجور الجيدة والثابتة سيمنع الشريكين المرتبطين من الزواج وتأسيس عائلات مستقرة. الأشخاص الفقراء لديهم مشكلات صحية أكثر بسبب افتقارهم إلى الطعام المغذي والرعاية الصحية الجيدة. وفي نهاية المطاف، الفقراء لا يختلفون في قيمهم وتصرفاتهم عن

الطبقة المتوسطة. وباختصار فإنّ البيئات الفقيرة تتسبب في مخرجات فقيرة وذلك لأن نقص الموارد يتسبب في نقص الفرص.

يتردد التفسيران اللذان عادة ما نسمعها من النقاد والخبراء في الكثير من أبحاث العلوم الاجتماعية حول انعدام المساواة، من قِبَل أكاديميين موسرين وحسني النية في محاولة لشرح مشكلات وأعراض الفقر. لقد وجدت أن هذين التحليلين هما تحليلان محدودان للغاية. حيث أن كليهما صحيح جزئياً وكليهما خاطئ جزئياً. إن نظريات عيوب الشخصية مقابل البيئة الفقيرة هي في الأساس نسخة من جدال طبيعة قديمة (عيوب الشخصية) مقابل تربية-تنشئة- (البيئة). ومثل أي نقاش لـ الطبيعة ضد التربية، سيبدو ذلك النقاش فاقداً إلى النقطة الأكثر أهمية وهي أنه غالباً ما تعمل الطبيعة مع التربية Nature and Nurture مع بعضهما البعض. وذلك لأن ما وراثناه نحن البشر جينياً ليس أموراً جامدة غير قابلة للتغيير، كذلك التي تدفع ذباب الفاكهة يتجه مرفراً بأجنحته نحو الضوء. إنها بدلاً من ذلك ميول التفاعل مع متغيرات البيئة بطرق محددة، الهدف الذي يجب فهمه هو كيف أنّ الطبيعة البشرية أعدتنا للاستجابة والتفاعل في بيئات غنية الموارد وأخرى ضعيفة الموارد، وكيف نتفاعل ونستجيب في بيئة ذات مستوى عالٍ من انعدام المساواة وبيئة ذات مستوى منخفض من انعدام المساواة. وبمجرد أن ندرك ذلك فسوف نفهم لماذا يقوم شخص ما من عائلة ثرية بالتفكير والتصرف بطريقة مختلفة عن ذلك الذي نشأ في عائلة فقيرة. ولماذا يتصرف الفرد الذي يعيش في ظروف خالية من المساواة بطريقة مختلفة عن آخر يعيش في ظروف تسودها المساواة. بهذه الطريقة سنبدأ إدراك كيف لانعدام المساواة الاقتصادية أن يغيرنا.

من حُسن النية التفكير ضمن التفسيرات البيئية، إذ يساعدنا ذلك على تجنب إلقاء اللوم على ضحايا الفقر والتمييز والظروف السيئة، بالتركيز على افتقارهم للفرص والموارد كعوامل مسببة. إلا أن ذلك يجعلنا نفترض بسذاجة تامة أن قرارات وسلوكيات الفقراء هي بالأساس نفس قرارات وسلوكيات الطبقة المتوسطة. ولكن مثل أي شخص عاش حياة الفقر وحياة الثراء يمكنه أن يشهد بأن تفكير الناس وتصرفاتهم تختلف جداً عن بعضها البعض في تلك العوالم المختلفة. إحدى تلك الاختلافات هي كيف ينظرون إلى مستقبلهم.

في طفولتي، كنت أقضي معظم أيام السبت لعباً في منزل صديقي ستيفن، وأفراد عائلة ستيفن خريجو جامعات من طبقة متوسطة. كانت والدته وكيلة في شركة تأمين ووالده ضابط شرطة. كانوا أناساً رائعين إلا أن بعض تصرفاتهم كانت تربكني، فعلى سبيل المثال، قد تقول والدته ستيفن: «إنه يومٌ جميل، ما هي خططكما لقضائه؟». كان يوم السبت، وقد توقعت منا أن يكون لدينا خطة واضحة لمجرى يومنا، أعتقد بأننا قلنا: «سنلعب كرة السلة من الساعة العاشرة وحتى الظهر ثم سنتناول البوريتو المجدد SunnyD للغداء، ومن ثم سنخرج للعب ألعاب الفيديو إلى أن يحل المساء». هل سبق أن قمنا بالتخطيط من قبل؟ طبعاً لا، لم يسبق لنا أن خططنا. أو على الأقل أنا الذي لم يسبق له أن خطط من قبل. ثم في أحد الأيام شعرت بالذعر عندما أدركت أن ستيفن كان يخطط سراً لكل ما كنا سنفعله، بدا كل هذا التخطيط دقيقاً وأنيقاً وأثوياً إلى حدٍ ما، حيث أنّ الرجال في عالمي يعيشون للحظة الحالية فقط.

هذا الانحياز المقيت «للآن» ونفوري شبه المرضي تجاه الدقة أديا بي إلى الكثير من المتاعب على مر السنين، فمع دخولي الجامعة والحياة المهنية كان علي الكفاح وبذل جهد إضافي من أجل تحقيق بعض الاجتهاد والتنظيم في حياتي الجامعية وهو الأمر الذي كان موجوداً بشكل طبيعي لدى زملائي أبناء الطبقة المتوسطة. وبحلول السنة الثالثة من دراستي العليا، استسلمت أخيراً واشترت المنظم اليومي. وتفهمت الآن هذه (النزعة الحاضرة) المبالغ بها كتجربة عامة للناس الذين يكبرون وهم فقراء.

بالطبع، تبدو هذه المقاربة للحياة بمثابة الدفاع عن النفس. إذا كنت بالفعل تود الخروج من دائرة الفقر فعليك أن تخطط للمستقبل وتوفر المال وتستثمره في الفوائد المركبة. ولكن هذا ليس هو تفكير الأشخاص الذين تربوا فقراء حول المستقبل. إن الأسباب الحقيقية الواقعة خلف إيمانهم بذلك النهج بعيدة كل البعد عن تلك الأسباب التي يذكرها النقاد وأفراد الشرطة الذين تتم استضافتهم في فقرة التحليل في نشرة الأخبار المسائية. لفهم تلك الأسباب، علينا أن نسافر آلاف الأميال وعشرات الآلاف من السنين لدراسة كيف أعدنا التطور البشري للتعامل مع شح الموارد.

عش سريعاً، مث صغيراً

تخيل أنك من أوائل البشر الذين سكنوا المراعي الأفريقية. إذا كنت رجلاً، فإنك ستقضي أيامك في الصيد البري وصيد الأسماك، وفي حال كانت جماعتك في صراع مع جماعة أخرى فإنك ستبقى دائماً مراقباً للأعداء لأن الهجوم قد يحدث في أي لحظة. أما إذا كنت امرأة فإنك ستصبحين مشغولة في جمع الفواكه والمكسرات كما فعل والداك ووالداهم من قبل. أما إذا كنت شاباً يافعاً فستقضي وقتاً طويلاً بمغازلة الشابات، ونشر الشائعات التي ستنتقل لا محالة من شخص إلى آخر حيث الجميع يعرفون بعضهم ضمن الجماعة الصغيرة. في ظل تلك الظروف، كيف ينبغي لك قضاء واستثمار وقتك وطاقتك بأفضل صورة ممكنة؟

عندما نفكر بهذا السؤال فإننا وبشكل طبيعي سنأخذ بعين الاعتبار كل ما من شأنه أن يسعدنا. ولكن يجب علينا من منظور بشري تطوري أن نتذكر بأن الطبيعة من حولنا لا تبالي سواء كنا سعداء أم لا، لا تبالي سواء قمنا بتمرير جيناتنا إلى الأجيال القادمة أم لا، لا تبالي سواء مات كل من في شجرة عائلتك أم لا، لا تبالي سواء انقرض الجنس البشري برمته أم لا، الطبيعة لا تبالي بمخرجات أناس معينين سواء كانوا أفراداً أو مجموعات. الطبيعة ببساطة هي كل ما يحدث.

ومع ذلك فإن الطبيعة ليست أمراً عشوائياً خالصاً، لأن بعض أنماط السلوك تنتج بنسخ الجينات التي تنتقل إلى الأجيال القادمة أكثر من غيرها. يميل مثل هذا السلوك إلى أن يكون أكثر شيوعاً في الأجيال القادمة، ويخلق هذا التناغم لهذا الخراب الخلاق نماذج رائعة عبر موجات الزمن التطوري. ولكي نتمكن من فهم الطبيعة البشرية من منظور تطوري علينا أن نفهم ما هي أنواع السلوك التي تنتقل أكثر من سواها عبر الجينات وفي أي نوع من البيئات.

من وجهة نظر تطورية، هناك طريقتان فقط لاستنزاف الموارد الهامة: البقاء والتكاثر. يواجه كل كائن حي عملية تبادلية عندما يتعلق الأمر بكيفية استثمار طاقته (الطاقة الخلوية والتمثيل الغذائي،

وليس الجهد والتركيز) من ناحية يمكن للكائنات الحية بأن تركز لنفسها الكثير من الطاقة وذلك للحفاظ على بقائها على قيد الحياة، ولفعل ذلك قد تقوم تلك الخلايا ببناء العضلات لاكتساب القوة وتقوية الجهاز المناعي بهدف الحفاظ على الصحة. ومن ناحية أخرى يمكن للكائن الحي تكريس طاقته لأجل التكاثر، بخلق البيوض والنطاف. وكامل النظام الهرموني والأجساد البالغة المكتملة النمو جنسياً التي يقدم بعضها للآخر تلك البيوض والحيوانات المنوية. وبالطبع فإننا لا نملك القدرة على التحكم وتحديد خيارات عملية المبادلة لتلك الخلايا. ولكن الأنظمة الفسيولوجية المتنوعة في أجسامنا تقوم باستمرار بعملية تنظيم لمقدار الطاقة الذي نستهلكه على مشاريع البناء المتنوعة في أجسامنا (وهو الأمر الذي سنراه بتفاصيل أكثر في فصل التوتر والصحة).

ما هو الاستثمار - المحافظة على أجسادنا أم خلق أناس آخرين- الذي من شأنه أن يقدم لنا الفرصة الأفضل لتمرير جينات شخص ما؟ من بين أمور أخرى، يعتمد ذلك على الفترة الزمنية التي تعيشها من حياتك، هل هي جيدة أم سيئة. فعندما تعيش في فترة زمنية مزدهرة من حياتك ويبدو لك المستقبل آمناً فإن ذلك علامة على أنك ستعيش لفترة أطول وبصحة جيدة. أنت ستترك من بعدك المزيد من سلالتك في حال انتظرت الوقت المناسب لإنجاب الأطفال والاستعداد لدعمهم بشكل جيد. يجب عليك أن تبذل كل ما يمكنك القيام به لتربية أطفالك للتأكد من أنهم يحافظون على أنفسهم لإنجاب آخرين. بل ربما يمكنك أيضاً المساعدة في تربية أحفادك.

عندما تسوء الأحوال ويصعب المستقبل غامضاً ويتربص بك الأعداء. عندما نمر بأوقات صعبة فإن الظروف تتطلب نهجاً مختلفاً. قد لا تعيش لفترة طويلة تسمح لك بالإنجاب في وقت لاحق من حياتك. في تلك الظروف قد تكون مكرهاً على الإنجاب باكراً وغالباً، حيث إذا كنت تفكر في الإنجاب، يكون الرهان على أن أفضل وقت لذلك هو أقرب وقت ممكن. يطلق علماء الأحياء على المسار الأول الذي يُعنى بالاستثمار بالمستقبل اسم «استراتيجية بطيئة»، بينما يطلقون على المسار الثاني اسم «استراتيجية سريعة». وهذا ما يعني «عش سريعاً، مت صغيراً».

بالطبع إن الإنسان العاقل الأول لم يتبنَّ استراتيجية واعية في زيادة كفاءته الجينية ولكن في تاريخنا المبكر ثمة أولئك الذين قاموا بانتهاج المسار السريع عندما كانوا يمرون بأوقات صعبة، وأولئك الذين قاموا بالمقابل بانتهاج المسار البطيء عندما كانوا يمرون بأوقات مزدهرة من حياتهم أنجبوا الكثير من سلالتهم أكثر من أولئك الذين لم يقوموا بالتفاعل مع بيئتهم. ونتيجة للتفاعل الصحيح مع البيئة، كان هناك الكثير من الناس في الأجيال اللاحقة الذين كانوا يميلون للتبديل بين المسار السريع والمسار البطيء استناداً إلى ما تمليه عليهم بيئتهم المحيطة. الآن، وبعد أجيال تلو أجيال نحن أحفاد أولئك الأجداد القدامى الذين تكيّفوا مع بيئتهم باستخدامهم ذلك النهج.

على مدى عقود، استنتج علماء الأحياء أن الحيوانات تتكيف مع التغيرات التي تحدث في بيئاتها وذلك من خلال التبديل بين المسار السريع والبطيء، فعلى سبيل المثال، لاحظ علماء الأحياء أن الفراشات التي عاشت في مناطق تحتوي على حيوانات مفترسة، تكاثرت في وقت مبكر بتسخير الطاقة الأيضية في أجسادها للتكاثر أكثر من تسخيرها للنمو. ووجود نفس النوع من الفراشات في موقع آخر يحتوي على عدد أقل من الحيوانات المفترسة، ينتج فراشات ستعيش فترة أطول وبالتالي

ستنتهج المسار المخالف وتبدأ بالتكاثر في وقت لاحق من حياتها. على الرغم من أن تلك الملاحظة كانت الدليل النهائي، إلا أنه عندما بدأ العلماء في إجراء التجارب في المختبر للتأكد من أن تلك الظروف كانت بالفعل ظروفًا بيئية محفوفة بالمخاطر وهو الأمر الذي أدى إلى حدوث ذلك التكيف لدى الحيوانات.

في إحدى الدراسات استولد علماء الأحياء، من عشرة ذكور وعشر إناث، ما يقارب ثمانمائة ذبابة فاكهة بين إناث وذكور. بعد ذلك قام العلماء بتقسيمها إلى مجموعتين متطابقتين وراثياً. إحدى المجموعتين كانت محظوظة بما يكفي لأن تصبح هي المجموعة الآمنة حيث كانت ذبابتها قضي يومها في التكاثر والأكل والقيام بكل ما تحبه. أما المجموعة الثانية فلم تكن محظوظة مثل الأولى، إذ مات من ذبابها ٩٠٪ من عددها الإجمالي ليتم التعويض عنها مرتين في الأسبوع بذباب جديد. وقد استمر الباحثون بالقيام بتلك التجربة لمدة أربع سنوات.

إن قراءة التقرير العلمي لتلك التجربة مثيرة للأعصاب، حيث لا يمكنك سوى أن تتخيل ذلك الموقف من وجهة نظر الذباب نفسه، تفتح عينيك لتجد نفسك في كابوس خيال علمي. يتكون ذلك الكابوس من عمالقة مجانين بأردية مخابر بيضاء متحركة تقوم بإخفاء كل من تعرفهم. أعطيت تلك التجربة وصفاً ملطفاً، نصّه: «HAM Treatment» والذي يعني: «معالجة معدل الوفيات المرتفع للبالغين»، حيث تم تحديد معدل الوفيات بدقة: «إن احتمال البقاء على قيد الحياة لمدة أسبوع واحد كشخص بالغ هو $P = 01.0$ ».

على الرغم من قسوة تلك الدراسة إلا أنها أظهرت لنا نتائج في غاية الأهمية؛ الذباب الموجود في مجموعة (مُت صغيراً) بدأ بالتكاثر في سن مبكرة حيث وضعت الإناث من البيض أكثر بكثير مما وضعت إناث المجموعة الآمنة. اتفقت تلك النتيجة مع النتيجة المتوقعة لنظرية (عش سريعاً مت صغيراً). لم يكن الأمر بأن الذباب وقف ونظر من حوله ثم قرر بأن الأوضاع تأخذ بالتدهور لذا كان عليه أن يأخذ قراره بتأسيس أسرة له في أسرع وقت ممكن. بل إن كل ما يجب علينا ذكره هو أن الذباب الذي كان قادراً على التكاثر بسن مبكرة ببساطة ترك خلفه عدداً كبيراً من سلالته للأجيال القادمة.

في عام ١٩٩١م، قام عالم النفس جاي بيلسكي وزملاؤه بتقديم تفسير يستند إلى نظرية التبادل السريع- البطيء للتطور البشري، وهو أنّ النساء اللاتي نشأن في بيئات قاسية ومرهقة وفوضوية سيملن أكثر للإنجاب بعمر مبكر. لم يكن لدى جاي بيلسكي الكثير من البيانات المتاحة، لكن بعد عدة سنوات، أوكلَ إلى زملائه مسألة التثبت من نظريته، فقام عالما النفس مارغو ويلسون ومارتن دالي بدراسة معدلات الولادة والوفاة في مدينة شيكاغو الأمريكية والتي تشتهر بكونها مدينة سكنية ذات كثافة عالية. عندما تذهب إلى تلك المدينة فمن المرجح أنك ستبدأ بزيارة منتزه لينكولن ذا الشوارع المليئة بالأشجار والمُنارة بمصابيح مشغولة بالحديد والأبنية القرميدية ذات اللون البني الجميل. إما إذا ذهبت إلى إنغلوور- جنوب مدينة شيكاغو- فإن البيئة المحيطة بك ستكون الإسمنت الصرف والبنائيات بلا نوافذ والأرصفة المليئة بالزجاج المكسور. إذا اعتقدت بأن الاثني عشر ميلاً التي

قطعتها من شمال المدينة إلى جنوبها، كانت بمثابة عبور لك حدود غير مرئية بين منطقتين مختلفتين فأنت لا تلام. بمعنى أو بآخر، أنت بالفعل عبرت الحدود بين منطقتين مختلفتين تماماً.

قام ويلسون ودالي بالتقصي عن المتوسط العمري للنساء الذي أنجبن فيه أول أطفالهن في كل منطقة من مناطق شيكاغو، والنتيجة كانت كما هي متوقعة، حيث إن النساء في المناطق الفقيرة أنجبن أول أطفالهن في وقت مبكر من حياتهن. بعد ذلك قام العالمان بربط عمر النساء عند إنجابهن لأول أطفالهن مع متوسط العمر المتوقع لهن في كل منطقة من مدينة شيكاغو. لأن متوسط العمر المتوقع وفقاً لمنظور التطور يعتبر المصدر الأكثر أهمية في إحداث الضغط من أجل التكاثر في عمر مبكر. ذلك الربط كان صادمًا للغاية إذ يكاد الترابط أن يكون ترابطاً طردياً تماماً: كلما انخفض متوسط العمر المتوقع، كلما انخفض معه عمر النساء عندما أنجبن أول أطفالهن. وكما تنبأت نظرية (عش سريعاً مت صغيراً)، فإنه عندما يموت الناس في سن مبكرة، ينجبون أطفالهم في سن مبكرة.

في السنوات التي تلت ذلك البحث الرائد، تبعته عشرات الدراسات التي أكدت نتائج ويلسون ودالي: تتجب النساء اللاتي تربين في بيئات فقيرة أو خطيرة أول أطفالهن في عمر مبكر، بل وأيضاً ينجبن المزيد والمزيد. في المتوسط- من الأطفال وهو الأمر الذي من شأنه أن يعتبر وسيلة أخرى لزيادة فرص نقل الجينات.

يبدو أن النظرية التي قدمها جاي بليسكي كانت محملة بالكثير من المعطيات والحقائق، حيث إن بليسكي لم يقدّر بتنبؤ حالات الإنجاب المبكرة فحسب، بل إنه تعدى ذلك إلى تفسير «استراتيجية» النساء- اللاتي نشأن في بيئات خطيرة أو فقيرة- لإنجاب الأطفال في وقت مبكر وهو الأمر الذي لم يكن ببساطة مجرد خيارهن في كثير من الأحيان، بل كان استجابة لمقدار ثقتهن أو انعدامها في بيئتهن وهو الأمر الذي من شأنه أن يؤثر على ارتباطهن وتفاعلهم مع العالم والأشخاص الآخرين من حولهن من الناحية النفسية والجسدية على حد سواء. تنبأ جاي بليسكي بأن الفتيات اللاتي نشأن في ظروف سيئة أو خطيرة أو فوضوية فإنهن سيبلغن وتبدأ دورتهن الشهرية في وقت يسبق فتيات الطبقة المتوسطة اللواتي نشأن في منازل مستقرة. ويعني ذلك بأنهن سيصبحن قادرات- في المتوسط- على الإنجاب في وقت مبكر نتيجة بلوغهن المبكر. كان هذا التنبؤ هو الأكثر جذباً للانتباه لأنه أشار إلى أن الظروف المعيشية لا تؤثر فقط على اختيارات الناس بل تؤثر أيضاً على أجهزتهم الحيوية.

في التسعينيات، حفزت تلك الدراسة لجاي بليسكي موجة من الدراسات والتي قام فيها الباحثون من عدة مختبرات مختلفة لسنوات بتعقب عائلات منذ الوقت الذي وُلد لهم فيه أطفال إلى الوقت الذي كبر فيه أولئك الأطفال وأصبحوا قادرين على الإنجاب. إذا كانت البيئة الفوضوية بالفعل تسبب تغيرات في معدلات الولادة، فمن المفترض أن يكون العمر الذي ستبلغ فيه الفتيات متوقعاً قبل ولادتهن وبدون معرفة أي معلومات عنهن عدا وضع الأسرة أو الحي. ودراسة تلو الدراسة. تم تأكيد نبوءة جاي بليسكي وعند منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كان واضحاً أن الفتيات اللاتي نشأن في منازل قاسية أو فقيرة أو فوضوية قد وصلن سن البلوغ في وقت سابق لقريناتهن اللاتي نشأن في منازل أكثر استقراراً.

تلك النتائج قامت بدفع النظرية إلى مدى أبعد من ذلك، فعلى الرغم من أن الدراسات التي تستهدف الحيوانات تركز على معدلات الموت ومعدلات الولادة إلا أن الدراسات البشرية تركز على مجموعة أوسع من المشكلات.

لم يتم ربط سن البلوغ وسن الإنجاب المبكر بمتوسط العمر المتوقع فقط، بل إنه تعدى ذلك إلى ارتباطه أيضاً بالفقر وتغيّب الأب ودرجة انعدام المساواة الاقتصادية في المنطقة المحيطة. وأيضاً على الرغم من أن هذه الأنواع من المصاعب هي مصاعب غير قاتلة بحد ذاتها- على الأقل بشكل غير مباشر- إلا أنها أشارت إلى نفس الأنواع من التغيرات النفسية والجسدية كما يفعل معدل الوفيات المرتفع.

ما مدى انتشار الآثار المترتبة على نظرية التبادل السريع- البطيء بين البشر؟ تشير التجارب النفسية إلى أن تلك الآثار انتشرت بشكل أكبر بكثير من أي توقعات سابقة، آثار تؤثر على سلوكيات البشر واختياراتهم بطريقة لا تمت للتكاثر بصلة. بعض أكثر الأمور أهمية الآن والتي تتضمن المال تتناقض نظرية التبادل السريع- البطيء الأخيرة. يخبرنا المستشارون الماليون بأننا إذا تخلينا عن كوب قهوتنا اليومية وادّخرنا ما قيمته ثلاثة دولارات كل يوم فإننا بذلك نستطيع زيادة مدخراتنا السنوية بأكثر من ألف دولار سنوياً. لكن ما يعنيه ذلك بالفعل هو مواجهة الاختيار اليومي: ما مدى رغبتني في الحصول في الحصول على ١٠٠٠ دولار في حسابي المصرفي في نهاية السنة؟ وما مدى لذة كوب القهوة في هذا الوقت من الصباح؟

تكمّن التقديرات ذاتها وراء قرارات الحياة الأكبر، هل أستثمر الوقت والمال في الذهاب إلى الجامعة أملاً بذلك أجراً مالياً عالياً على المدى البعيد؟ أو أعمل في الوظيفة التي تؤمن لي دخلاً مالياً في الوقت الراهن؟ هل أعمل في وظيفة نظامية وأتلاعب بالقوانين، حتى لو انتهى بي المطاف أناضل مالياً لبقية حياتي؟ أم أقوم ببيع المخدرات؟ إذا اخترت المخدرات، فإنني قد أخسر كل شيء على المدى البعيد وينتهي بي المطاف مفلساً في السجن، أو ميتاً.

لكنني بالمقابل أستطيع أن أجنّي الكثير من المال لهذا اليوم. إن المشاعر قصيرة الأمد سواء كانت مشاعر الثراء أو مشاعر الفقر تعتبر أيضاً من الأمور التي من شأنها أن تجعل الناس أكثر أو أقل قصراً للنظر. وحسب ما ذكر في الفصول السابقة، فإن الأحاسيس الذاتية بالفقر أو بالثراء لها تأثيرات نافذة، وتلك الأحاسيس التي عادة ما تسند إلى كيفية مقارنة أنفسنا بالآخرين. قام عالم النفس ميتش كولان وزملاؤه بجمع كلا المبدئين وتوقعوا بأنه عندما يكون الناس قد جُبلوا على الشعور بالفقر فإنهم وبشكل طردي سيصبحون قصيري النظر، وذلك يعني بأنهم سيأخذون أي شيء من شأنه أن يشعرهم بالثراء اللحظي متجاهلين بذلك المستقبل. وفي الجهة المقابلة، عندما يكون الناس قد جُبلوا على الشعور بالثراء فإنهم وبشكل طردي سوف يصبحون بعيدي النظر.

بدأت دراستهم بطرح سلسلة طويلة من الأسئلة على المشاركين في البحث، الأسئلة التي تتقصى مواردهم المالية وعاداتهم الإنفاقية وحتى سماتهم الشخصية وأذواقهم. أخبروا المشاركين في الدراسة بأنهم يحتاجون كل تلك المعلومات المفصلة لأن برنامجاً في حاسوبهم سيقوم بحساب

«مؤشر الدخل المالي التقديري المقارن»، الخاص بأولئك المشاركين. حيث تم إخبارهم بأن الحاسوب سيظهر لهم درجة تحدد كم من المال لديهم مقارنة بغيرهم من الناس المكافئين لهم في العمر والمستوى التعليمي والسمات الشخصية وما إلى ذلك. وفي واقع الأمر لم يقم الحاسوب بفعل أي من ذلك، كل ما فعله هو إظهار شريط للتقدم مرفق بجملة «جاري الحساب. الرجاء الانتظار...». بعد تلك الجملة قدم الحاسوب نتائج عشوائية للمشاركين في الدراسة، فأخبر النصف منهم بأن ما لديهم من المال هو أكثر من غيرهم من الناس المكافئين لهم، بينما تم إخبار النصف الآخر بأن ما لديهم من المال هو أقل بكثير من الناس المكافئين لهم.

بعد ذلك طلب من المشاركين اتخاذ بعض القرارات المالية، حيث عرض عليهم سلسلة من خيارات تقدم لهم: مكافآت مالية أقل يتم تسليمها بشكل عاجل أو مكافآت مالية أكبر يتم تسليمها بوقت لاحق. فعلى سبيل المثال قد يكون سؤالهم: «هل تفضل أن تحصل على ١٠٠ دولار اليوم أو تحصل على ١٢٠ دولار في الأسبوع القادم؟ ماذا عن ١٠٠ دولار اليوم أو ١٥٠ دولار في الأسبوع القادم؟». وبعد الإجابة على الكثير من تلك الأسئلة، تمكن الباحثون من معرفة مقدار المكافأة المالية الفورية التي سيحصل عليها المشاركون وما هو مدى استعدادهم للانتظار في سبيل الحصول على مكافأة أكثر قيمة على المدى البعيد.

كانت نتائج هذه الدراسة هي أنه عندما يشعر الناس بالفقر فإنهم يميلون إلى الجانب السريع من نظرية التبادل السريع- البطيء، مفضلين بذلك شعور الإشباع الفوري. أما في الجهة المقابلة، عندما يشعر الناس بالثراء نسبياً فإنهم يميلون إلى اتخاذ قراراتهم وفقاً للمدى البعيد. وللتأكيد على نقطة بأن تلك النتيجة لم تكن مجرد قرارات ليس لها أي تأثير في العالم الواقعي، قام الباحثون بإجراء الدراسة مرة أخرى وعلى مجموعة مشاركين آخرين، لكن في هذه المرة، وبدلاً من الخيارات الافتراضية، أعطى المشاركون ٢٠ دولاراً وعرضت عليهم فرصة المقامرة بها. كان للمشاركين الخيار بأن يرفضوا المقامرة ويضعوا المال في جيوبهم ويذهبوا به إلى منازلهم، أو أن يلعبوا لعبة الورق على الحاسوب ويغتنموا فرصهم، في هذه الحالة إما أنهم سيخسرون كامل المبلغ أو سيخونون الكثير والكثير من المال. عندما تم إشعار المشاركين بالثراء، اختار ٦٠٪ منهم المقامرة. بينما عندما تم إشعارهم بأنهم فقراء ارتفعت النسبة إلى ٨٨٪. الشعور بالفقر يدفع الناس إلى المقامرة أكثر.

إن الأمر المذهل في تلك التجارب هو أن قصر النظر أو بعده لا يتطلب من الشخص أن يكون قد قضى جل طفولته في بيئة غنية أو في بيئة فقيرة حيث إنه بمجرد شعورك الداخلي بأنك شخص أقل من غيرك هو أمر كافٍ بحد ذاته لأن تسلك في حياتك نهج (عش سريعاً مت مبكراً).

لا شيء لأخسره

كان معظم أعضاء عصابة بيع المخدرات الذين قام سودير فينكاتيش بمتابعتهم يعيشون مع أمهاتهم ويجنون ما يعادل الحد الأدنى من الأجور. طالما أن عملهم في مهنة خطيرة جداً كنتك لم يحقق لهم الثراء، فلماذا اختاروا الاستمرار في تلك المهنة؟ السبب يعود إلى أنه كان هنالك القليل من كبار أعضاء العصابة الذين كانوا يجنون مئات الآلاف من الدولارات سنوياً والذين بدورهم جعلوا

ذلك الثراء الذي يعيشونه براقاً ومغرياً، حيث كانوا يقودون السيارات الفاخرة ويرتدون الملابس الباهظة الثمن والمجوهرات الخاطفة للأنظار ويسافرون مع حاشية خاصة بهم. لم ينظر الأعضاء الأقل مكانة في تلك العصابة إلى حياة بعضهم البعض مستنتجين بذلك أنها مهنة شاقة، بل بدلاً من ذلك اكتفوا بالنظر إلى الأشخاص الموجودين في قمة تلك المهنة وتخيلوا أنفسهم مكان أولئك الأشخاص، وقد غضوا بأبصارهم عن حقيقة أن احتمال نجاحهم في تلك المهنة هو احتمال قليل جداً، وحتى في حال توافرت لهم فرصة ضئيلة فإنها ستكون محفوفة بالمخاطر الشديدة.

تشرح نظرية (عش سريعاً مت صغيراً) سبب تركيز الناس على المكان الحالي والوقت الراهن وتجاهل المستقبل عندما يكونون في بيئة تجعلهم يشعرون بالفقر. لكن تلك النظرية لا تشرح القصة كاملة. حيث كشفت الدراسة الموجودة في الفصل الثاني بأن معدلات الكثير من المشكلات الصحية والاجتماعية كانت مرتفعة في المجتمعات التي يكون فيها انعدام المساواة مرتفعاً، حتى بين أفراد الطبقة المتوسطة، يتمثل أحد الجوانب المحيرة للارتفاع السريع لانعدام المساواة على مدى العقود الثلاثة الماضية في أن كل التغييرات الملاحظة في الثروة كانت تحدث في القمة. فمنذ تحديد أرقام التضخم المالي في عام ١٩٨٠م، لم تحدث أية تغيرات كبيرة في الدخل المالي للفقراء وأبناء الطبقة المتوسطة. لكن مداخيل وثروات أغنى ١٪ قد ارتفعت، وتراجع دخل العشر بالمائة على الرغم من ازديادهم. كيف تؤثر زيادة ثروة الأغنياء تأثيراً سلبياً على رفاهية البقية منا؟

يمكننا العثور على جزء من الإجابة على ذلك السؤال في خلايا النحل. حيث كان عالم البيئة رالف كارتر يدرس العادات الغذائية للنحل الطنان في جزيرة صغيرة مقابل ساحل كولومبيا البريطانية. يتغذى النحل في تلك الجزيرة بشكل رئيسي على رحيق نوعين من الزهور: أزهار نبات السيلش وأزهار نبات الهكلييري القزم. السيلش هي زهرة طويلة تتوجها بتلات ذات لون وردي زاهي. يبدو حقل السيلش كاللوحه الانطباعية، آلاف النقاط الوردية على بساط صيفي أخضر. أما الهكلييري القزم فهو نبات متواضع ذو شكل مشابه للشجيرات البرية، والتي ربما تحمل القليل من الثوت الأزرق والقليل من الأزهار المتدلية للأسفل مثل الجرس. قد تخطئ وتحسب حقل الهكلييري القزم مروجاً من العشب.

لاحظ كارتر بأن النحل ينظر إلى السيلش والهكلييري القزم بطريقة مختلفة. يحصل النحل وسطياً على كمية الغذاء ذاتها من أي زهرة من الزهرتين، إلا أن اختيار زهور السيلش يضمن للنحل أمراً مؤكداً. إذا ذهب النحل لتناول الرحيق من حقل السيلش، فإنهم لن يرحلوا من ذلك الحقل عطاشاً أبداً. كل زهرة تحتوي نفس الكمية البسيطة من الرحيق مما يعني أيضاً أن النحل لن يحصل على كمية وفيرة بشكل مفاجئ، ويعني ذلك أن السيلش منخفض الخطورة- منخفض العائد. وبالمقابل فإن حقل الهكلييري القزم هو حقل المخاطرة للنحل حيث أن بعض أزهاره يحتوي على كمية كبيرة جداً من الرحيق بينما البعض الآخر لا يحتوي على شيء منه، ويعني ذلك أن الهكلييري القزم عالي الخطورة- عالي العائد.

تفرغ كارتر لاختبار نظرية التطور حول المجازفة، والتي سأسميها «نظرية لا شيء أخسره». تقول تلك النظرية إن حجم المخاطرة التي ترغب الكائنات الباحثة عن الغذاء في تحملها بدءاً بالنحل

الطنان وانتهاء بالصيادين وجامعي الثمار تعتمد على مقدار الحاجة لذلك الغذاء. يستطيع النحل المغذى جيداً بأن يختار أسلم الطرق وأضمنها للحصول على الغذاء وذلك باختياره لأزهار السيليش، ولكن فكر في نحلة على وشك أن تموت جوعاً والتي من غير المرجح أن تعيش على الكمية القليلة من الرحيق الموجود في أزهار السيليش. في تلك الحالة فإن تلك النحلة اليائسة، التي ليس لديها ما تخسره، ستأخذ فرصتها وتحلق بحثاً عن حظها في حقول نبات الهلبيري القزم. وذلك يعني أنه كلما زادت الحاجة، كلما زادت معها نسبة الخوض في المخاطرة.

لاختبار تلك النتيجة قام كارتر بمقارنة الخيارات الغذائية للنحل عندما يكون في حالة شبع وعندما يكون في حالة جوع. كان كارتر ومساعدوه يقومون يومياً بزيارة أربعة عشرة مستعمرة للنحل، حيث كانوا يسرقون في بعض الأيام الرحيق المخبأ في أعشاش معينة من خلال شفته بواسطة أنابيب صغيرة ومن ثم إعطائه إلى عش نحل آخر. في اليوم التالي يقومون بعكس العملية: بإعطاء الأعشاش التي سُرقَ رحيقها في اليوم السابق رحيقاً إضافياً، ثم أحصى الباحثون كم عدد النحلات من كل مستعمرة التي تذهب إلى كل حقل وذلك بتلوين النحل بألوان مختلفة ليسهل معرفة مستعمراتها. وكما توقع كارتر، فإن العش الذي تمت سرقة أفرادها ذهب إلى حقل الهلبيري القزم بينما العش الذي تم إعطاؤه رحيقاً إضافياً توجه أفرادها إلى حقل السيليش.

يعتبر تقدير الخيار الأفضل في بيئة غير مضمونة أمراً معقداً للبشر أيضاً. فوفقاً للنظريات الاقتصادية التقليدية، يعني اتخاذ قرارات منطقية مضاعفة عوائدك المالية، حيث يمكنك حساب «المنفعة المتوقعة» الخاصة بك من خلال ضرب حجم الجائزة باحتمالية حصولك عليها. لذا فإن الخيار الذي يضمن لك بنسبة ٩٠ بالمائة فرصة ربحك لـ ٥٠٠ دولار سيعود عليك بفائدة متوقعة أعلى من الخيار الذي يضمن لك بنسبة ٤٠ بالمائة فرصة ربحك لـ ١٠٠٠ دولار ($٩٠ \times ٥٠٠ = ٤٥٠$ دولار مقارنة بـ $٤٠ \times ١٠٠٠ = ٤٠٠$ دولار). لكن هذا النوع من اتخاذ القرارات الذي أظهره النحل لا يعني بالضرورة أنه يتوافق مع نموذج المنفعة المتوقعة، ولا يظهر أن ما تقوم به العديد من الأنواع الحية الأخرى من اتخاذ للقرارات الخطرة أنها تبدي الميل ذاته لتكبد المخاطر في حالة حاجتها الشديدة.

يعد البشر أحد تلك الأنواع الحية. تخيل ما الذي يمكنك أن تفعله إذا كنت مطالباً اليوم بدفع ألف دولار قيمة للإيجار وإذا لم تدفع فإنك سوف تفقد منزلك. في المقامرة، هل ستقامر بفرصة ٩٠ بالمائة مقابل ربح ٥٠٠ دولار أم ستقامر بفرصة ٤٠ بالمائة مقابل ربح ١٠٠٠ دولار؟ سيختار معظم الناس الفرصة الأقل للحصول على ١٠٠٠ دولار وذلك لأنه سيتم سد احتياجاتهم في حالة ربهم ذلك المبلغ. على الرغم من أنه غير منطقي من منظور المنفعة المتوقعة إلا أنه منطقي من منظور آخر، وذلك لأن سد الاحتياجات الأساسية هو أمر أكثر أهمية من الحقائق والصفقات المحسوبة. إن حقيقة رؤيتنا النمط ذاته يتكرر عبر الأنواع الحيوانية ليشير إلى أن القرارات المتعلقة بالاحتياجات الأساسية للحياة هي نوع من أنواع التكيف مع البيئة المحيطة. فابتداءً بالنحل الصغير ذي الأدمغة الصغيرة وانتهاء بالبشر الذين يحاولون سد احتياجاتهم الأساسية، نحن لا نسعى دائماً إلى تحقيق الحد الأقصى من منفعتنا. وكما يقول منطق ميك جاغر: إذا لم نستطع الحصول دائماً

على ما نريد، فإننا نحاول أن نحصل على ما نحتاج. وفي بعض الأحيان يعني ذلك تكبدنا مخاطر كبيرة.

لقد رأينا في الفصل الثاني أن الناس يحكمون على ما يحتاجونه استناداً إلى مقارنة أنفسهم مع الآخرين، ويعتبر وقع المقارنة بأولئك الذين في الأعلى أكثر تأثيراً من وقع المقارنة بالأشخاص الموجودين في الأسفل (الفقراء). إذا كان انعدام المساواة المتزايد يُشعر الناس بأنهم يحتاجون أكثر، وأن المستويات المرتفعة للحاجة يؤدي إلى اتخاذ إجراءات خطيرة، فإن ذلك يدل على علاقة جديدة وأساسية بين انعدام المساواة والخطر، وبغض النظر عن كونك فقيراً أو من أصحاب الطبقة المتوسطة، فإن انعدام المساواة بحد ذاته قد يسبب لك التورط في سلوكيات خطيرة النتائج.

ولاختبار ما إذا كان انعدام المساواة يزيد من احتمالية تكبد المخاطر بالفعل، قمت أنا والمتعاونين معي بإجراء تجربة بسيطة. حيث طلب من المشاركين في تلك التجربة أن يقوموا باتخاذ مجموعة من قرارات المقامرة. قدم كل واحد من المشاركين مجموعة متنوعة من الخيارات المتفاوتة بين منخفضة الخطورة- منخفضة العائد (مثل فرصة ربح بنسبة ١٠٠ بالمائة لـ ١٥ سنت) إلى خيارات عالية الخطورة- عالية العائد (مثل فرصة ربح بنسبة ١٠ بالمائة لـ ١.٥٠ دولار). تم تقسيم المشاركين إلى مجموعتين، ولكن قبل البدء بالمقامرة تم تزويدهم بمعلومات حول أداء المقامرين السابقين لهم، وهو العامل التجريبي الجوهرى لهذه الدراسة. في المجموعة «العادلة» تم إخبار المشاركين بأن أفضل المقامرين كانوا يجنون عدة سنتات فقط أعلى من المجموعة الأقل أداء. أما في المجموعة «غير العادلة» فتم إخبار المشاركين بأن أفضل المقامرين كانوا يجنون أرباحاً أكثر بكثير من المجموعة الأقل أداء والتي خرجت بدون أي شيء تقريباً، الأمر الذي يجدر بنا ذكره هو أن متوسط أرباح كلا المجموعتين كان متساوياً. عندما أُخبر المشاركون بأداء المقامرين السابقين لهم، أشاروا إلى مقدار المال الذي يحتاجونه ليشعروا برضاهم في الجولة التي سيخوضونها. بعدها بدأ المشاركون بالمقامرة.

وكما هو متوقع، أشار المشاركون في المجموعة «غير العادلة» بالفعل إلى أنهم سيحتاجون إلى الكثير من المال حتى يشعروا بالرضا أكثر من أولئك في المجموعة «العادلة». في الحالة التي وجد فيها قدر كبير من انعدام المساواة، شعر المشاركون بأنهم أكثر حاجة. ونتيجة لذلك، عندما اتخذ أعضاء المجموعة غير العادلة قرارهم في المقامرة، فإنهم تكبدوا المزيد من المخاطر مفضلين بذلك الخيار عالي الخطورة- عالي العائد. العامل الحاسم في تلك الدراسة هو أن كلتا المجموعتين، متساويتيّ الأعضاء في المستوى التعليمي والدخل المالي، أنهم لم يبدؤوا بمبالغ مالية مختلفة، أنهم لم يباشروا اللعبة بعد لذا فإنه ليس لديهم ربح يقلقهم خسارته، ومع ذلك فإن مجرد الإدراك بأن هنالك فجوة بين الرابحين والخاسرين جعل المجموعة غير العادلة تسعى أكثر لتأخذ المزيد من الفرص محاولة بذلك ربح الجولة. هذه التجربة قدمت أول دليل على أن انعدام المساواة قد يسبب بذاته سلوكيات خطيرة العوائد.

ماذا كانت نتائج اختياراتهم؟ بشكل طبيعي، ربح عدد قليل من أعضاء المجموعة غير العادلة عوائد مالية كبيرة بينما خسر معظمهم. وفي الناحية المقابلة، فإن عدداً أقل من أعضاء المجموعة

العادلة حققوا أرباحاً مالية مرتفعة، بينما خسر العدد الأقل منهم كل شيء، وبعبارة أخرى، متسبباً بقرارات عالية الخطورة، إذ يؤدي انعدام المساواة إلى فروقات أكبر بين الذين يملكون المال والذين لا يملكونه، وفي الحقيقة، فإن انعدام المساواة يولد انعدام مساواة أعظم.

تعتبر تلك التجارب بمثابة طبق بتري Petri dish جاهز بالنسبة لعلماء النفس، الذين يمكنهم التحكم بقوة في موقف ما واتخاذ خطوات عشوائية، وهو الأمر الذي يعتبر ضرورياً للحصول على إجابات دقيقة وواضحة للسبب والنتيجة. لكن في عملية إحضار المشكلة إلى المختبر فإنهم ينزعونها من سياقها اليومي. وبشأن تجربتنا الخاصة، فقد أردنا أن نعرف ما إذا كانت الديناميكية ستتحقق في البرية. هل تكمن المخاطرة في انتزاع أحد مسامير الأمان التي تصل اللامساواة بحيوات الناس العاديين الفوضوية؟

إحدى الطرق الشائعة التي يقوم بها الباحثون لقياس مستوى تكبد المخاطرة هي ببساطة أن يقوموا مباشرة بسؤال المشاركين باستخدام الاستبيان. في تلك الدراسة عن سلوكياتهم. على أن هنالك الكثير من أنواع المخاطر التي من شأنها التي تؤدي بالناس إلى المتاعب، إلا أن هذا الأسلوب في عرض المشكلات (الاستبيان) يؤدي بالفعل إلى المتاعب. «شكراً لإجراء الاستبيان. الآن، كم مرة في السنة الماضية قمت باتخاذ قرارات مالية حمقاء؟ هل قمت بسلوكيات صحية ضارة مثل ممارسة الجنس غير الآمن؟ هل تلتزم بقوانين القيادة؟ هل خرجت عن القانون وتورطت بتعاطي أو بيع المخدرات؟» هنالك مسائل أخلاقية واضحة تتمحور حول الطلب من الناس بأن يعترفوا بقيامهم بهذه الأمور التي أحسنها هو أمر محرج وأسوأها أمر محظور. وحتى لو تمت بالفعل الإجابة على تلك الأسئلة، فإنه يصعب الوثوق بصحة تلك الإجابات.

فبدلاً من إجراء الاستبيان، قمنا باستخدام طريقة مختلفة لقياس ممارسة السلوكيات الخطرة في الحياة اليومية. حيث توجهنا إلى غوغل (محرك البحث الأشهر على الإنترنت) للبحث عن المصطلحات التي قد يبحث عنها الناس عندما يشاركون في أنواع محددة من السلوكيات المخوفة بالمخاطر. بدأنا في تحديد ثلاثة مجالات يتم فيها اتخاذ قرارات مخوفة بالمخاطر والتي من شأنها أن تحدث مشكلات حقيقية: القرارات المالية، السلوك الجنسي وتعاطي الكحول والمخدرات. وبمجرد أن حددنا تلك المجالات (المال والجنس والمخدرات)، بدأنا نتساءل: ما الذي يمكن أن يبحثه شخص منخرط في تلك السلوكيات؟

فمثلاً الأشخاص الذين يبحثون في غوغل عن «تذاكر اليانصيب» و«القروض المحدودة» هم على الأرجح متورطون في سلوكيات إنفاقية وخيمة العوائد. ولقياس المخاطر الجنسية أحصينا عمليات البحث عن كلمات مثل حبوب منع الحمل واختبار الأمراض الجنسية. ولقياس المخاطر المتعلقة بالمخدرات والكحول، أحصينا عمليات البحث عن كيفية التخلص من آثار تناول المخدرات والكحول وكيفية اجتياز اختبار الكحول. بالطبع يمكن لأي شخص أن يبحث عن تلك المصطلحات لأسباب لا علاقة لها بانخراطه بتلك السلوكيات. ولكن، وسطياً، إذا كان هنالك المزيد من الأشخاص يمارسون تلك السلوكيات (الجنس، تعاطي المخدرات والكحول وسوء التصرف المالي) فإننا سننتوقع أن نجد المزيد من عمليات البحث.

مسلحين بمليارات الحقائق والبيانات من غوغل، تساءلنا عما إذا كانت تلك الولايات التي يقطنها أولئك الناس الذين بحثوا عن تلك المصطلحات في غوغل، ولايات ذات مستويات عالية من انعدام المساواة للدخل المالي. وللمساعدة في تقليل تعارض الخصوصيات المتعلقة بكل مصطلح يتم البحث عنه، قمنا بإيجاد معدل يجمع للمصطلحات الستة ووضعها جميعاً في مؤشر واحد باسم مؤشر تكبد المخاطر العامة. ثم أدرجنا ذلك المؤشر مقابل درجة انعدام المساواة في كل ولاية. كانت النتيجة أن الولايات ذات المستويات العالية من انعدام المساواة قد ارتفع عندها مؤشر تكبد المخاطرة- وهو الأمر ذاته الذي تم تقديره من بحثهم في غوغل. حافظت هذه العلاقة على قوتها حتى بعد التعديل الإحصائي لمتوسط الدخل المالي لكل ولاية.

إذا كان مؤشر تتبع عمليات البحث في غوغل يقوم بالفعل بتقصي السلوكيات الخطيرة في الحياة الواقعية، فإننا سنتوقعه بأن يكون مرتبطاً بالدخل المالي لحياة الفقراء. لذلك أخذنا مؤشر غوغل وتحصنا ما إذا كان يمكنه أن يوضح ذلك الارتباط، الوارد ذكره في الفصل الثاني، بين انعدام المساواة ومؤشر ريتشارد ويلكنسون وكيكيت بيكيت للمشكلات الصحية والاجتماعية العشر الأساسية.

بالطبع أن مؤشر عمليات البحث في غوغل للسلوكيات الخطيرة كان مرتبطاً ارتباطاً قوياً بمؤشر مشكلات الحياة. وباستخدام تحليلات إحصائية معقدة، استنتجنا أن انعدام المساواة كان بمثابة متنبئ قوي لتكبد المخاطرة والتي هي بدورها متنبئ قوي للمشكلات الصحية والاجتماعية. تشير نتائج تلك الدراسات إلى أن السلوك المحفوف بالمخاطر هو بمثابة طريق يساعد على تفسير العلاقة بين انعدام المساواة والنتائج السيئة في الحياة اليومية. يصبح الدليل أقوى بكثير بعدما نقوم بالنظر إلى تلك الارتباطات سوية مع برهان السبب والتأثير المثبتين في التجارب.

تعتبر مثل هذه التجارب المذكورة في هذا الفصل أمراً ضرورياً لفهم تأثير انعدام المساواة، ويعود ذلك لأن التجارب هي وحدها القادرة على الفصل بين تأثيرات البيئة المحيطة والفروقات الفردية ضمن السمات الشخصية. من المؤكد أن في كل مجموعة تجريبية يوجد مشاركون متألقون يتمتعون بضبط عالي للنفس وهنالك أيضاً البليدون المتهربون من مسؤولياتهم، ونظراً لأنه تم تعيينهم في المجموعات التجريبية بشكل عشوائي، فإنه من غير المرجح أبداً أن يغير وجودهم في تلك المجموعات من شخصياتهم وقدراتهم، بل إنه يمكننا القول وبكل ثقة أن تلك التغيرات التي نراها كانت نتيجة للعامل التجريبي، والعامل التجريبي في هذه الحالة هو اتخاذ قرارات في سياق مستوى عالٍ أو منخفض من انعدام المساواة.

في القرن السادس عشر، كان جون برادفورد عالم لاهوت بروتستانتي، لمع نجمه في عهد الملك إدوارد السادس. تغير معتقد جون برادفورد بمجرد وفاة الملك إدوارد السادس وتولي الملكة الكاثوليكية ماري تيودور مقاليد الحكم. كانت الملكة تلقب بـ «ماري الدموية» وذلك لقيامها بحرق المئات من البروتستانتين بعد تعليقهم على أوتاد. بينما كان مسجوناً في برج لندن، راقب برادفورد ما يحدث من حوله. راقب نقل المساجين الآخرين إلى القاعة لإعدامهم. لم يكن يعلم هل سيطلق سراحه أم سيعدم. كان يقول لزملائه في الزنزانة إن ما يفصل بين مصيره ومصير أولئك المحكومين بالإعدام هو أمر لا يمكنه التنبؤ به، هو أمر ليس بقدرته. ولا يمكن لإشراقه أن يغير شيئاً

فما التجارب إلا تذكير لطيف بأن، بحسب تعبيره، «ليس هناك إلا نعمة الله الجأ إليها». إذا قمنا بفهم التجارب السلوكية بعمق فإنها ستجعل منا أناساً متواضعين حيث أنها تتحدى غطرستنا حين نشعر بأن كل شيء تحت سيطرتنا سواء كان الفشل أو النجاح، إنها تذكرنا- كما فعلت بجون برادفورد- بأننا لسنا مجرد منتجات لأفكارنا ومعتقداتنا وخططنا.

تشير هذه التجارب إلى أن أي شخص عادي سوف يبدأ بالتصرف بشكل مختلف في حال دفع به لأن يكون ضمن تلك المواقف والظروف. تخيل معي بأنك عالم شرير تمتلك ميزانية ضخمة تخدمك لإجراء أي بحث تريده ولا يوجد لديك أي حدود أخلاقية. تقرر بأن تأخذ عشرة آلاف طفل حديث الولادة وتقوم بتوزيعهم عشوائياً ليكملوا بقية حياتهم مع أسر تسكن في مختلف المناطق والبيئات.

تضع بعضهم لدى الأسر الثرية، آباؤهم ذوو مستويات عالية من التعليم ويسكنون في ضواحي أتلانتا. بينما تضع البعض الآخر منهم لدى أمهات وحيدات في وسط مدينة ميلووكي. وما إلى ذلك. تشير الدراسات التي قمنا بذكرها إلى أن البيئات التي قمت بتوزيعهم عليها، سوف يكون لها تأثير كبير على مستقبل أولئك الأطفال. إن الأطفال الذين تم توزيعهم إلى بيئات تتسم بمستوى عالي من انعدام المساواة- مثل ولاية تكساس- سوف يكون دخلهم المالي أقل بكثير من الأطفال الذين تم توزيعهم إلى مناطق تتسم بمستوى منخفض من انعدام المساواة- مثل ولاية أيوا- وذلك على الرغم من أن ولايتي تكساس وأيوا لهما نفس متوسط الدخل المالي.

جزء من تلك النتيجة يحدث لأنه من الأكثر احتمالاً أن أولئك الأطفال قد يواجهون أموراً سيئة لا تحدث إلا في البيئات التي تتسم بانعدام المساواة. أما الجزء الآخر من تلك النتيجة يحدث بسبب أن الأطفال الذين نشأوا في بيئات تتسم بانعدام المساواة سيتصرفون ويتعاملون مع المواقف بطريقة مختلفة. كل هذا ممكن الحدوث حتى لو كان الأطفال الذين وزعتهم عشوائياً بدأوا حياتهم بالمقدرات والقيم المحتملة نفسها.

إن نتائج تجاربنا المتمحورة حول انعدام المساواة وتكبّد المخاطر جعلتني أفكر مرة ثانية في جيسون، الذي لم يكن مجرد جزء آخر في دراساتي. إنه أخي الأكبر. لقد عملت أنا أيضاً في التبغ وشعرت بحرارة قطران التبغ تتغلغل إلى داخل جلدي. لقد عملت لدى جيسون في ورشته، كنت أصنفر هياكل السيارات حتى اختفت معها بصمات أصابعي في أيام الصيف الحارة. عندما كنت في المرحلة الثانوية في أحد أيام الصيف التي كان فيها جيسون لا يزال يملك ورشته، أتى وتوقف أمام منزل والديّ وسألني عما إذا كنت أرغب في مرافقته والركوب معه إلى فرانكفورت حيث سيباع سيارة اشتراها بسعر رخيص ثم قام بترميمها ويجب عليه أن يحصل على سند الملكية الأصلي من عاصمة الولاية قبل بيعها. كان لطيفاً بما يكفي لأن يأخذ معه مراهقاً يشعر بالملل لجلوسه في المنزل، وأيضاً كان يريد من يشاركه مشواره في السيارة لمدة ساعتين ونصف ذهاباً وإياباً. وأثناء عبورنا سريعاً بشاحنته الطريق السريعة، تحدثنا بجدية أكثر مما كنا معتادين عليه. شعرت بأن هنالك أمراً ما كان في ذهنه.

أخذت حركة المرور أماننا بالتباطؤ إلى أن توقفت. محدقاً بأضواء الفرامل الحمراء أماننا، أدار

جيسون عجلة القيادة إلى اليسار بشكل مفاجئ، خارجين بذلك من الطريق الذي نسلكه ومتجهين إلى الطريق العشبي الذي يقع في المنتصف، كان أوسع عدة مرات وأعرض بكثير من الطرق المعبدة بالإسفلت الواقعة على كلا الجانبين، ثم رجعنا مسرعين صعوداً إلى الاتجاه المعاكس للطريق. خرجنا من الطريق السريع متجهين إلى المخرج، بعدها بدأنا بالسير على الطرق الريفية الصغيرة متجنبين بذلك الطرق المزدحمة. بعد ذلك قام بشرح ما فعله قائلاً: «سأكون لعيناً إذا كنت سانتظر انتهاء ذلك». بعد ذلك بقليل- وبعد أن عدنا إلى الطريق السريعة- أخرج جيسون صندوقاً خشبياً منحوتاً صغيراً، ومن أحد جوانب ذلك الشيء الغامض قام جيسون بسحب أنبوب فولاذي صغير مقاوم للصدأ، ثم قام بدفع ذلك الأنبوب بالاتجاه الآخر من ذلك الصندوق ساحباً بذلك أنبوبة صغيرة محشوة في طرفها بفتات الماريوانا. موجهاً الشاحنة بركبته، أشعل جيسون نهاية تلك الأنبوبة بولاعة السجائر. غليون! لقد كنت متأثراً بذلك الجهاز المبتكر الصغير. يفترض به أن يكون أكثر عملية من إخراج الأوراق ثم لفها أثناء القيادة. تسلل الهدوء الرتيب إلينا مرة أخرى في الطريق السريع. تحدث جيسون عن مشكلاته المالية وقال بأنه ليس لديه أدنى فكرة عما إذا كانت ورشته ستظل موجودة خلال السنة القادمة أم لا. أعقب ذلك بقوله: «لن أكون أبداً شخصاً ليس لديه ما يملكه»، «لذا سأقوم بفعل ما سأفعله الآن».

الفصل الرابع

اليمين واليسار والسلم

كيف يعمل انعدام المساواة على تقسيم سياساتنا

كان لابد أن يكون الأمر مربكاً عندما تكون محاطاً بالترف المعهود لقصر فرساي وبالوقت ذاته قريباً جداً من الفوضى. هذا ما حدث بالضبط للبارون دي جوفيل. فبحلول عام ١٧٩١م، تم استبدال الجمعية التقليدية، المجالس العمومية، في فرنسا بنسخة جديدة من مجلس النواب، استبدال يلي الآخر، كل مجلس ينشق إلى فصائل متشاحنة. كل ذلك انهار قبل الوقوع في التجسيد المقبل. تأرجح الملك لويس السادس عشر بين الرضوخ والقوة مستميتاً في سبيل الحفاظ على عرش البلاد، وأخيراً، قُطِعَ رأسه.

عندما اجتمع المجلس البرلماني الجديد لأول مرة، قام الأعضاء بفرز أنفسهم في وسط تلك الفوضى إلى مجموعات، كل مجموعة تحمل التفكير ذاته. وصف دي جوفيل تلك المرحلة بقوله: «لقد بدأنا في التعرف إلى بعضنا البعض: أولئك الذين كانوا مواليين للدين وللملك أخذوا أماكنهم إلى يمين كرسي الملك متقادين بذلك الصراخ والسباب والبذاءة التي يستمتع بالتعبير عنها بحرية الفريق المعارض. بينما حثَّ الثوار المتشددون الذين أرادوا الإطاحة بالنظام والذين كرسوا أنفسهم لمبادئ التنوير العقلانية الشعب على التنوير بدلاً من السلطة التي تنفذ ما تمليه عليهم الكنيسة، اتخذوا أماكنهم إلى اليسار. أما أولئك الذين يمتلكون رؤية معتدلة فأخذوا أماكنهم في منتصف القاعة.

على الرغم من أن توزيع المقاعد كان أمراً غير مخطط له إلا أنه لم يكن غير متوقع. حيث إنه في مجلس العموم القديم دعا الملك رجال الدين (المرتبة الأولى) والنبل (المرتبة الثانية) للجلوس إلى يمينه، بينما أخذ العاملون (المرتبة الثالثة) مقاعدهم إلى يسار الملك. وكما هو الحال في العديد من الثقافات حول العالم تنص الثقافة اليهودية والمسيحية على أن الأطراف المفضلة أكثر من سواها تحفظ لهم مقاعدهم في الجهة اليمنى. حيث كما هو موجود في الإنجيل، يجلس المسيح عيسى ابن مريم على يمين الله. في اللغة الفرنسية gauche تعني حرفياً «اليسار»، لكننا في اللغة الإنجليزية نستخدم ذلك المصطلح بمعنى «غير أنيق» أو «ساذج»، وهو الأمر الذي يشبه إلى حد كبير «الصراخ والسب والبذاءة» التي ترفع عنها البارون دي جوفيل. وبالمثل، فإن الكلمة الفرنسية droite (والتي تعني إلى اليمين) أصبحت في اللغة الإنجليزية «adroit»، والتي تعني «ماهر» أو «موهوب». بحلول الوقت الذي كان فيه البارون دي جوفيل يصف أحداث الثورة الفرنسية، لم يعد الملك يخبر النبلاء بأماكن جلوسهم حيث أن محالفيه وأنصاره بدوا أكثر راحة في جلوسهم إلى يمينه، بينما أعداؤه إلى يساره.

في الأسابيع التي تلت ذلك، بدأ الكتّاب يكتبون تقارير إخبارية عن أعضاء المجلس، مبتدئين تلك التقارير بالإشارة المختصرة إلى الانقسامات المتنوعة في ذلك المجلس بقولهم «اليسار»، «اليمين» و«الوسط». وهكذا أصبحت «اليمين» و«اليسار» كلمات مختزلة في مفرداتنا السياسية والتي

تستخدم كوصف لليبراليين والمحافظين كل حسب موقعه. إذا كانت القاعة التي يعقد فيها المجلس في فرساي قد رُتبت بشكل مختلف، فقد يكون حديثنا اليوم عن المحافظين باعتبارهم «الجهة الأمامية» والليبراليين «الجهة الخلفية».

على الرغم من أن أصول هذه المفردات تعود إلى وقائع تاريخية، إلا أن الملتصقات لا تزال تحتفظ بمدلولاتها الأصلية. هل كلمة اليمين في المجال السياسي هي أمر جيد بينما اليسار أمر سيء؟ والسؤال هو: جيد لمن؟ من وجهة نظر الملك فإن المحافظين الذين أرادوا الملكية المطلقة هم الأشخاص الذين سبقوه في الحكم والذين صانوا حكم البلاد والطرق القديمة لفعل الأشياء، كانوا أشخاصاً جيدين. بينما أولئك الأشخاص الذين أرادوا تغيير قوانين المجتمع كانوا أشخاصاً سيئين. وبالفعل كانوا جيدين وسيئين- ولكن فقط كان ذلك الحكم على أولئك الأشخاص (الجيد منهم والسيئ) صادراً فقط من وجهة نظر الأشخاص القيايين في هياكل السلطة التقليدية. كانت تلك الأحكام صحيحة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، وهي صحيحة اليوم أيضاً.

من غير الواضح دائماً لماذا تتوافق قضية معينة مع المنظور المحافظ أو المنظور الليبرالي. لماذا يجب على الشخص الذي يدعم حق المرأة في الإجهاض أن يرغب أيضاً في زيادة الضرائب على الأشخاص ذوي الدخل المالية المرتفعة؟ لماذا يجب على نفس الشخص الذي يؤمن بحق امتلاك بنادق هجومية أن لا يقتنع بالنتائج العلمية لتغيرات المناخ؟ لماذا ترتبط مواقف الناس تجاه الهجرة غير الشرعية بأرائهم تجاه الزواج المثلي؟

على مر السنين، قام علماء النفس السياسي باقتراح الكثير من البرامج التي من شأنها أن تفسر جوهر الاختلاف بين الليبراليين والمحافظين. هل هم نتاج التربية المتساهلة أو التربية الصارمة؟ أم هو عمل التفكير المرن أو المتصلب؟ أو الآراء الدينية مقابل العلمانية؟ قام عالم النفس جون جوست باستعراض المنظورات التاريخية وعشرات الدراسات التجريبية ووجد أن اليسار واليمين يختلفان باستمرار عن بعضهما بمساري اختلاف أساسيين.

الفرق الأول والأكثر وضوحاً هو أن المحافظين عموماً يريدون الحفاظ على التقاليد والوضع الراهن، بينما يريد الليبراليون أن يروا تغيرات تحدث في المجتمع. هذا التمايز بين التقاليد والتغيير يبدو مختلفاً، من وجهة نظر كل منهما. المحافظون لا يفضلون الوضع الراهن لمجرد الحفاظ على الأشياء كما هي. حيث إنهم يميلون إلى الاعتقاد، مثل الفيلسوف توماس هوبز، بأن أسوأ حالة ممكنة هي أن يكون المجتمع في حالة من الفوضى. لذلك السبب فإن المحافظين حساسون للتهديدات التي يتعرض لها النظام الاجتماعي، سواء أكانت تهديدات خارجية (جيوش العدو) أم داخلية (قوة ثورية). الحفاظ على النظام الداخلي هو أمر صعب لذلك فإن المحافظين يعتقدون أنه يتعين علينا جميعاً العمل على صون ذلك النظام. وهذا عادةً ما يعني الثقة بالطرق التقليدية لعمل الأشياء التي تم اختبارها بمرور الوقت. وحتى لو كان يعني ذلك التخلي عن بعض الفرص لتحسين المجتمع من خلال تغيير قواعده، فهو ثمن يستحق الدفع.

وبالمثل، فإن الليبراليين لا يريدون التغيير لمجرد التغيير، ولكنهم يميلون إلى النظر إلى جوانب

المجتمع على أن بعضها يعمل بشكل جيد والبعض الآخر يعمل بشكل سيء. أدت الطرق التقليدية لفعل الأشياء إلى كلتا النتيجتين السيئة منها والجيدة، لذا فهم ليسوا معجبين بالتقاليد ويشعرون بأنهم مضطرون لتغيير الأشياء التي يعتقدون أنها تحتاج إلى تغيير. ويميل الليبراليون إلى الثقة أكثر من المحافظين بقوة العقل البشري في إيجاد حلول عقلانية للمشكلات. وعلى خطى الفلاسفة مثل جان جاك روسو وجون لوك، فإن الليبراليين لديهم الدافع لمواصلة إعادة صياغة قواعد المجتمع بهدف تحسينه.

الفرق الثاني والأساسي بين المحافظين والليبراليين هو استعدادهم لقبول انعدام المساواة. إن معظم المحافظين لا يريدون انعدام المساواة لأجل مصلحتهم. بل إنهم ينظرون إلى عدم رغبتهم بوجود انعدام المساواة كنتيجة للتأكيد على الحقوق والقدرات والمسؤوليات الفردية.

فعندما يتفوق الفرد على الآخرين تكون النتيجة دائماً درجة من انعدام المساواة. وعلى عكس تصورات العديد من الليبراليين، فإن معظم المحافظين ليسوا متحمسين لفكرة تراتبية المكانة، كل ما في الأمر أن تلك الفكرة لا تزعجهم كما تفعل بالليبراليين.

الليبراليون، على عكس وجهة نظر العديد من المحافظين، ليسوا معادين لفكرة الحقوق الفردية والمسؤوليات، أو حتى المنافسة في السوق. بل إن الليبراليين يرون أن الجدارة الفردية هي عامل واحد فقط من عدة عوامل أخرى تحدد النجاح أو الفشل في سوق تنافسي. حيث ينظر الليبراليون إلى النظام الاقتصادي كنظام متكامل أكثر من النظر إلى مجرد أفراد لاعبين ضمنه، مما يعني أن يؤخذ بعين الاعتبار عوامل أخرى مثل الاحتكارات وشبكات (11) Old Boy، والعنصرية المؤسسية والتمييز الجنسي ودورات المزايا والعيوب التي تصوغ مصائر الناس لأسباب لا علاقة لها بالقيم الفردية. ليس لليبراليين حب خاص لـ «الحكومة الكبيرة» حيث إنهم غالباً ما يشعرون بالحيرة من هوس المحافظين الواضح تجاه حجم الحكومة. يؤمن الليبراليون أن السياسات الحكومية والأسواق أدوات مفيدة، رغم نقصها، لتحسين المجتمع.

في نهاية المطاف، الحياة معقدة للغاية ولا يمكن تقييمها من وجهة نظر واحدة. الليبراليون يحبون التأكيد على نقطة أن معظم الناس الذين يبدؤون أثرياء لا يزالون كذلك، بينما الذين يبدؤون من الصفر لا يزالون فقراء إلى الآن والإحصاءات والتجارب أثبتت صحة ذلك. على الرغم من أن الموهبة الفردية والإحساس العالي بالمسؤولية يمكن أن تحظيا بسلطة قوية، حسب ما يشير إليه المحافظون غالباً، فإن بعض الأفراد الاستثنائيين قادرون على تجاوز الفقر والفرص المحدودة لتحقيق نجاح عظيم. وما هو صحيح بشكل عام في تلك المنظومة ليس بالضرورة أن يكون صحيحاً لكل من ينتمي إليها. فعلى سبيل المثال، انظر إلى ذلك السرب من طيور الزرزور (الشكل التوضيحي (٤.١)).



سرب لطيور الزرزور.

كل طائر ينتمي إلى هذا السرب البديع، يطير حسب اهتمامه ومصلحته الخاصة. وتتم حماية تلك الطيور الفردية من الصقور والحيوانات المفترسة الأخرى من خلال بقائها في ذلك السرب. لا يعرف أي طائر في ذلك السرب ما هي الوجهة القادمة، كما لا يوجد قائد لتلك المجموعة من الطيور. حيث يقوم كل طائر برؤية وسماع ما يفعله بقية الطيور ويحاول أن يبقى بالقرب منها.

عندما يقوم ١٠ آلاف طائر زرزور بإتباع القاعدة نفسها فإن النتيجة ستكون عبارة عن ظل مذهل وجميل يتموج في الطبيعة الخلابة، مرة يتشكل على شكل موجة ومرة على شكل دوامة ثم لوهلة يتحول إلى شكل لولب حلزوني يتفكك عن بعضه البعض ليأخذ شكل الأميبا العملاقة، ليرجع لاحقاً يندمج مع بعضه البعض ويلغي ذلك التفكك. وكما وصفه الشاعر ريتشارد ويلبر بقوله: «ما هو الفرد الشيء؟ أنهم يدورون عبر السماء كبصمات لأصابع سكري.» فعندما تركز على السرب ككل، يبدو ككائن واحد، يصعب تتبع الأفراد داخله.

وعلى الرغم من ذلك، إذا ركزت في حركة طائر زرزور واحد فإنك ستجد أن سلوكه غير مطابق للسرب بأكمله. حيث انه في لحظة يمكن أن يطير إلى الأمام بينما بقية السرب تتجه إلى اليسار. في لحظة ما ممكن أن يقوم الطائر بالطيران نزولاً بينما بقية السرب يحوم في الهواء. إنه

أمر مشابه للخدعة البصرية حيث لوهلة ترى ذلك السرب على شكل بطة بينما يكون على شكل أرنب للوهلة الثانية، كما أنه يستحيل عليك رؤية أفراد طيور الزرزور والسرب في الوقت ذاته.

الأمر نفسه ينطبق على المجتمعات والاقتصادات: يمكنك التركيز على الفرد أو النظام، ولكن من الصعب رؤية كليهما في الوقت ذاته. يركز المحافظون على الأفراد ضمن النظام، حيث تتبع منهم مقولة: هذا الشاب مسؤول عن الحصول على وظيفة له، يجب على تلك الفتاة أن تتخذ الخيارات التي تمكنها من تجنب الحمل وتحمل مسؤولية الطفل بمفردها، وإذا لم يفعلوا، فإنهم سيعانون من عواقب قراراتهم. الليبراليون ينظرون إلى النظام مدركين بأن المناطق التي يتقش فيها الفقر ستنتج المزيد من الأجيال الفقيرة. حتى عندما يعمل الأطفال بجد في تلك المناطق، فإن القليل منهم يستطيع النجاة. إذا كنت ترغب في التنبؤ بمن سيحصل على وظيفة، فابدأ بتقييم دخل آبائهم المالي وجودة مدارسهم.

لقد رأينا في الفصل الثالث أن كلا المنظورين (المنظور الليبرالي والمنظور المحافظ) هما وجهتا نظر مبسطة جداً، وذلك لأن غياب المساواة في المجتمع يؤثر على سلوكيات الأفراد ضمن ذلك المجتمع وهو الأمر المؤدي إلى تضخم ذلك الغياب. وعموماً، يتفق المحافظون والليبراليون على أن المسؤولية الفردية والموهبة والعمل الجاد هي عوامل مهمة في تحقيق النجاح، ويتفقون على أن المعطيات والظروف المحيطة تلعب دوراً مهماً في ذلك. إلا أن تركيز إحدى المجموعتين على أمر ما، يعتبر في واقع الأمر غير المهم للمجموعة الثانية. عندما يكون النظام تحت الأضواء فإن تراتبية المكانة وانعدام المساواة يظهران بقوة في الصورة. بينما عندما يكون الفرد تحت الأضواء فإن التراتبية وانعدام المساواة تذهبان وتندنيان.

لقد رأينا أن التقاليد مقابل التغيير والتراتبية مقابل المساواة هما مبدآن رئيسيان يوجهان البوصلة الأخلاقية. ومع ذلك لا يوجد سبب فلسفي يجعل من الأشخاص الذين يفضلون التقاليد أن يقبلوا أيضاً بالتراتبية، أو أولئك الذين يفضلون التغيير أن يرغبوا أيضاً بالمساواة. حسبما أشار جوست وزملاؤه إن الفلسفة لم تكن السبب في تقابل تلك المتضادات، بل إن التاريخ هو من يفعل ذلك. وانحسرت التراتبية بشكل تدريجي في المجتمعات الغربية وذلك منذ بداية عصور التنوير. حيث أفسحت التعديلات الملكية الطريق للديمقراطيين. وكان ذلك من خلال إلغاء العبودية وحصول النساء وذوي البشرة السمراء على الحق في التصويت وأصبحوا - على الأقل - متساويين قانونياً. ولقد رأينا في القرن الواحد والعشرين امتداد المساواة لتشمل بذلك المثليين من الرجال والنساء والأفراد المتحولين جنسياً وغيرهم. ونتيجة لتلك الاتجاهات التاريخية، فإن هياكل السلطة القديمة التي لا تزال باقية مالت إلى أن تكون أكثر تراتبية، بينما تميل هياكل السلطة الجديدة إلى أن تكون أكثر تساوياً وأقل هرمية. لذلك يرجح أن الرغبة في السلطة التقليدية تكون مصحوبة بالرغبة بالتسامح وتقبل انعدام المساواة، بينما الرغبة في التغيير تكون مصحوبة بمستوى عالٍ من المساواة.

هنالك استثناء تاريخي مدهش يُثبت أن وجود الصلة بين تفضيل السلطة التقليدية وبين انعدام المساواة هو أمر غير حتمي. حيث أنه في التسعينيات، قام عالم النفس سام مكفرلاند بدراسة معتقدات الناس في روسيا خلال تسعينيات القرن الماضي. وكان ذلك بعد عقود من الحكم الشيوعي الاستبدادي الذي عزز المساواة الاقتصادية بشكل نسبي، غير أن انهيار الاتحاد السوفيتي أدى إلى

زيادة هائلة في انعدام المساواة. كان ذلك وقتاً مضطرباً ترسخت فيه الأسواق الرأسمالية مع انعدام أو قلة التنظيم وهو الأمر الذي انعدم معه الأمن الاقتصادي للشخص العادي، بينما أصبح عدد قليل من الأفراد المتصلين بالسلطة بشكل قوي يملكون المليارات. قام مكفر لاند وزملاؤه بتقصي آراء الناس حول الظروف الاقتصادية الجديدة التي يعيشونها ومقدار التأييد لأيام الشيوعية القديمة. كما قاموا أيضاً باستقصاء آراء الروس عن مدى تفضيلهم للسلطة التقليدية والاستقرار على التغيير. على عكس أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية، في روسيا كان احترام التقاليد مرتبطاً بشدة بالرغبة في مساواة أكثر. لذلك فإن الحنين إلى نظام الحكم القديم يمكن أن يكون له معانٍ مختلفة تعتمد على طبيعة ذلك النظام.

كنا نتحدث عن الليبراليين والمحافظين وكما لو أنهم كانوا أنواعاً مختلفة عن الناس، وبالطبع إلى حدٍ ما هم كذلك. لكن الأمر الذي يجدر بنا ذكره هو أن تصنيف الناس استناداً إلى ميولهم السياسية هو طريقة أخرى تجعلنا نكوّن صوراً نمطية عنهم أكثر جموداً وتطرفاً من حقيقتهم الفعلية. ونجد أنفسنا، من وقت لآخر، نفكر على غرار «الحزب الآخر»، بينما في حقيقة الأمر نحن جميعاً، من الناحية السياسية، نخترن في داخلنا توجهات متنوعة ومختلفة.

في معظم الأيام التي أكون فيها في العمل أقوم بالمشي على امتداد شارع فرانكلين الرئيسي في تشابل هيل. وفي أي رحلة تقوم بقطعها على امتداد ذلك الشارع سواء لتناول الغداء أو شرب فنجان من القهوة، يمكنك أن تتوقع أن يُطلب منك المال من قبل أحد المتسولين. وقد فوجئت من ردود أفعالي تجاه تلك الطلبات. في بعض الأحيان أعطي القليل من المال؛ وفي أحيان أخرى أكتفي بالاعتذار وأواصل المشي. يزعجني تخبط أفكاري أكثر من تخبط تصرفاتي. في بعض الأيام عندما أسمع عبارة «قليل من فضلات مالك؟» أرفع عيني لأجد شخصاً يواجه مصاعب حالية في حياته. شخص لربما لم تتح له كثير من الفرص كي يبدأ، شخص كل ما يقوم بفعله هو مجرد محاولة التعايش مع حظه السيئ، شخص كل ما يريده هو بعض من المساعدة عندما يكون في أسوأ حالاته. وعلى النقيض تماماً، أحياناً أرفع عيني لأجد شخصاً عديم المسؤولية ومسترخ في الظرف الذي اصطنعه لنفسه، متكيفاً مع حياته على قارعة الطريق ولا يرغب في تغييرها. شخص بمقدوره إيجاد عمل يدرّ عليه بما يلزمه من المال في حال بذل جهده واستيقظ في الصباح الباكر وذهب إلى عمله، كما يفعل تماماً عندما يبذل جهده في مضايقة الآخرين المحيطين به ذهاباً وإياباً إلى عملهم وطلب مالهم. أحياناً تتكون كلتا ردتَي الفعل لدي في غضون ساعة واحدة. السؤال الذي يتوجب علينا طرحه هو: لماذا أحياناً يبدو تقلب إدراكنا للأمور من حولنا كما لو أننا نقول قنوت التلفاز بين بول كراغمان وراش ليمبو؟

يناقش عالما النفس آرون كاي وريتشارد إيباخ بأنّ كلاً منا يحمل معه «أدواته الإيديولوجية» والمخزنة في رأسه، يأخذها معه أينما ذهب. حيث إنّنا نفكر بمعتقداتنا السياسية كما لو أنها مجموعة ثابتة من المبادئ المدعومة بأساس قوي من المنطق والحقائق. إلا أن تلك المعتقدات السياسية في واقع الأمر هي أشبه بمجموعة متنوعة من الأدوات التي تختار منها ما يخدم متطلبات لحظة ما. وأحياناً تتغير توجهات مبادئنا الإيديولوجية بناءً على ما كنا نفكر به مؤخراً. ولو قرأت خبراً عن

جريمة قتل ارتكبتها متشرد في شارع فرانكلين، فمن المرجح بأنني سأفكر تفكيراً سيئاً بأول متسول أراه في ذلك الشارع وذلك ببساطة لأن تلك الأفكار السيئة كانت حاضرة مؤخراً في ذهني. أطلق علماء النفس مصطلح «إمكانية الوصول» على تلك الظاهرة. حيث تعمل عقولنا بشكل مشابه لـ Google: يحتفظ العقل بالأفكار المستعملة مؤخراً ويظهرها في مقدمة محاولتنا في البحث والتفكير والاستقصاء عن الأمور من حولنا وذلك حتى نتمكن من الوصول إلى تلك الأفكار بسهولة في أي لحظة. لا تتبع ظاهرة «إمكانية الوصول» القواعد المنطقية. حيث أنني إذا عرضت عليك كلمة «المحيط» و «القمر»، ثم بعدها طلبت منك أن تسمي لي مسحوقاً للغسيل، فمن المرجح بأن تذكر لي مسحوق « Tide » ولا يهم إن كان منظف الغسيل ليس له علاقة منطقية بالمحيطات والأقمار أم لا. إن استعراضك مؤخراً لشبكة من الأفكار المترابطة من شأنه أن يجعلك تسافر إلى المستقبل عبر تلك الأفكار.

السبب الثاني الذي يجعل حديثنا الداخلي مع أنفسنا قابلاً للتبديل بين الليبراليين والمحافظين هو أننا لا نقوم بإتباع الانسجام والترابط المنطقي لأفكارنا بنفس الطريقة التي نعتقد إتباعها. أظهر علماء النفس لارس هول وبيتر جوهانسون وزملاؤهما مدى المرونة التي من الممكن أن تصل إليها آراؤنا السياسية وذلك في دراسة مدهشة أطلقوا عليها اسم «عمى الاختيار». حيث قاموا بتقصي آراء الناخبين في حملة وطنية انتخابية في السويد حول مجموعة من الآراء المثيرة للجدل. تنقسم السويد، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، بقوة بين الحزب الليبرالي والحزب المحافظ. وعلى الرغم من أن كليهما يقعان إلى يسار نظيريهما الأمريكيين، ينقسم المواطنون بالتساوي بين كلا الحزبين، حوالي ١٠٪ منهم فقط لم يقوموا بتحديد توجهاتهم أثناء إجراء تلك الدراسة. تقصى الاستبيان اثنتي عشر قضية خلافية لا يتفق عليها الحزبان- مثل: هل يجب زيادة ضريبة البنزين؟ هل يجب على السويد إعادة تشغيل برنامجها للطاقة النووية؟ وكانت خيارات الإجابة على ذلك الاستبيان هي الموافقة أو عدم الموافقة. كما طلب منهم أيضاً الإعراب عن مدى احتمال تصويتهم لكل حزب ومدى تأكدهم من آرائهم في التصويت ومدى انخراطهم في السياسة.

تم تسليم الاستبيان إلى المشاركين على مسندة أوراق. قد يبدو لك بأن هذه تفاصيل تافهة وذكرها هو أمر غير ضروري، إلا أن تلك المسندة في واقع الأمر هي المفتاح الأساسي لتجربة الباحثين المخادعة. فبينما كان الناخبون يملؤون الاستبيان، كان الباحث يقوم بمراقبتهم ونسخ إجاباتهم بشكل سري على ورقة استبيان مطابقة تماماً، ما عدا تفصيل صغير وهو أنه عكس نصف إجاباتهم. وعندما ينتهي المشارك من تعبئة الاستبيان يسلمه للباحث الذي يسجل بعض الملاحظات على دفتر ثم يقوم بإرجاع مسند الأوراق بعد إن يقوم بتبديل الاستبيان بيد سحرية إلى المشارك. في حالة الضبط كان يُسلم الاستبيان الأصلي إلى المشارك. بعض الباحثين في تلك الدراسة لم يقوموا بتبديل استبيانات الناخبين.

بعد ذلك طُلب من الناخبين أن يشرحوا الأسباب التي دفعتهم لاختيار إجاباتهم. وخلال ذلك النقاش سئلوا عما إذا كانوا يرغبون بتغيير أو تعديل شيء من إجاباتهم قبل أن يقوموا بشرح الأسباب الدافعة لاختياراتهم. الأمر المدهش الذي حصل هو أن ٤٧٪ من الأشخاص الذين استلموا

الاستبيانات المخالفة لإجاباتهم لم يلاحظوا أي تغيير على الإطلاق. أما الـ ٥٣٪ الآخرين فمعظمهم لم يلاحظوا سوى تغير واحد أو اثنين فقط. ومن بين جميع الناخبين المشاركين في ذلك الاستبيان، هناك شخص واحد فقط شك بأن الباحث قام بتبديل ورقته. أما بقية الناخبين قالوا بأنهم أساءوا قراءة السؤال وأخطأوا في اختيار الإجابة التي يرغبوها. وعندما تمت مناقشة الناخبين الذين لم يلاحظوا التغير الذي حصل في إجاباتهم عن الأسباب التي دفعتهم لتلك الإجابات، فإنهم قاموا بشرح وإعطاء أسباب منطقية لتلك الإجابات المخالفة لآرائهم الأصلية.

كانت هذه واحدة من الدراسات التي من المستحيل أن تتمنى بأن تضع نفسك مكان المشاركين فيها، حيث إننا وبكل بساطة لا يمكننا تخيل أنفسنا نقوم بشرح لماذا يجب تخفيض الضرائب في حين أننا قلنا للتو بأنها يجب أن ترتفع، أو العكس. من المؤكد بأننا لن نفع أبداً بتلك الأنواع من الخدع، إلا أن تقريباً نصف المشاركين بالدراسة انخدعوا بالفعل. هل كل ما حدث هو أن أولئك الناخبين كانوا مهذبين فحسب ولم يريدوا نسب الخطأ إلى الباحث؟ إذا كان الأمر فعلاً كذلك، فإن تقبل الآراء المخالفة كآرائهم من المفترض أن لا يكون لها أي تأثير على آراء ومعتقدات الناخب الحقيقية. ولاختبار هذه الفكرة، قام الباحثون بالطلب من المشاركين في نهاية تلك الدراسة بأن يعبروا، مرة أخرى، عن مدى احتمال تصويتهم لأحد الحزبين في الانتخابات القادمة. في الحالة التي لم يقم بها الباحثون بتبديل استبيانات الناخبين، فإن إجاباتهم الأخيرة تطابقت مع إجاباتهم في بداية الاستبيان. أما الناخبون الذين استبدلت استبياناتهم بأخرى تتضمن آراء مخالفة لآرائهم، فإن نواياهم الانتخابية تحولت بشكل ملحوظ باتجاه الإجابات المعكوسة في الاستبيان.

إنه لمن الغريب أن تلك التحولات بالنسبة للناخبين الذين أعربوا عن يقينهم التام في اختيارات تصويتهم، كانت قوية تماماً بمقدار قوة تحول آراء الناخبين الذين كانوا أكثر تردداً في اختيارات تصويتهم. كانت تلك التحولات في الآراء هي نفسها سواء أكان المشاركون منخرطين في السياسة أم لا، ليبراليين أم محافظين، رجالاً أم نساءً، كباراً أم صغاراً. جميعها تحولات متكافئة القوة. وعلى الرغم من أن تلك النتيجة كانت لافتة للنظر إلا أنها ليست بالأمر الشاذ وغير المتوقع. حيث قام فريق هال وجوهانسون بإعادة نفس الحيلة المطبقة في تلك التجربة لدراسة مدى قابلية تغير الآراء المتمحورة حول المبادئ الأخلاقية ومدى الانجذاب إلى الصور الفوتوغرافية وطعم الشاي والمربي.

وفي كل مرة، فشلت نسبة كبيرة، بين ٥٠٪ و ٨٠٪، في ملاحظة التبديل، حيث استمر المشاركون بإعطاء الأسباب المنطقية والمقبولة ظاهرياً لخيارات لم يقوموا بها.

يُفاجأ المشاركون من سلوكهم ويدخلون في حالة من الارتباك عندما يقوم الباحثون بالكشف لهم في نهاية تلك الدراسات عن حقيقة خدعة تلك الاستبيانات والتبديل الحاصل لها. حيث تحولت المعتقدات التي آمنوا وتمسكوا بها بقوة إلى مجرد قطع من يستخدمونها أو يضعونها جانباً حسب الحاجة. لا تقوم هذه الدراسات على إثبات افتقار الناس إلى المعتقدات السياسية، تقوم بذلك في بعض الحالات الأقل، بل إنها تشير إلى أن الأسباب التي نفصح عنها لتوضيح قراراتنا ليست في الواقع الأساس الحقيقي لتلك القرارات. تقوم تلك الدراسات بإلقاء ظلال الشك على ما إذا كانت مبادئنا السياسية هي بالفعل حجر الأساس لآرائنا التي نعتقد بأننا نؤمن بها. إن مبادئنا، في أحسن الأحوال،

ما هي إلا بعض مصادر المعلومات التي تُشكّل معتقداتنا السياسية في أية لحظة.

إنه لمن النادر، طبعاً، أن تتضمن حياتنا اليومية علماء نفس مكرّين يتأمرون على تغيير آرائنا السياسية، إنَّ إعادة توجيه اهتمام الناس إلى جوانب مختلفة في حياتهم الخاصة هو ببساطة أمر كفيل بإحداث ذلك التغيير. في إحدى الدراسات أجرى عالم النفس كريستوفر برايان وزملاؤه استبياناً لآراء طلاب المرحلة الجامعية في جامعة ستانفورد حول آرائهم السياسية في موضوعات عديدة، مثل التأمين الصحي الشامل، والضريبة الثابتة، واستحقاقات البطالة والرعاية الاجتماعية، وعقوبة الإعدام، وغيرها من القضايا التي لا يتفق عليها المحافظون والليبراليون. وقبل أن ينتهي الطلاب من إكمال الاستبيان، طلب منهم أن يقضوا عشرة دقائق في كتابة قصة وصولهم إلى جامعة ستانفورد. طلب من نصفهم بأن تتضمن قصتهم دور «العمل الشاق والانضباط الذاتي وحكمة القرارات» في وصولهم إلى الجامعة، بينما طلب من النصف الآخر أن تتضمن قصتهم دور «الحظ والفرصة والمساعدة من الآخرين». يتطلب الحصول على قبول للدراسة في جامعة نخبة مثل جامعة ستانفورد كلاً من الجدارة والحظ الجيد، لذا كان لكل من الفريقين الكثير مما يكتبان عنه.

وكما يبدو، أدى هذا التوجيه الصغير لاهتمام الطلاب في نهاية الاستبيان إلى اختلافات جوهرية في الآراء السياسية. حيث أن المجموعة التي طلب منها التركيز على جانب الجدارة والاستحقاق الفردي أعربت عن آراء متحفظة أكثر من المجموعة التي طلب منها التركيز على حظها الجيد. بغض النظر عن عقائدهم الفكرية التي دخلوا بها، فأن مجرد التفكير بدور الجدارة والاستحقاق الفردي أو الحظ في حياتهم الخاصة من شأنه أن يؤثر على آرائهم السياسية، ولو لفترة قصيرة من الزمن.

إن من شأن العاطفة أن تكون أقوى بكثير من الأفكار. عدّ بذاكرتك إلى أول مرة سمعت فيها عن الطائرات التي اصطدمت ببرجي التجارة العالميين في ١١ سبتمبر ٢٠١١. معظم الأمريكيين (وغير الأميركيين) يتذكرون تماماً أين كانوا في تلك اللحظة وماذا كانوا يفعلون حينها. بالنسبة لي، في تلك اللحظة كنت أتحدث مع صديق قديم لي في مناهاتن كان قد اتصل بي ليخبرني بأنه بخير. استيقظت مذعوراً قبل موعد استيقاظي المعتاد، أدركت التلفاز على قناة سي أن أن الأمريكية الإخبارية لأشاهد الطائرة الثانية ترتطم بالبرج. اندمجت في ذاكرتي ضبابية الاستيقاظ مع الارتباك وشعور الفوضى التي رافقت ذلك الحدث. كانت الصور في مخيلتي عن برجين أبيضين يحترقان في سماء زرقاء ساطعة يقطعها تساؤلي عما إذا كنتُ أحلم بشيء لا يمكن حدوثه على الإطلاق.

في الأيام التي تلت ذلك الهجوم الإرهابي، ارتفع معدل التأييد لجورج دبليو بوش من ٥١ بالمائة إلى ٩٠ بالمائة وكانت تلك أعلى نسبة تأييد في الرئاسة الأمريكية على مر التاريخ. قام الأمريكيون الذين كانوا معارضين لجورج دبليو بوش في تاريخ ١٠ سبتمبر بتغيير آرائهم بين عشية وضحاها. لم تكن هجمات ١١ سبتمبر هي أول تهديد خارجي تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تعرضت أمريكا إلى هجمات مشابهة ولكن تم تسليط الضوء عليها بشكل أقل وتم توثيق «تأثير التكاثف والتجمع حول العلم»⁽¹²⁾. لأحداث أخرى، مثل: قصف بيرل هاربور وأزمة الرهائن في إيران. وعلى أية حال فإن التاريخ يظهر لنا استفادة الإدارات ذات التوجه المحافظ من هذا النوع من

التأثير أكثر من الإدارات ذات التوجه الليبرالي. إذا كان (Jost) مصيباً في أن الناس يتبنون التوجهات السياسية المحافظة كردة فعل منهم على التهديدات الموجهة للنظام الاجتماعي، فلا بد من وجود رابط محدد بين هذه التهديدات وبين دعم الأفكار المحافظة.

في واقع الأمر، هنالك العديد من الدراسات التي أُجريت عبر عقود من الزمن تدعم ذلك الرابط. والكثير منها تدرس العلاقة بين شخصيات الناس وبين آرائهم السياسية. وفي دراسة تلو الدراسة، كان المشاركون الذين يرون العالم على أنه مكان خطير ويحتوي على الكثير من التهديدات، يميلون إلى الآراء السياسية المتحفظة. أما أولئك الذين ينظرون إلى العالم على أنه مكان آمن يشجعهم ويحفزهم على الاستكشاف وتجربة الأشياء الجديدة، فإنهم يميلون إلى دعم الآراء السياسية الليبرالية. ومن المؤكد أن تلك الروابط تركت الباب مفتوحاً لسؤال السبب والنتيجة. هل تقوم تلك النزعات العاطفية بتهيئة الناس لتوجهات سياسية معينة؟ أو هل تؤدي طريقة تفكير الليبراليين وطريقة تفكير المحافظين بالناس إلى توجهات عاطفية مختلفة؟ أو أن كليهما مجرد انعكاس لبعض العوامل الأخرى المسببة لكليهما؟

بدأت العديد من التجارب بفصل العلاقة الخاصة ما بين العواطف والمعتقدات السياسية. ففي إحدى الدراسات قام عالما النفس آلان لامبرت ولورا شيرر وزملاؤهما بعرض فيلم وثائقي يتناول أحداث هجمات ١١ سبتمبر على مجموعة من المشاركين بغرض بالخوف والتهديد. بينما طلبوا من المجموعة الأخرى بأن يقوموا ببساطة بحل لعبة الكلمات المتقاطعة. أعربت مجموعة أحداث ١١ سبتمبر عن تأييد أكبر للرئيس بوش ومواقف أكثر تأييداً وتشدداً للحرب على العراق، كما أعربت أيضاً عن إعجابها الشديد بالرموز الوطنية مثل العلم الأمريكي وتمثال الحرية. قام عالم النفس مارك لاندאו وزملاؤه بإجراء دراسة طلب فيها من المشاركين أن يتخيلوا بوضوح كيف سيكون الموت. حيث طلب منهم بأن يصفوا شعورهم بالنقصيل وتخيل ماذا سيحدث لأجسادهم بعد الموت. ومقارنة بمجموعة أخرى، كانت مجموعة الموت تلك هي الأكثر دعماً وتأييداً للرئيس جورج دبليو بوش ضد جون كيري، منافسه في الانتخابات الأمريكية لعام ٢٠٠٤م.

تؤدي الدراسات الميدانية إلى النتيجة ذاتها التي توصلت إليها الدراسات الاختبارية. تعتبر السنوات التي لحقت بهجمات ١١ سبتمبر سنوات مليئة بالقلق بالنسبة للأميركيين. حيث قدمت وزارة الأمن القومي المُشكلة حديثاً نظاماً استشارياً متكاملًا لمكافحة الإرهاب، مزوداً بدليل ملون يهدف إلى تنبيه المواطنين عما إذا كان خطر الهجمة الإرهابية خطراً منخفضاً (اللون الأخضر)، أو خطراً مرتفعاً (اللون الأصفر)، أو خطراً عالياً (اللون البرتقالي) أو خطراً شديداً (اللون الأحمر). قام عالم الاجتماع روب ويلر بتحليل معدلات التأييد الرئاسي بين عامي ٢٠٠١ م و ٢٠٠٤ م، وكانت نتيجة تحليلاته أنه كلما ارتفع خطر الإرهاب كلما ارتفعت معه نسبة التأييد للرئيس جورج دبليو بوش. وأيضاً في الجهة المقابلة، كلما انخفض خطر الإرهاب كلما انخفضت معه نسبة التأييد للرئيس. حيث يمكننا القول بأن الارتفاع والانخفاض في نسبة التهديدات من يوم لآخر تعمل على انقسام توجهاتنا السياسية إلى نصفين.

عادة ما نتحدث عن المحافظين والليبراليين وليس عن اللحظات المحافظة واللحظات الليبرالية،

إلا أن الحقيقة هي أننا نواجه كليهما. حيث إننا نقوم أحياناً بالتفكير المنطقي حول قضية متعلقة بمبادئنا لنكتشف لاحقاً بأنها مشكلة تتعلق بآرائنا السياسية وليس بمبادئنا. وأحياناً أخرى نقوم بأخذ أدلة من مواقف معينة لنبحث لها عن توجهات وآراء تناسبها. عندما تكون أفعالنا انعكاساً لمنهجنا السياسي الذي ننتمي إليه، فإنه لمن الصعب جداً التفريق بين المنهجين.

إن دور الثراء والفقر وانعدام المساواة كان أحد أكثر المواضيع إزعاجاً في الذاكرة الحديثة من بين كل الدلالات التي تدفع بنا يمنة ويسرة. حيث تحتوي ثقافتنا على العديد من الروايات المتعارضة التي تتناول كيف يختلف الأشخاص الذين يملكون المال والذين لا يملكونه في آرائهم وتوجهاتهم السياسية، أشخاص لهم حياة مختلفة تماماً عن بعضهم البعض.

كان إيرل يجني لقمة عيشه كسائق للشاحنات، حيث يقضي معظم يومه في مشاوير نقل الجرافات الأمامية والحفارات من مدينة مورفيسبرو إلى مدينة فورت واين. وعندما ينتهي عمله ويعود إلى منزله مساءً فإنه يحب أن يشرب علبة من البيرة أثناء مشاهدته للأخبار المحلية. أما في عطلة نهاية الأسبوع، فيحب أن يقضيها في مشاهدة سباقات السيارات الأمريكية، المعروفة باسم سباقات ناسكار. وعندما يفوته واحد من تلك السباقات فإنه يفتح الجريدة التي لا تزال تصله نسخها ليقرأ ويعرف من هم السائقون الفائزون في ذلك السباق. وسوى ذلك ليس لدى إيرل أية هوايات واهتمامات أخرى. عندما كبر أصغر أبنائه وترك المنزل، فكر إيرل بأن يباشر أعمال البستنة إلا أنه أصبح مشغولاً أكثر وأكثر بالعمل على مسكنه المقطور القديم في عطلات نهاية الأسبوع. لدى إيرل في مقطورة الـ كنوورث المركونة بالخارج من المال أكثر بكثير من المال الموجود في منزله. ونادراً ما قام إيرل باستخدام مقصورة النوم الموجودة في تلك الشاحنة، إلا أنها تعتبر خياراً ممتازاً في حال ساءت أحوال سقف منزله الحالي.

شرع ديفيد للمرة الثالثة في تنسيق حديقة منزله لهذه السنة، حيث أن المرة الأولى لم تكن بالمستوى المطلوب، بينما قطعت جزاة العشب رشاشات الماء في المرة الثانية. الآن، وأخيراً، بدأ عشب حديقته يأخذ شكله ليتناسب مع منزله الذي تم بناؤه حديثاً. يحب ديفيد دائماً أن يخبر الناس بأنه هو من قام بتصميم حديقته، إلا أن ما يعنيه بالفعل هو أنه قام مع زوجته، أندريا، باختيار اللمسات النهائية لحديقته من صفحات مجلة مقاول البناء. قام ديفيد وأندريا بادخار المال لمدة خمس سنوات وأرادا لمنزلهما أن يكون مثالياً. إذ يحتوي على أربع غرف نوم ومكتب، وذلك لأنهما يعملان كثيراً في المنزل في فترة المساء. كما أن هناك غرفة إضافية مخصصة للياقة البدنية، تكون فيها حصائر رياضة اليوغا والأثقال الحرة جاهزة للاستخدام دائماً.

لكن أكثر ما يجعلهما يشعران بالفخر هو تلك الشرفة الزجاجية التي يحتسيان عندها كل صباح كوب من القهوة المصنوعة بآلة صنع القهوة الحديثة الخاصة بديفيد التي تزود بالماء بواسطة أنابيب زجاجية دقيقة لتبدو كأنها مجموعة أدوات تجارب علماء القرن التاسع عشر. وأثناء احتساؤهما القهوة، يقرأ ديفيد الأخبار على هاتفه بينما تستمع أندريا إلى إذاعة NPR. أما مؤخراً فإنهما يتداولان في كيفية استثمار مالهما بشكل أفضل وذلك بهدف تأمين فترة تقاعدهما.

إنه لأمر مدهش كيف يمكن لتفاصيل صغيرة من حياة الناس بأن تخبرنا الكثير عنهم. بعد تلك اللحظات البسيطة عن حياة إيرل وديفيد، هل تشعر بأنك تعرف عن حياتهما أكثر من مجرد ما تم ذكره؟ مثل: مَنْ مِنَ المرحح منهم بأن يخرج لتناول السوشي؟ من الذي يتواصل مع أفراد عائلته بواسطة الصراخ عبر أرجاء المنزل، ومن الذي يذهب إلى الغرفة المجاورة ويتحدث بهدوء؟ من هو الذي يقضي شهوراً في حيرة من أمره إلى أي مدرسة يرسل أبناءه؟

هل ستكون مندهشاً إذا علمت أن إيرل عُمدَ كمسيحي وأنه يعارض الزواج المثلي، بينما يرى ديفيد بأن المثليين يجب أن يسمح لهم بالزواج؟ قد لا تتفاجأ أيضاً عندما تكتشف بأن ديفيد يدعم قوانين تقييد الملكية الخاصة للأسلحة، بينما يدعم إيرل الجمعية الوطنية للسلاح. أو أن إيرل يفضل «الحكومة الصغيرة» ويؤمن باقتطاع ضرائب الدخل.

أنت بالطبع تعرف الإجابات على تلك الأسئلة، حيث أنها جُهزت مسبقاً بواسطة الصور النمطية المفصلة بدقة والمخزنة في رؤوسنا للمحافظين والليبراليين. يمكننا أن نتصور المحافظين وهم يقومون بحشو عائلتهم داخل شاحنة صغيرة متوجهين بها إلى الكنيسة على أنغام الأغاني الريفية. بينما نقوم بتخيل الليبراليين وهم عائدون من سوق المزارعين، حريصين على أن لا يفسدوا الطماطم في طريق عودتهم إلى المنزل مستخدمين سيارة بريوس وسيلة لتقلهم، ويستمعون إلى المؤلف والفكاهي الأمريكي ديفيد سيداريس. ويمكنك حتى التمييز بين آرائهم وتوجهاتهم وذلك من خلال نمط استهلاك يتبعه كل منهم؛ حيث يقود الليبراليون سيارات الليكزس والاند روفر بينما يفضل المحافظون قيادة سيارات البونتيك والبويك، يشرب الليبراليون بيرة سام آدمز لايت بينما يفضل المحافظون شرب بيرة بدوايزر. يأكل الليبراليون سلطة الكرنب في مطعم بانيرا، بينما يفضل المحافظون أكل شرائح الدجاج المقلي في مطعم كراكر بارل.

يبدو أن هذا الانقسام بين النخبة الليبرالية والطبقة العاملة من المحافظين انعكس على أنماط تصويت كل منهم. فعلى سبيل المثال: من تعتقد أنه من المرجح أن يكون قد قام بالتصويت لباراك أوباما، ديفيد أم إيرل؟ يشكل هذا الانقسام بين النخبة الليبرالية والطبقة العاملة من المحافظين لغزاً يصعب حله. وبحسب ما ناقشه العديد من الكتّاب، يبدو أن الناس يقومون بالتصويت ضد مصالحهم الشخصية، حيث يقوم المحافظون الأقل ثراءً بالتصويت للقادة الذين يشجعون على قطع الضرائب وهو الأمر الذي من شأنه أن يعود بالفائدة العظيمة للأثرياء في حين أن الفوائد المقطوعة التي تحصل عليها الحكومة هي لمساعدة الفقراء. أحد تفسيرات هذا التناقض، حسب ما تم ذكره في الكتاب الأكثر مبيعاً «ما مشكلة ولاية كانساس؟» للكاتب توماس فرانك، على أن هنالك عدداً كبيراً من النخبة الثرية في الحزب الجمهوري خدعت الطبقة العاملة من الأمريكيين للتصويت للسياسات التي تدعم الأغنياء وذلك من خلال إثارة مخاوفهم من «الله والأسلحة والمثليين». وبحسب ما تقول النظرية، فإن تلك القضايا الثقافية تثير غضباً عارماً يدفع بالناس للتصويت لصالح سياسات اقتصادية لا تعود عليهم بالنفع.

وجهة النظر هذه لخصها الموقع الإخباري الساخر «The Onion» بعد إعادة انتخاب جورج دبليو بوش، في مقالة عنوانها «الفقراء يفوزون بالانتخابات لصالح الأغنياء»:

«يود الحزب الجمهوري- حزب الرأسماليين الصناعيين الكبار وممولي الأعمال وصُنّاع القرار والنخب المالية- بأن يتقدم بالشكر الجزيل لفقراء الريف غير المتعلمين وللعمّال المكافحين في الوسط الأميركي وللأقليات المحتاجة التي تخشى الله، على تصويتهم لعودة جورج دبليو بوش إلى كرسي الرئاسة، « وكما صرح كبير مستشاري جورج دبليو بوش كارل روف للصحافيين في مؤتمر يوم الاثنين الصحفي، قائلاً : «لقد ضحيتم برفاهيتكم و قمتم بالتصويت لما يخالف مصالحكم الاقتصادية، لهذا السبب وبكل تواضع نحن نقوم بشكركم» وأضاف قائلاً: «لقد قمتم بأكثر من الواجب، أو، في هذا المقام، بكل شعور بالمسؤولية.»

المشكلة هي أن كل هذا التصريح هو تصريح خاطئ جملة وتفصيلاً، وليس فقط خاطئاً بل إنه معكوس الحقائق بالكامل. حقيقة أن الفقراء لا يصوتون إلا للحزب الجمهوري وأن الأغنياء لا يصوتون إلا للحزب الديمقراطي هو أمر غير صحيح، بل إنه أمر بعيد عن ذلك تماماً. الحقيقة هي أنه كلما زاد الدخل المالي للفرد كلما زادت معه نسبة تصويته للحزب الجمهوري. حيث أن الثلث الأغنى من السكان هم الأكثر تصويماً للحزب الجمهوري من الثلث الأوسط والذي هو أيضاً أكثر تصويماً للحزب الجمهوري من الثلث الأدنى.

قام العالم السياسي أندرو غيلمان بتوثيق هذه الاتجاهات مستخدماً بذلك بيانات الدراسات الانتخابية الوطنية واستطلاع انتخابات انبرغ الوطني(13). وأيضاً من جموع الناخبين على مستوى الولاية والأمة. أجريت هذه الاستطلاعات باستخدام طرق شديدة الدقة وذلك لضمان تمثيلها للشعب الأمريكي، وجميع تلك الاستطلاعات تقول الأمر ذاته. على الرغم من عدم وجود أي تشابه في مستوى الدخل المالي للمجموعات المشاركة في الاستطلاع، إلا أن الاتجاهات كانت واضحة: كلما كنت أكثر ثراءً، كلما أصبحت تطلق على نفسك بأنك جمهوري وتصوت للحزب الجمهوري. وكلما كنت أكثر فقراً، كلما أصبحت تطلق على نفسك بأنك ديمقراطي وتصوت للحزب الديمقراطي.



الخريطة الانتخابية للانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٤. تشير الولايات الغامقة اللون إلى فوز الجمهوريين، بينما تشير الولايات الفاتحة اللون إلى فوز الديمقراطيين. (مقتبس من جليمان (٢٠٠٠))

انظر إلى الخريطة الانتخابية - المبينة في الشكل ٤.٢- للانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤ م. صوتت الولايات المظلمة باللون الغامق لصالح جورج دبليو بوش، بينما صوتت الولايات المظلمة

باللون الفاتح لصالح جون كيري. هذا الشكل التوضيحي هو أحد مصادر الصور الخاطئة عن الناخبين الأغنياء والناخبين الفقراء. يشير العالم السياسي أندرو غيلمان بأن رؤيتنا وتعميم حكمنا على الولايات الساحلية الغنية مثل نيويورك وكاليفورنيا على أنها عبارة عن مجتمع لليبراليين «الذين يحتسون القهوة الساخنة»، ورؤيتنا وتعميم حكمنا على الولايات الفقيرة الواقعة في الوسط على أنها مجتمع للمحافظين الفقراء الملتزمين بالدين هو أمر خاطئ وغير صحيح وذلك لأنه يتجاهل الدخل المالي لأفراد تلك الولايات. حيث أننا إذا قمنا بإحصاء الناخبين استناداً إلى مدخلهم المالي فإننا سنرى صورة مختلفة تماماً.



كيف سيبدو مظهر الخريطة الانتخابية للانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٤ إذا قمنا فقط بحساب أصوات الفقراء (في الأعلى) و الأغنياء (في الأسفل). تشير الولايات الغامقة اللون إلى فوز الحزب الجمهوري، بينما تشير الولايات الفاتحة اللون إلى فوز الحزب الديمقراطي. مقتبس من جليمان (٢٠٠٦)

يظهر الشكل ٤.٣ نفس الخريطة الانتخابية للانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٤م، والمُعاد رسمها استناداً إلى الدخل المالي للناخبين. تظهر الصورة العلوية ماذا سيكون شكل الخريطة الانتخابية إذا قمنا بحساب أصوات الفقراء فقط- الأغلبية الساحقة من الأصوات للحزب الديمقراطي.

أما الصورة الثانية فإنها تظهر ماذا سيكون شكل الخريطة الانتخابية إذا قمنا بحساب أصوات الأغنياء فقط- الأغلبية الساحقة من الأصوات للحزب الجمهوري. يؤثر المال تأثيراً معاكساً للصورة النمطية الأمريكية للمُنتميين للحزب الديمقراطي والمُنتميين للحزب الجمهوري.

ماذا عن الاختلاف في الأنواق والطراز بين الليبراليين والمحافظين؟ أمضى مُعلنو الحملات

السياسية وقتاً طويلاً في تجميع المعلومات المتعلقة بأذواق الناخبين، كل حزب على حدة. حيث تبين أن سيارات ليكسز ولاندروفر هما أكثر السيارات تفضيلاً واستخداماً من قبل المُنتَمنين للحزب الجمهوري. فعلى سبيل المثال: يفضل مالكو الحزب الجمهوري سيارات لاندروفر بنقاط أكثر من الحزب الديمقراطي بحوالي ٣٠ بالمائة. وفي الجهة المقابلة، فإن مالكي سيارات البونتياك وسيارات البويك يميلون بالعادة لأن يكونوا منتمين للحزب الديمقراطي، أما سيارات شيفي وفورد وفولفو فينقسم استخدامها بالتساوي بين الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي.

تعتبر الصورة النمطية لتفضيلات طعام المُنتَمنين لكلا الحزبين صورة نمطية خاطئة أيضاً. حيث يجذب الجمهوريون إلى مطعمي بانيرا وكرارك بارل أكثر من الديمقراطيين. أما الديمقراطيون فأنهم يفضلون كما يبدو مطعم غولدن كورال ودانكن دوناتس. حتى صورنا النمطية لما يفضلونه من البيرة هي صور نمطية خاطئة. فعلى خلاف ما هو شائع، فإن الجمهوريين يفضلون بيرة سام آدمز بينما يفضل الديمقراطيون بيرة بدوايزر. أما الليبراليون من محتسي القهوة الصباحية والشرء من سوق المزارعين فسيصابون بالذعر عندما يكتشفون بأن البيرة المفضلة لدى الديمقراطيين هي بيرة ميلووكيز بَسْت. وأن أكثر بيرة مفضلة لدى الجمهوريين على الإطلاق ليست أمريكية الصنع، بل هي بيرة أمستل لايت المستوردة من ألمانيا.

يعتبر تكوين صور نمطية لما يستهلكه الناس استناداً إلى توجهاتهم السياسية أمراً ليس خاطئاً على الدوام. حيث أن الديموقراطيين هم فعلاً من يشترون معظم سيارات بريوس، والجمهوريين هم أكثر من يشاهد الأخبار المحلية الأمريكية على قناة فوكس نيوز. لكن أساليب التعبير عن الذوق هذه متعلقة بشكل مباشر بالآراء السياسية لأعضاء كلا الحزبين. حيث يقوم الناس باختيار السيارات الهجينة وذلك لأنهم يهتمون بالتغيير المناخي، بينما يقوم الآخرون بمتابعة الأخبار المحلية على قناة نيوز فوكس وذلك لأنها تقدم آراء الجناح اليميني التي يريدون سماعها. الأمر الجدير بالذكر هو أنه كلما ابتعدنا عن القضايا السياسية، كلما ضعفت صور الليبراليين والمحافظين لتصبح صوراً نمطية فارغة المحتوى وهو الأمر الذي من شأنه أن يتسبب في تضليلنا.

على الرغم من غرابة كل ذلك على الأشخاص الذين اعتادوا على المفاهيم القياسية للخبز الليبرالية و«ملح الأرض» المحافظين، إلا أن الأنماط التي حددها العالم السياسي أندرو غيلمان هي أنماط منطقية تماماً للاقتصاديين وعلماء السياسة. كل اقتصاد رأسمالي في هذا العالم له حصة من أرباح سوق المنافسة الحرة وأيضاً حصة من ضبط رسوم السوق والضرائب. تلك الحصص من الأرباح هي حصص دائمة ولا يوجد أي مفكر جاد من الحزب المحافظ أو الحزب الليبرالي يعتقد بأنه يمكن التخلص من أي من تلك الحصص بشكل كامل. يصل معدل ارتفاع الضرائب إلى ما يقارب الـ ١٠٠ بالمائة وهو الأمر الذي يعتبر إخماداً تاماً للتحفيز والابتكار. يُنظر إلى انهيار الأنظمة الشيوعية في القرن العشرين على أنه دليل على المستويات المتطرفة للتنظيم الحكومي وفرض الضرائب الأمر الذي يمنعها من المنافسة مع اقتصادات السوق الحرة. وفي الجهة المقابلة لذلك التطرف، فإن انعدام وجود التنظيم في أي سوق سيؤدي إلى سرعة ظهور الاحتكارات في ذلك السوق وهو الأمر الذي من شأنه أن يمنع المنافسة الإيجابية في السوق. أما تقليص الضرائب

فسيؤدي إلى تدهور أوضاع الشوارع والطرق وغيرها من البنى التحتية، كما أنه سيؤدي أيضاً إلى تدهور أوضاع الدفاع العسكري.

في عالمنا الواقعي تقع اقتصادات السوق في المنتصف بين تلك المتناقضات. حيث أن لكل دولة رأسمالية شكلاً من أشكال التنظيم وفرض الضرائب وشبكة أمان لمن هم في قاع ذلك الاقتصاد. تتمحور معظم النقاشات الاقتصادية بين الليبراليين والمحافظين حول محاولة الدفع بإحدى تلك المتناقضات على حساب الأخرى. حيث تسعى السياسات المحافظة إلى تعزيز السوق الحرة بينما تسعى السياسات الليبرالية إلى ضرائب أكثر بهدف دعم برامج مشروعات البنية التحتية المشتركة وبرامج شبكات الأمان.

تجادل علماء الاقتصاد لعقود من الزمن حول موضوع مفاده أن الخيارات السياسية العقلانية (العقلانية بمعنى المصلحة الذاتية ضيقة التعريف) تعتمد على مقدار ما لديك من المال. وعندما يتعلق الأمر بمسائل مثل البنية التحتية المشتركة مثل الطرق والدفاع العسكري، فإن تلك المسائل يستفيد منها الجميع بنفس القدر. لكن برامج شبكة الأمان تعمل على مساعدة الفقراء أكثر من الأغنياء. لذا فإنه كلما زاد المال الذي تجنيه، فمن المنطقي أكثر أن تؤيد الضرائب المنخفضة، والتوزيع الأقل للثروة. وعلى النقيض من ذلك، كلما قل المال الذي تجنيه كلما زادت معه الأسباب التي تجعلك تؤيد دفع ضرائب أعلى وإعادة توزيع الثروة. وضمن ذلك الإطار، يبدو أن الناس يتوافقون مع تصور علماء الاقتصاد لعوامل حسابية ومنطقية باتخاذ قرارات مبنية على مصلحتهم الاقتصادية الشخصية.

يظهر الناس على أنهم يتكيفون مع ذلك النموذج، بدقة أكثر، إلى أن تقيّم فهم الناس لما هو من صلب اهتماماتهم الذاتية. في إحدى الدراسات التي استطلع خلالها الباحثون آراء المستفيدين من الفوائد المتنوعة لبرامج الدعم الحكومي. سئل المشاركون سؤالاً بسيطاً: هل سبق لك الاستفادة من برنامج حكومي اجتماعي؟ وبشكل لافت للنظر، اعتقد تقريباً نصف المشاركين بعدم استفادتهم من أي من البرامج التي تقدمها الحكومة. نفى أربعون بالمائة من الذين يتلقون الرعاية الطبية، على سبيل المثال، حصولهم على أية فوائد من الحكومة في أي وقت مضى. وحصل الباحثون على نفس الإجابة بنسبة تصل إلى سبعة وأربعين من الأشخاص الذين يحصلون على بطاقات العوائد الضريبية. أكثر من نصف المشاركين الذين يحصلون على القروض الطلابية المدعومة حكومياً صرّحوا بأنهم لم يحصلوا على أية فوائد من الحكومة. لم يكذب المشاركون في تلك الدراسة، كل ما حدث أنهم لا يعلمون أن الخدمات المقدمة لهم هي خدمات من الحكومة. فعلى سبيل المثال، الأشخاص الذين تلقوا الرعاية الطبية يعلمون أنهم تلقوا رعاية طبية لكنهم فقط يعتقدون بأنه أمر ليس للحكومة أية علاقة به. تظهر مثل هذه الدراسة بأن الناس ليس لديهم أي فكرة تقريباً بأن البرامج الحكومية هي برامج تصب في مصلحتهم الشخصية.

ربما لا يدرك الناس حجم الفوائد التي تقوم الحكومة بتقديمها، لكن هل يدركون ما إذا كان رفع أو خفض الضرائب هو أمر يعود عليهم بالفائدة؟ تساءل العالم السياسي لارل بارتلز عن مدى معرفة الناس الجيدة بمصلحتهم الخاصة عندما يتعلق الأمر بتخفيض الضرائب. يعتبر أفضل تلخيص

لإجابته هو عنوان المقالة التي كتبها عن نتائج دراساته: «هومر (14) يحصل على خفض للضرائب». درس لارل بارتلز آراء الأمريكيين المتعلقة بقانون خفض الضرائب الذي مررته إدارة جورج دبليو بوش الرئاسية. وعلى الرغم من أن تلك الإجراءات من شأنها أن تسبب خسائر فادحة تقدر بتريليونات الدولارات، لكن عندما سُئل المشاركون في تلك الدراسة عما إذا كانوا موافقين أو معارضين أو لم يسبق لهم التفكير في خفض الضرائب، كانت النتيجة أن ٤٠ بالمائة من المشاركين لم يسبق لهم التفكير بهذه القضية. وعندما طُرحت أسئلة حقيقية عن خفض الضرائب والعواقب المترتبة عليها، فإن معظم الناس لم يعرفوا الإجابات أو أنهم أخطأوا في الإجابة على تلك الأسئلة.

من المؤكد بأن ليس الجميع مدمناً على متابعة الأخبار السياسية. لذلك حاول لارل بارتلز تحديد ما إذا كان للناس معلومات كافية عن خفض الضرائب إن كان لديهم معلومات سياسية بصفة عامة. اشتمل الاستبيان على اختبار من سبعة أسئلة بهدف قياس مدى إلمام المشاركين بالموضوع المطروح. لم تكن الأسئلة بتلك الصعوبة، فعلى سبيل المثال كان أحد الأسئلة عن المنصب الذي شغله ديك تشيني (كان نائب الرئيس في ذلك الوقت)، وأحد الأسئلة من هو توني بلير. على الرغم من أن مستوى الإلمام بالضرائب كان مرتفعاً بين الأشخاص المطلعين على السياسة اطلاعاً جيداً، لكن، وبكل أسف، كان عدد أولئك الأشخاص قليلاً. كانت معظم إجابات المشاركين في ذلك الاستبيان هي إجابات خاطئة، عدد الإجابات الخاطئة يفوق عدد الإجابات الصحيحة. ولو كان ذلك الاستبيان عبارة عن اختبار يُجرى في قاعة دراسية لرسب معظم الأمريكيين.

إذاً، كيف يمكن للمواطن الأمريكي العادي بأن يصوت بطرق تعود عليه بالنفع الاقتصادي؟ أحد الأدلة يأتي من قوة الشعور بالفقر، فكما رأينا في الفصل الأول فإن الشعور بالفقر لا يعتمد فقط على ما تملكه فعلياً من المال بل على ما تملكه مقارنة بالآخرين، وكما رأينا أيضاً في الفصل الثاني فإن بحث غيلمان عن التصويت والدخل يقدم دليلاً آخر عن أهمية المقارنات النسبية. حيث إن ميل الأغنياء للتصويت لصالح الجمهوريين هو ميل قوي في الولايات الفقيرة أكثر من الولايات الغنية، لذلك، إذا كنت شخصاً غنياً وتسكن في ولاية فقيرة مثل ميسيسيبي فإنه من المرجح بأن تصوت للحزب الجمهوري أكثر مما لو كنت تملك الثروة ذاتها ولكن تسكن في مدينة غنية مثل مدينة نيويورك وكونيتيكت. على الرغم من أن سبب ذلك هو أمر غير مفهوم تماماً، إلا أنني أظن أنه يتعلق بأنواع مختلفة من المقارنات النسبية التي يقوم بها الناس في الولايات الفقيرة والولايات الغنية. حيث إنك إذا كنت تجني ٢٠٠٠٠٠ دولار في السنة في مدينة بيلوكسي الفقيرة فستشعر حينها بأنك أغنى بكثير من معظم الناس من حولك. لكن إذا كنت تملك نفس تلك الكمية من المال في مانهاتن الغنية، فستشعر بأنك بالكاد تنتمي للطبقة المتوسطة.

ساورنا الشك، أنا وزملائي، بأن تلك المقارنات الاجتماعية قد تؤثر على طريقة تفكير الناس في القضايا السياسية أكثر من تأثير ثروتهم الفعلية. لقد ركزنا على أنواع السياسات التي يختلف حولها الاقتصاديون على أنها مرتبطة ارتباطاً واضحاً بالمصلحة الاقتصادية الشخصية: الضرائب وإعادة توزيع الدخل. واختبار هذه الفكرة، قمنا بتغيير مقارنات الناس الاجتماعية لنرى ما إذا كان سيلحقها تغييرات في الآراء السياسية. طلبنا من مجموعة من المشاركين بأن يجيبوا على استبيان مطول على

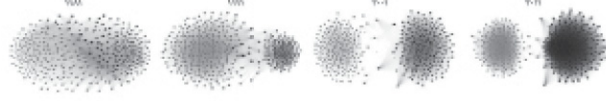
الكمبيوتر، تتمحور أسئلة هذا الاستبيان حول دخلهم المالي وعاداتهم الإنفاقية وأذواقهم الشرائية وصفاتهم الشخصية. بعد ذلك زودهم الكمبيوتر بنتيجة إجاباتهم على ذلك الاستبيان. وعلى الرغم من أن المشاركين اعتقدوا بأن تلك النتيجة استندت إلى إجاباتهم على ذلك الاستبيان، إلا أنه في واقع الأمر تم تعيين تلك النتائج بشكل عشوائي بهدف الحصول على إجابة واحدة من أصل اثنتين. قيل لأفراد المجموعة الأولى بأنهم يملكون مالاً أكثر من الآخرين المشابهين لهم بالديموغرافيا والشخصية. أما المجموعة الثانية فقول لها إنها تمتلك مالاً أقل من أقرانها. وبعد عرض تلك النتائج طرحنا على المشاركين سلسلة من الأسئلة المتعلقة بآرائهم حول القضايا السياسية، بما في ذلك الضرائب وإعادة توزيع الدخل. وكما توقعنا، أعرب المشاركون الذين شعروا بالثراء النسبي عن قلة دعمهم لإعادة توزيع الدخل. بينما عبّر المشاركون الذين شعروا بالفقر النسبي عن قوة دعمهم لإعادة توزيع الدخل. كلتا المجموعتين متساوية في مستوى الدخل المالي والمستوى التعليمي، إلا أن الأمر الوحيد الذي يفصل بينهما هو شعور المشاركين بأنهم أفقر أو أغنى من أقرانهم. كل تلك المقارنات الاجتماعية أدت إلى الاختلاف في المعتقدات والآراء السياسية.

أشارت تلك الدراسة إلى أن المواطنين يصوتون بصفة عامة لما يتناسب مع مصلحتهم الاقتصادية على الرغم من جهلهم أين تكمن تلك المصلحة. تخيل أن أولئك الأشخاص الذين شعروا بأنهم أفضل من المتوسط قاموا بالتصويت لخفض الضرائب وخفض مزايا الرعاية الاجتماعية، بينما أولئك الأشخاص الذين شعروا بأنهم أقل من المتوسط صوتوا من أجل زيادة الضرائب وزيادة مزايا الرعاية الصحية. وبما أن شعور الناس بالمكانة الاجتماعية النسبية هو أمر مرتبط بالدخل المالي (ارتباطاً متواضعاً)، فإن الناس سيكون لهم الحق بأن يلتفتوا مراراً إلى مصلحتهم الشخصية الاقتصادية أكثر من التفاتهم إلى كونهم على خطأ. كانت نتيجة تلك الدراسة هي أن أنماط التصويت والتي تبدو أنماطاً عشوائية عند مستوى الفرد تقارب وسطياً أنماط التصويت للمصلحة الشخصية. مثل تحليق طيور الزرزور، يحدد الملايين من الناس موقعهم ومكان وقوفهم استناداً إلى موقع ومكان الناس المجاورين لهم وهو الأمر الذي من شأنه أن ينتج مجموعة كبيرة تتحرك بدافع هدف ما.

رأينا حتى الآن أن الناس يميلون إلى التصويت للسياسات التي يشعرون بأنها تتوافق مع منافعهم الشخصية سواء كانت تلك السياسات بالفعل في صالحهم أو لم تكن. ورأينا أيضاً أن ما يشعرون به كمنفعة خاصة يستند إلى مقارنة أنفسهم بالآخرين. وبما أن المسافة بين الفقراء والأغنياء تأخذ بالازدياد أكثر وأكثر، فإننا نتوقع أن تزداد آثار المقارنات الاجتماعية لتصبح أكثر وطأة. وبالأخذ بتلك الملاحظتين نستنتج أن الازدياد في انعدام المساواة الحاصل خلال العقود القليلة الماضية من شأنه أن يساهم في زيادة الصراع السياسي وحِدَّة الانتماء الحزبي.

إنه لمن الصعب الهروب من الاستنتاج الذي ينص على أن السياسة في أمريكا أصبحت أكثر قطبية في العقود القليلة الماضية. وهناك الكثير من البيانات والمعلومات التي تدعم ذلك الاستنتاج. قامت عالمة الجيولوجيا كليفو أندريس وزملاؤها باستخدام تقنيات تحليل البيانات الحديثة لرسم خريطة مسافات جغرافية تهدف إلى تحديد وتعيين «المسافات» بين أعضاء كلا الحزبين في مجلس

النواب الأمريكي، بطريقة Roll-Call vote (التصويت بندااء الأسماء). وينادى فيها باسم كل نائب لكل ولاية أمريكية. وبمجرد أن يسمع النائب اسمه يقوم بإعلان نتيجة تصويت مواطني الولاية بأكملها. ترسم المسافات على النحو التالي: عندما يصوت ممثلان بالطريقة نفسها يُقربان من بعضهما البعض على الخريطة. أما عندما يصوتان بطريقة مختلفة يصبحان متباعدين عن بعضهما البعض. وكانت النتائج مذهلة.



تصوير بياني للانقسامات السياسية في مجلس الكونغرس الأمريكي على مرور الوقت. مقتبس من إدريس و آخرون (٢٠١٥)

يوضح الشكل ٤.٤ المسافات بين كل ممثل في الكونغرس الأمريكي خلال الأعوام ١٩٨١ و ١٩٩١ و ٢٠٠١ و ٢٠١١م. في هذا الشكل التوضيحي تم تمثيل كل عضو جمهوري بنقطة سوداء، في حين تم تمثيل كل عضو ديمقراطي بنقطة رمادية. في عام ١٩٨٠ م، كان هنالك الكثير من التداخل، حيث كانت الكثير من النقاط الرمادية في عمق منطقة النقاط السوداء، وفي المقابل كانت الكثير من النقاط السوداء في عمق منطقة النقاط الرمادية والحد بين الاثنين كان دقيقاً جداً ونُفُوداً. يتراجع ذلك التداخل مع مرور كل عقد من الزمن حيث بحلول عام ٢٠١١م، كان أعضاء كلا الحزبين منفصلين تماماً بعضهما عن الآخر وكانت المنطقة التي تفصل بينهما منطقة خالية تماماً من التداخل. تبيّن تلك الرسومات التوضيحية الاستقطاب الذي حصل للنخب السياسية على مدى العقود الأربعة الماضية. هل ساهم انعدام المساواة في إحداث ذلك الانقسام؟

وللإجابة على ذلك السؤال، رجعنا إلى المختبر لإجراء التجربة التي قُدمت فيها أسهم للمشاركين، حيث قرأ المشاركون عن كل شركة طرحت السهم ونسبة الشراء إلى الأرباح المتوقعة وكيف كان أداء السهم خلال الستة أشهر الماضية. وبعد ذلك قاموا باختيار مجموعة الأسهم التي يريدون فيها استثمار بعض رأس المال، الذي زودهم به الباحثون، أخبر المشاركون بأنه ستم محاكاة أداء الأسواق المالية استناداً إلى أداء سوق أسهم حقيقي خلال الستة أشهر الماضية. وأخبروا أيضاً بأنهم سيحتفظون بأية أرباح يَجْنُونَهَا من تلك الاستثمارات. والذي حصل بعد ذلك أن الجميع حققوا ربحاً بنسبة ٣٠ بالمائة من استثماراتهم، ولكن قيل للنصف منهم إنهم حققوا أداء أفضل من ٨٩ بالمائة من المشاركين الآخرين، بينما قيل للنصف الآخر بأنهم حققوا أسوأ من ٨٩ بالمائة من المشاركين الآخرين. وبهذه الطريقة، قمنا بخلق فروقات في الوضع النسبي، دون وجود أي فروقات في الأموال الفعلية المكتسبة.

الجزء المهم في هذه التجربة هو التطورات الحاصلة لها. حيث قيل للمشاركين إن القواعد الحالية لهذه التجربة تم إنشاؤها والتصويت عليها من قبل المشاركين السابقين. وإحدى تلك القواعد تنص على أن أصحاب المردود المالي المرتفع الناتج عن ذلك الاستثمار، سيدفعون ضريبة قدرها ٢٠ بالمائة من تلك الأرباح وستُعطى لأصحاب المردود المالي المنخفض الناتج عن ذلك الاستثمار و

ذلك لسد الخسارة الحاصلة لهم. وبعبارة أخرى، شملت هذه التجربة على سياسة توزيع الدخل. ولمعرفة عما إذا كانت الحالة النسبية سيكون لها دور في تغيير آراء المشاركين حول سياسة توزيع الدخل، طلبنا من المشاركين بأن يقوموا بتغيير أو إنشاء قواعد للتجربة والتصويت عليها للمشاركين المستقبليين. استناداً على تأثير الحالة النسبية، حدث ما هو متوقع فالمجموعة ذات المردود المالي المرتفع صوتت لخفض الضرائب والتقليل من سياسة توزيع الدخل. بينما صوتت المجموعة ذات المردود المالي المنخفض لرفع قيمة الضرائب وتوزيع الدخل بهدف حصول المنفعة للدفعات القادمة من المشاركين.

بعد ذلك قمنا بتزويد المشاركين باقتراحات مشاركين آخرين، وكان أولئك المشاركون إما موافقين معهم على مسألة توزيع الدخل أو معارضين لهم. ثم سألناهم عن آرائهم في أولئك المشاركين، هل هم أكفاء أم غير أكفاء؟ هل كانت آراؤهم مبنية على المبادئ أم على منافعهم الشخصية؟ هل كانوا متبهيين لقواعد التجربة؟ هل كانوا صناع قرار أو مغفلين يفتقدون إلى المنطق؟

حصل ما هو متوقع، حكم المشاركون في التجربة الحالية على غيرهم من المشاركين المخالفين لآرائهم على أنهم أقل كفاءة، وأقل عقلانية وأكثر تحيزاً. حتى عندما نظرنا عن كثب إلى البيانات لاحظنا تفصيلاً مهماً وهو أن المفهوم عن المشاركين الآخرين بأنهم متحيزون وغير منطقيين ساقته المجموعة كلها التي أخبرت بأن أداءها كان أفضل من نظيرتها. ثمة شيء ما يتعلق بشعور التفوق في الأرباح جعل الناس يشعرون أيضاً بتفوق آرائهم على آراء الآخرين.

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن الأشخاص الذين يوافقوننا الرأي هم أشخاص أذكى وذو بصيرة نافذة، بينما الأشخاص الآخرون الذين يخالفوننا الرأي هم أشخاص يحتاجون إلى القليل من المساعدة لرؤية الأمور على حقيقتها. وبحسب ما عبر جورج كارلين عن ذلك الاعتقاد بقوله: «هل لاحظت يوماً بأن أي شخص يقود سيارته بسرعة أبطأ منك هو شخص غبي بينما أي شخص يقود سيارته بسرعة أعلى منك هو شخص مجنون؟». يعتبر هذا الميل إلى الاعتقاد بأننا نحن من نرى الأمور الصحيحة على حقيقتها في هذا العالم، والآخرين الذين يمتلكون رؤية تختلف عنا هم أشخاص جهلاء لا يعقلون من الأمر شيء هو ميل يوجب الصراعات. وبحسب ما قاله عالم النفس لي روس: إذا كنت أرى العالم كما هو، وكنت لا توافقي الرأي، فعندها أنا أمام تفسيرات محدودة: إما أنك قد تكون شخصاً غير كفء، أو شخصاً غير منطقي، أو شخصاً شريراً. وأياً كان التفسير فإني لا أستطيع مناقشتك والتفاهم معك بشكل منطقي.

إذا كانت تلك الاختلافات في الرؤية الإدراكية للأمور على حقيقتها، هي اختلافات تحدث بشكل قوي بين الأشخاص الذين يشعرون بالثراء، فإننا سنواجه عندها بعض النتائج المقلقة كاستمرار الزيادة في انعدام المساواة. ونظراً لأن أقلية الناس الأثرياء الموجودين في القمة سيأخذون بالابتعاد أكثر فأكثر عن أغلبية الناس من الطبقة العاملة في الأسفل، فإنه يمكننا توقع حدوث تغير في الآراء السياسية لتلك الأقلية. تلك الأقلية ستخطئ إذ تعتبر منافعها الخاصة على أنها المبادئ الحقيقية، تلك الأقلية من الناس سوف تنظر نظرة ازدراء إلى كل شخص لديه آراء تخالف آراءهم المتمحورة حول منافعهم الشخصية. إذا نظرت تلك الأقلية إلى من يخالفها الرأي (الخصوم) على أنهم غير

جديرين أو غير منطقيين أو غير أخلاقيين، عندها لن يكون لهم أي دافع يدفعهم للتسوية.

ولتحديد ما إذا كان للشعور بالثراء تأثير فعلي على المعتقدات، أجرينا تجربة أخيرة باستخدام لعبة الاستثمار. وكما حصل من قبل، قام جميع المشاركين باختيار الأسهم والجميع حصل على نفس الكمية من الأرباح، واعتقد أفراد إحدى المجموعات بأنهم قاموا بأداء أفضل من الآخرين، بينما اعتقد أفراد المجموعة الثانية أن أداءهم كان سيئاً، وأيضاً عرضت عليهم اقتراحات لإعادة توزيع الدخل من اللاعبين الآخرين الذين يتفقون معهم بالرأي أو يختلفون. على الرغم من أنه في هذه المرة بالإضافة لسؤال المشاركين عن رأيهم باللعبين الآخرين، أخبرناهم بأن اللاعبين الآخرين سيشركون في التصويت على قوانين للدفعة القادمة من المشاركين، وبأن أصواتهم ستحتسب بالتساوي مع أصوات الآخرين. غير أنه يمكنهم تغيير أحد القوانين، القانون الذي يحتسب كل صوت بالتساوي.

كانت النتائج رزينة ومنطقية للغاية، حيث أراد المشاركون الذين اعتقدوا بأن مستوى ربحهم المالي كان أقل من غيرهم أن تتم زيادة مقدار إعادة توزيع الدخل. لكنهم أرادوا أن يتم حساب جميع الأصوات بالتساوي بغض النظر عما إذا كان المشاركون الآخرون يخالفونهم الرأي أم لا. وبالمقابل، أراد المشاركون الذين اعتقدوا بأن مستوى ربحهم المالي كان أعلى من غيرهم بأن يتم تقليل مقدار إعادة توزيع الدخل، وصوتوا لإيقاف أصوات كل من يخالفهم الرأي. حيث كلما رأوا أن من يخالفهم الرأي هو غير كفؤ وغير منطقي كلما قلت رغبتهم في حساب تلك الأصوات. كان هذا البحث أول ما أظهر أن الشعور بالتفوق في المكانة الاجتماعية يُعظم اعتقادنا بأننا نرى الواقع على حقيقته بينما خصومنا مخدوعون. يدعم هذا البحث فكرة أنه كلما تباعدت المسافة بين قمة السلم الاجتماعي وبين أسفله، كلما زاد انقسامنا السياسي. وهذا بالضبط ما حدث خلال العقود القليلة الماضية.

قام أيضاً العالم السياسي مولان مكارتي وزملاؤه بتتبع الانقسامات السياسية خلال القرن الماضي في الكونغرس الأمريكي ومجلس الشيوخ، وصياغة مقياس للاستقطاب استناداً إلى كيفية تصويت المشرعين في كلا المجلسين وذلك على غرار البيانات المستخدمة في الرسوم البيانية للعالمية كليون أندريس. يكون مؤشر مقياس الانقسام في أعلى مستوياته عندما يقوم جميع الديمقراطيون بالتصويت لأمر ما وعندما يقوم جميع الجمهوريين بالتصويت بطريقة أخرى لأمر آخر. وباستخدام هذا المؤشر، قاموا بحساب كيف كان انقسام السياسة الأمريكية في كل مجلس للنواب الأمريكيين منذ عام ١٩٤٧م. يوضح الشكل ٤.٥ أن الانقسام في مجلس النواب الأمريكي ومؤشر «جيني» (المقياس الأكثر استخداماً في المجال الاقتصادي لقياس انعدام المساواة) اتبعا مسارات متشابهة لافتة للنظر. ونتائج مجلس الشيوخ كانت متشابهة أيضاً. كان مؤشر كل من انعدام المساواة والانقسام في السياسة الأمريكية منخفضاً نسبياً خلال الخمسينيات والستينيات. أما في منتصف السبعينات فبدأ مؤشر كل منهما بالارتفاع بشكل طردي وبقي على نفس المستوى منذ ذلك الوقت.

تشير كل من التجارب السلوكية والبيانات التاريخية إلى نفس الاستنتاج الذي ينص على: كلما تباعدت عوالمنا الاقتصادية كلما تباعدت معها عوالمنا السياسية. حتى إنه يصبح من الصعب رؤية

أولئك الذين على الجانب الآخر من الطريق كأفراد حسني النية يشاركوننا أهدافنا غير أنهم يختلفون عنا بما يعتقدونه أفضل الوسائل للوصول إليهم. وبدلاً من ذلك بدأ الجانب الآخر يشبه العدو أكثر فأكثر.

عندما انتُخِبَ ليزلي روتلج كنائب عام عن ولاية أركنساس في عام ٢٠١٤م، كان يجب عليها أن تعمل بجد أكثر من المتوقع من أجل صوت واحد - صوتها. قامت روتلج والتي تنتمي للحزب الجمهوري بدعم قانون هوية الناخب لولاية أركنساس عام ٢٠١٣م والذي ينص على إلزام الناخبين بإظهار بطاقة الهوية التي تصدرها الحكومة في أماكن الاقتراع. اعترض الديمقراطيون على هذا القانون كونه محاولة مواربة لمنع الفقراء والأقليات من التصويت وذلك لأنه من المرجح عدم امتلاكهم لبطاقات هوية سارية المفعول، وكان رد الجمهوريين على ذلك الاعتراض أن وجود قوانين صارمة في أماكن الاقتراع هو أمر مهم لتجنب الاحتيال. تطلب قوانين أركنساس من المواطنين أن يكونوا مسجلين في نفس الولاية وليس في ولاية أخرى حتى يتمكنوا من التصويت. عندما علم كاتب المقاطعة الديمقراطي لاري كراين بأن ليزلي روتلج مازالت مسجلة في العاصمة واشنطن مكان إقامتها سابقاً عمد إلى إلغاء تسجيلها الانتخابي.

وجهت ليزلي روتلج اتهامها إلى لاري كراين بأنه يستخدم «أسلوب شيكاغو في السياسة» لحرمانها من حقوقها. استمتع ديمقراطيو ولاية أركنساس ببضعة أيام من الشماتة وكتبوا العديد من المنشورات في مدوناتهم عن المعنى الحقيقي للمفارقة المضحكة.

ماذا تظنّ دافع جمهوريي ولاية أركنساس الحقيقي وراء تمرير قانون هوية الناخبين؟ وما هي الدوافع الحقيقية لقيام لاري كراين بإسقاط ليزلي روتلج من قائمة المُنتخبين؟ بغض النظر عن معتقده كان صائباً أو مخطئاً في هذه الحالة، إذ يُرجَّح اعتقادك بأنك ترى الموقف بوضوح، وأي شخص آخر يخالفك الرأي إما أن يكون في شخصاً جاهلاً في أحسن الأحوال أو شخصاً خبيثاً وحاقدًا في أسوأ الأحوال. كشفت استطلاعات الرأي الصادرة عن مركز بيو للأبحاث بأن النسبة المئوية للأميركيين العاديين الذين لديهم «آراء معارضة» للحزب السياسي المعارض قد تزايدت باطراد مع تزايد نسبة انعدام المساواة خلال العقود الثلاثة الماضية. أما في عام ٢٠١٤م، فقد اعتقد حوالي ثلث المستطلعين بأن أعضاء الحزب المعارض لم يكونوا مخطئين فحسب، بل كانوا يشكلون تهديداً لازدهار ورخاء الدولة. والثلث من المحافظين والربع من الليبراليين بأنهم سيشعرون بالانزعاج في حال قام أحد أفراد عائلتهم بالزواج من شخص ينتمي إلى الحزب المعارض. تعتبر تلك التوجهات توجهات خطيرة للغاية، لأنه عندما يصبح المعارضون هم العدو حينها يمكن للناس تبرير أي فعل يصدر منهم على أنه مجرد رد لتهديد موجه لهم. وفي نهاية الأمر، كيف لك أن تتفاهم مع البلهاء والمجانين؟

الفصل الخامس

حياة طويلة وشواهد قبور طويلة

انعدام المساواة هي مسألة حياة أو موت

في أواخر شهر أكتوبر، كنت جاثياً في مقبرة تشابل هيل القديمة (15). أزيح الأوراق المتساقطة عن شاهدة قبر صغير غارق في الأرض نُقش عليه (بيرسي ر. بيكر، ولد في ٢٣ يونيو ١٩١٣م، توفي في ١١ مايو ١٩٦٦ م) مجرد أسابيع قليلة وتكون ثلاثة وخمسون عاماً قد مضت. ثم أصبت بالذهول عندما رأيت على بعد عدة أقدام شاهدة قبر صغير بحجم علبة الغداء نصفه مغطى بشجيرة صغيرة، حُفر عليه (توماس و. باتل، ولد في ١٥ مارس ١٩١٨ م، توفي في ١٠ مايو ١٩١٨ م).

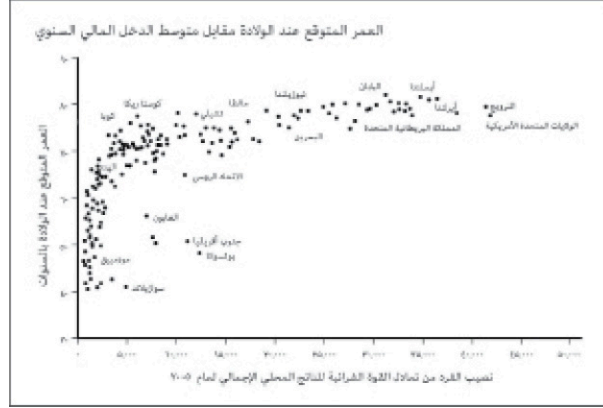
وعلى الجانب الآخر من المقبرة هنالك شاهدة قبر مهيب وكبير بحجم البيانو القائم. ما حُفر على تلك الشاهدة كان حجمه كبيراً بما يكفي لقراءته من مسافة بعيدة: (ويليام ستروود، من العام ١٨٣٢م إلى العام ١٩١١ م). تقول النبذة التعريفية المحفورة إن صاحب القبر هو رجل مخلص وعضو المؤتمر الدستوري لولاية كارولينا الشمالية وعضو في مجلس الشيوخ الأمريكي. لقد عاش ستروود حتى سن التاسعة والسبعين من عمره وهو أمر مثير للدهشة والإعجاب وذلك لأن المتوسط العمري للأشخاص الذين عاشوا في عصره هو واحد وخمسون سنة. وبالقرب كان هناك نُصب يتجاوز طوله قامة إنسان، يحمل درعاً من الذهب على غرائيت أسود اللون، ويشير إلى مواقع قبور يوجين سيمبسون الذي عاش حتى سن التاسعة والسبعين، ومارغريت سيمبسون التي عاشت حتى سن الخامسة والثمانين.

لا أعرف شيئاً عن أحفاد بيرسي ر. بيكر أو توماس و. باتل أو سيمبسون، لكنني كنت قد قرأت للتو نتائج بحثٍ حرصتُ فضولي لأن أقوم بتجريبها بنفسي. تنص نتائج تلك الدراسة على أنه بإمكانك التنبؤ بعمر الحياة المسجل على شاهدة القبر وذلك من خلال حجم النصب التذكاري.

ويعتبر المال هو التفسير المنطقي لتلك النتيجة، حيث كلما كنت أكثر ثراءً كلما طالَّت فترة حياتك وكلما استطاع أفراد عائلتك من بعدك بأن يشتروا لقبرك شاهدةً كبيرة الحجم. قام عالم الأوبئة الاسكتلندي جورج ديفي سميث بتوثيق العلاقة بين طول العمر وحجم شاهدة القبر، حيث قام فريقه بجولة في مقابر غلاسكو (مدينة في اسكتلندا) لمعرفة مدى ارتفاع شواهد القبور وتواريخ الميلاد والوفاة المحفورة عليها، ووجدوا أن كل متر من الارتفاع يرتبط بأكثر قليلاً من سنتين إضافيتين من العمر. صحبتُ طلابي إلى مقبرة الحرم الجامعي مزودين بأدوات قياس الطول اللازمة لاختبار ما إذا كنّا سنجد نفس تلك العلاقة في مكان وزمان آخرين. وكانت النتيجة أننا بالفعل وجدنا نفس الظاهرة الموجودة في مقبرة تشابل هيل، حيث تم تسجيل حياة أطول على الشواهد الأكبر.

هنالك الكثير من الأسباب التي تفسر التأثير السلبي للفقر على صحة الشخص. حيث إن الفقراء قد تعوزهم الرعاية الصحية الأساسية، الظروف المعيشية الآمنة ومرافق الصرف الصحي، وإذا ساءت

الأمر أكثر قد يؤدي ذلك الفقر إلى موت الشخص من شدة الجوع. أما الأمر الأكثر شيوعاً فهو ضعف الأجهزة المناعية لدى الأطفال الناتج عن سوء التغذية والذي قد يؤدي بدوره إلى الموت من الأمراض المعدية، مثل الحصبة. ويشكل يُعدُّ الجوع الشديد وضعفُ الأجهزة المناعية للأطفال المصدرين الرئيسيين للموت بناءً على الإحصائيات التي نسمعها من حين لآخر والتي تقيد بأن طفلاً يموت من الجوع كل ثماني ثوانٍ (أو عشر ثوانٍ أو خمسة عشرة؛ نتيجة لانخفاض مستوى الفقر على المستوى العالمي في العقد الماضي، أخذت هذه الإحصاءات المحبطة بالانخفاض أيضاً). يمكنك أن ترى الفرق في متوسط العمر المتوقع بين الدول الغنية والدول الفقيرة في الشكل ٥.١.

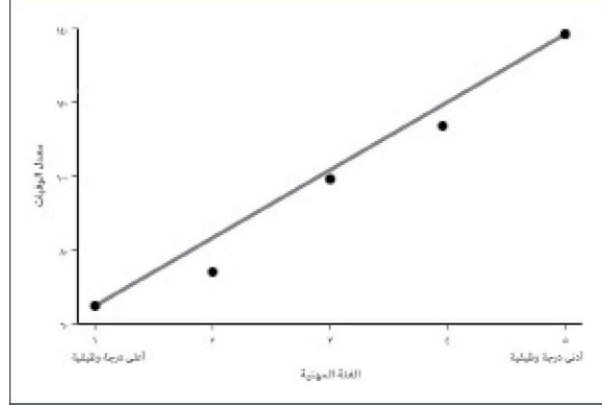


آثار دخل الفرد المالي على متوسط عمره المُتوقع و ذلك بعد أن تصل الدول إلى مستوى أساسي من التقدم.

عندما نقوم بدراسة البيانات داخل كل دولة على حدة، فإننا نستطيع أن نرى رابطاً واضحاً جداً بين المال والصحة. فكلما كان لديك المزيد من المال كلما كانت صحتك أفضل ولديك احتمالية أكبر للعيش لفترة أطول. فإذا قمنا بحساب الفرق في معدلات الوفيات بين أغنى وأفقر المناطق في أمريكا من خلال النظر إلى العناوين البريدية للمتوفين، فإننا سنجد أن معدل الوفيات السنوي للأشخاص ذوي العناوين البريدية التي تعود إلى المناطق الغنية هو ٥٠ حالة وفاة لكل ١٠٠٠٠ شخص، بينما معدل الوفيات السنوي للأشخاص ذوي العناوين البريدية التي تعود إلى المناطق الفقيرة هو ٩٠ حالة وفاة لكل ١٠٠٠٠ شخص. كل خطوة تخطوها إلى الأعلى على سلم الثراء تترجم إلى سنوات إضافية من عمرك.

بل يمكننا رؤية هذا النموذج بشكل أكثر وضوحاً في بيانات دراسة واسعة النطاق أُجريت على أكثر من عشرة آلاف موظف في هيئة الشؤون المدنية البريطانية والتي لا تزال مستمرة منذ ستينيات القرن الماضي. تنطوي هيئة الشؤون المدنية لصاحبة الجلالة على تفاصيل متقنة للتراتبية، تتضمن العشرات من الدرجات الوظيفية المحددة بوضوح تام، بدءاً بأمناء مجلس الوزراء الذين يعملون على تقديم تقارير مباشرة إلى رئيس الوزراء وانتهاءً بالوظائف الكتابية الواقعة في أول السلم الوظيفي. استنتج الطبيب مايكل مارموت أنه كلما انخفضت درجة السلم الوظيفي التي تقف عليها كلما انخفض معها عمرك المتوقع. هذا النمط عبارة عن علاقة طردية لافتة للنظر تعمل على تأكيد أن رابط الفروقات بين كبار المسؤولين الحكوميين الواقفين قمة ذلك السلم الوظيفي وبين أولئك الموظفين

الواقفين على أولى درجاته هو رابط قويّ في زيادة معدل الوفيات (انظر الشكل ٥.٢).



ترتبط المكانة و الحالة الاجتماعية بعلاقة خطية مع معدلات الوفيات في الدول الغنية. هذا المثال مأخوذ من دراسة مارموت لموظفي الخدمة المدنية البريطانية (٢٠٠٠).

شمل أيضاً بحث شواهد المقابر الاسكتلندية على تفاصيل دقيقة تلقي مزيداً من الضوء على طبيعة العلاقة بين المال والصحة. لاحظ ديفي سميث أن معظم القبور التي قاموا بفحصها تعود لأصحاب الطبقة المتوسطة والطبقة العليا، حيث أن غالبية الفقراء يدفنون بدون شاهدة أو أن شواهد قبورهم عبارة عن قطع خشبية لا تحفظ أية تفاصيل. قد لا تبدو هذه الحقيقة ذات أهمية بالغة، إلا أنها تقدم تلميحاً على حقيقة تشكيل المال للصحة.

في قصة «الوهج الفضي»، يقوم شرلوك هولمز بالتحري عن حادثة مقتل مدرب للخيل وحادثة اختفاء جواد السباق الشهير الذي يملكه، حدث ذلك في الليلة التي تسبق المنافسة. يقوم المحقق من مركز الشرطة الرئيسي في لندن بسؤال شرلوك هولمز: «هل هناك أي نقطة أخرى ترغب في أن أقوم بصب انتباهي عليها؟». أجاب شرلوك هولمز قائلاً: «نعم، واقعة الكلب الغريبة التي حدثت بالأمس». أجاب المحقق «لم ينبح الكلب ليلة البارحة». ردّ شرلوك هولمز: «تلك كانت الواقعة الغريبة». حيث إن عدم نباح الكلب ليلة البارحة يشي لـ شرلوك بأن الشخص الذي قام بإخفاء الجواد هو شخص يعمل داخل الإسطبل ويألفه الكلب. يعتبر الاستدلال باختفاء الدليل هو أمر يتطلب فطنة استثنائية- وهو ما يتميز به شرلوك هولمز- أما في موضوع حديثنا، فقد استغرق العلماء بعضاً من الوقت حتى أدركوا أن هناك حلقة وصل مفقودة في الرسم البياني المتعلق بالعلاقة بين المال والعمر داخل البلدان المتقدمة.

إذا نظرت بعناية إلى الشكل ٥.١، فإنك ستلاحظ ميلان منحنى المقارنة بين الدول المختلفة، فعلى سبيل المثال يُترجم الدخل المالي الصغير نسبياً في الهند أكثر من الموزمبيق إلى فترة عمرية أطول في الهند. وبمجرد أن تصل الدول إلى مستوى التطور الحاصل في تشيلي أو كوستاريكا، يحدث شيء مثير للاهتمام: يبدأ المنحنى بالاستقامة. تكفّ الدول الغنية جداً مثل الولايات المتحدة الأمريكية عن الحصول على أي تقدم في العمر المتوقع بشكل أعلى من الدول الغنية بشكل معتدل مثل البحرين

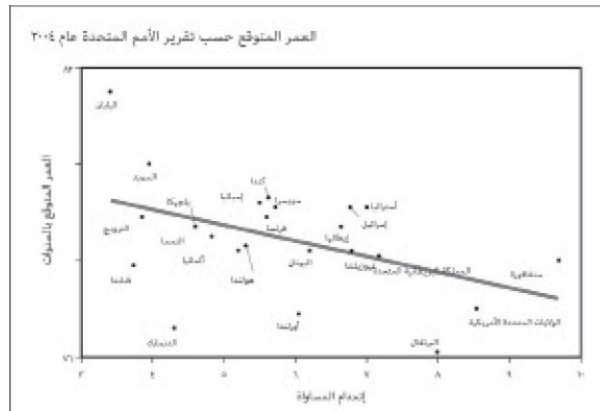
وحتى كوبا. ويتوقف الاهتمام بمستوى ارتفاع متوسط الدخل المالي عند مستوى معين من التطور الاقتصادي للبلدان.

ولكن داخل تلك الدول الغنية يكون خط العلاقة بين المال وطول العمر مستقيماً بلا أي ميلان. إذا كان ارتفاع معدلات وفاة الفقراء هو سبب لنشوء العلاقة بين المال وطول العمر، فمن المتوقع حينها بأن ترى ميلاناً في ذلك المؤشر وهو الأمر الذي يعني توقع فترة عمرية قصيرة جداً للفقراء، عندها لا يكون هناك أي تأثير للدخل الإضافي فوق خط الفقر إلا بنسبة قليلة جداً. يشير هذا الغياب الغريب لميلان الخط إلى أن الرابط بين المال والصحة لا يعتبر في الواقع انعكاساً للفقر بحد ذاته، على الأقل ليس في الدول المتقدمة اقتصادياً. إذا كان الفقر المدقع هو سبب ذلك التأثير، عندها سيكون هناك ارتفاع حاد في معدلات وفاة الفقراء المعدمين وسيحدث اختلاف بسيط بين مجموعات الطبقة المتوسطة والطبقة العليا.

يعتبر النمط الخطي في دراسة هيئة الشؤون المدنية البريطانية نمطاً لافتاً للنظر، وذلك لأن جميع المشاركين في تلك الدراسة يعملون في وظائف حكومية جيدة ولديهم رواتب شهرية وتأمينات صحية ومعاشات تقاعدية والمزيد من الفوائد الأخرى التي تتبع ذلك. إذا كنت تعتقد بأن ارتفاع معدلات الوفاة هو أمر محصور فقط على الفقراء المعدمين الذين لا يستطيعون توفير احتياجاتهم الأساسية، فإن هذه الدراسة تدحض ذلك، لأنها لا تتضمن أي مشاركين من طبقة الفقراء المعدمين لكنها وجدت نسباً مرتفعة لمعدلات الوفاة بين الأشخاص ذوي المكانة الاجتماعية الأدنى.

وجدت عالمة النفس نانسي أدلر وزملاؤها بأن المكان الذي يقوم الناس بوضع أنفسهم فيه على سلم المكانة الاجتماعية هو مؤشر أفضل للتنبؤ بالحالة الصحية أكثر من الدخل الفعلي ومستوى التعليم. وبالفعل قام فريقها بالتعاون مع مارموت بالعودة إلى دراسة موظفي الشؤون المدنية البريطانية وطلبوا من المشاركين في تلك الدراسة بأن يقيموا أنفسهم ويختاروا مكانهم على السلم. كان تقييم المشاركين من خلال الأماكن التي وضعوا أنفسهم عليها مقارنةً بأخرين أفضل متنبئ لصحتهم من وضعهم المهني. تفترض تحاليل أدلر أن الوضع المهني يشكل الحالة الذاتية وإن هذا الشعور الذاتي عن أين يقف الشخص، بدوره، يؤثر على الصحة.

إذا كانت الصحة وطول العمر في الدول المتقدمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقارنات النسبية أكثر من الدخل المالي، حينها يمكننا توقع أن المجتمعات التي تتمتع بمستوى عالٍ من انعدام المساواة ستكون مجتمعات تعاني من ضعف في المستوى الصحي، وفي الواقع هي حقاً كذلك. وعبر كل الدول المتقدمة التي شملها استطلاع ويلكنسون وبيكيت، كان العمر المتوقع مرتفعاً لدى الدول التي تتمتع بمستوى عالٍ من المساواة والدخل المالي (انظر إلى الشكل ٣.٥). وهو الأمر ذاته في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أن الناس الذين عاشوا في ولايات تتمتع بمستوى عالٍ من المساواة والدخل المالي، عاشوا لفترة أطول (انظر الشكل ٤.٥). ستبقى كلا العلاقتين ما دمنا نتحكم إحصائياً بمعدل الدخل، والذي يعني أن انعدام المساواة في المداخل، وليس الدخل بحد ذاته، هو المسؤول.



ترتبط انعدام المساواة العالية بقصر الفترة العمرية المتوقعة لشعوب الدول المتقدمة اقتصادياً.



تميل الولايات المتحدة الأمريكية التي يزيد فيها مستوى انعدام المساواة إلى أن يكون لديها قصر في الفترة العمرية المتوقعة لشعوبها.

ولكن كيف يمكن لشيء مجرد مثل انعدام المساواة والمقارنات الاجتماعية بأن تؤثر على الأمور الحيوية في أجسادنا مثل الصحة؟ لا تمتلئ غرف الطوارئ في مستشفياتنا بأشخاص يلقون حتفهم نتيجة حالات حادة من انعدام المساواة في المجتمع. كلا، الأمر ليس كذلك. يمكن تتبع المسارات التي تعمل على ربط انعدام المساواة بالصحة من خلال تتبعنا لأمراض معينة، خصوصاً أمراض القلب والسرطان والسكري والمشكلات الصحية الناتجة عن السمنة. حيث يُعبّر عن أفكارنا المجردة مثل العلاقات الاجتماعية وسياسات الاقتصاد الجمعي بطريقة ما في أداء خلايا أجسادنا.

ولفهم كيف يحدث التعبير ، علينا أولاً أن ندرك بأن الناس الذين تختلف مساراتهم الحياتية يموتون ميّات مختلفة أيضاً. لقد رأينا في الفصل الثاني بأن الناس في الولايات والدول الأكثر انعداماً للمساواة لديهم نتائج بائسة على مختلف الأصعدة الصحية، بما في ذلك العنف وموت الرُضع والسمنة والسكري والأمراض النفسية، وغيرها الكثير. أما في الفصل الثالث فلقد علمنا بأن انعدام المساواة يؤدي بالناس إلى تكبد المزيد من المخاطر في حياتهم، وعدم وجود الرؤية المستقبلية يؤدي بالناس إلى الاندفاع في اتخاذ القرارات، ويسلكون في حياتهم نهج: عش سريعاً، مت صغيراً. هناك

ارتباط واضح بين الافتتان بالاستمتاع بالملذات اللحظية مقابل القدرة على التحكم وضبط النفس من أجل المنفعة الصحية بعيدة المدى. فرأينا على سبيل المثال أن انعدام المساواة يرتبط مع السلوكيات الخطيرة وفي البيانات التي يرتفع فيها معدل انعدام المساواة يكون الناس عرضه أكثر لتعاطي المخدرات والكحول والخوض في العلاقات الجنسية غير الآمنة وما إلى ذلك. وأشارت تجارب أخرى إلى أن العيش في بيئات ذات مستوى عال من انعدام المساواة يزيد من احتمالية أن يقوم سكانها بالتدخين والأكل أكثر من اللازم والإقلال من ممارسة الرياضة.

وبالأخذ بكلا الأمرين (المستنتجين من الفصل الثاني والفصل الثالث) فإن ذلك يعتبر دليلاً على أن انعدام المساواة يؤدي إلى الأمراض وإلى ممارسة السلوكيات الخطيرة التي بدورها تؤدي إلى فترة عمرية قصيرة. كان هذا الاستنتاج أمراً مثيراً للجدل على نطاق واسع، وخاصة لدى اليسار السياسي. ألقى البعض باللوم على عاتق الضحية وذلك لأن الفقراء وأولئك الذين يعيشون في بيئات ذات مستويات عالية من انعدام المساواة، مسؤولون بشكل جزئي عن مصيرهم الناتج عن خياراتهم السيئة التي قاموا بها. لكنني لا أعتقد أن إلقاء اللوم هو بهدف الإشارة إلى الحقيقة الواضحة التي تنص على أن الصحة تتأثر بالتدخين وتعاطي الكحول وسوء التغذية وقلة ممارسة الرياضة وما إلى ذلك. بل تصبح مسألة لوم الضحية فقط إذا افترضت بأن تلك السلوكيات هي حصرياً نتيجة ضعف الشخصيات ذات الحظ القليل. بالمقابل، رأينا الكثير من الأدلة على أن الفقر وانعدام المساواة لهما تأثيرات على الناس الذين يعيشون في هذه الظروف من ناحية التفكير واتخاذ القرارات. وفي حالة تم إقحامنا أنا وأنت في مثل هذه الظروف فإننا سنبدأ بالتفكير والتصرف واتخاذ قرارات غير صحية، أيضاً.

تساعد العلاقة بين انعدام المساواة والسلوكيات غير الصحية بإلقاء الضوء على توجّه مفاجئ اكتُشِفَ في مقالة كتبها الاقتصاديتان آن كايس وأنغوس ديتون في العام ٢٠١٥ والتي تبين أن معدلات الوفاة تنخفض باطراد في الولايات المتحدة والعالم الاقتصادي المتطور منذ عقود، إلا أنهما لاحظتا استثناء لافتاً للنظر: منذ تسعينيات القرن الماضي ومعدل وفيات الأمريكيين البيض متوسطي العمر يأخذ في الارتفاع. وتتركز هذه الزيادة بين الرجال البيض الذين لا يمتلكون شهادات جامعية. أما معدلات وفاة الأمريكيين السود متوسطي العمر فظلت محافظة على ارتفاعها، إلا أنها تميل للانخفاض بشكل تدريجي وبطيء كما هو الحال مع جميع الأقليات الأخرى.

تبدو الأذيات في هذه المجموعة ذاتية إلى حد كبير. فهم لا يموتون بسبب ارتفاع معدلات أمراض القلب والسرطان، بل بسبب تليف الكبد والانتحار والألم المزمن المتواصل والجرعات الزائدة من المهدئات ومسكنات الألم.

هذا التوجه صادم بحد ذاته لأنه يعبر عن قوة المقارنات الاجتماعية الذاتية. تموت هذه المجموعة الديموغرافية بسبب احتمالات عنيفة. على الرغم من أن خريجي مدارس التعليم الثانوي البيض يجنون وسطياً ما لا أكثر من السود المماثلين لهم تعليمياً، إلا أن البيض يتوقعون نتائج أكثر لتاريخ امتيازاتهم. ويشير عالما الاقتصاد كايسي وديتون بأن ركود الحراك الاجتماعي واتساع انعدام المساواة في الدخل المالي يعني أن هذا الجيل هو أول جيل في التاريخ الأمريكي الذي من المرجح

ألا يكون أكثر ثراءً من والديه.

يعمل انتشار السلوكيات غير الصحية بين أولئك الذين يشعرون بأنهم خارج الحسبة على تفسير جزء من العلاقة التي تربط بين انعدام المساواة والصحة، جزء فقط من تلك العلاقة. لقد وجدت أفضل الاستنتاجات والتقدير أن هذه السلوكيات تفسر حوالى ثلث واحد من العلاقة بين انعدام المساواة والصحة. أما الكثير من مجمل العلاقة فيعود معظمه إلى كيفية تفاعل الجسم واستجابته للأزمات. حيث إن للجسم نظام عمل متطور يعتمد نفس الاستراتيجية التي نعمل بموجبها وقت الأزمات، عندما نقوم بأخذ القرارات والأفعال التي تعود علينا بالمنفعة بعيدة الأجل. تم تصميم هذا النظام لإدارة الأزمات ليقوم بإنقاذ حياتك الآن ولو دعا الأمر إلى تقصير الفترة العمرية لحياتك على المدى البعيد.

يطلق على هذا النظام اسم «استجابة الإجهاد»، حيث يعتبر الإجهاد بمثابة القرض مستحق الدفع الذي يجب على الجسم تسديده. وعلى الرغم من روعة عمل ذلك النظام، إلا أن الإجهاد لم يُكتشف إلا في وقت متأخر. فعلى مرّ العصور، كان الإجهاد بادياً على مرأى من الجميع قبل أن يدرك تأثيره أي شخص. في ثلاثينيات القرن الماضي، كان جانوس هوغو برونو «هانز» سيليه شاباً هنغارياً مختصاً في الغدد الصمّ من جامعة ماكغيل الكندية سنة ١٩٣٠، تضمن بحثه في ذلك الوقت حقن الفئران بمواد كيميائية مستخرجة من مبايضها وذلك بهدف قياس تأثير تلك المواد الكيميائية على أجساد الحيوانات، وأيضاً بهدف تحديد هرمون جديد على نحو مثالي.

في بداية الأمر، أثبتت التجربة بلاء حسناً وحققت نجاحاً عظيماً. حيث أظهر حقن الفئران بمستخلص المبايض تضخماً في بعض الغدد وتقلصاً في الغدد الأخرى، كما ظهر على الفئران أيضاً تقرحات في معداتها. إلا أن هنالك أمراً طرأ على نتيجة تلك التجربة وبدا كأنه تأثير لهرمون جديد. حينها قام هانز سيليه بفحص مجموعة أخرى من فئران حُقنت بمستخلص هرموني من نوع مختلف. الأمر المحير الذي حدث هو أن الأعراض نفسها ظهرت على جميع الفئران. عندها قام هانز سالي بتجربة نوع آخر مختلف من المستخلصات الهرمونية، ونوع بعد الآخر وتجربة بعد الأخرى، أظهر حقن مختلف أنواع المستخلصات الهرمونية النتيجة الجسدية ذاتها.

وبدلاً من اكتشاف التأثير المميز لذلك الهرمون غير المعروف، عثر هانز سيليه على ردات فعل... ماذا بالضبط؟ أُنقنت مادة ما في جسم شخص ما؟ أم وُخز بإبرة؟ قام هانز سالي بإجراء المزيد من الدراسات التي تهدف إلى تحديد أنواع الصدمات التي أدت إلى توليد تلك الأعراض. تضمنت دراسات هانز سالي إجراءات فظيعة لن يُسمح اليوم بإجرائها أبداً على المخلوقات الحية من قبل لجنة أخلاقيات البحث العلمي. حيث تُحقن الفئران بمواد كيميائية أخرى مثل المورفين والفورمالديهايد، وتقطع جلود بعض الفئران وتُكسر عظام البعض الآخر، ويُجمد البعض منها ويُجوع البعض الآخر لعدة أيام.

وبعد كل تجربة، قام هانز سيليه بتشريح الفئران وتفحص النتائج الجسدية لكل نوع خاص من العلاج. وفي نهاية ذلك التفحص، اكتشف هانز سيليه بأن جميع الفئران أظهرت النمط نفسه

للاستجابات البيولوجية تجاه مختلف أنواع الإجهاد الذي تعرضت له.

ذكرت تلك النتائج هانز سيليه بأمر ما ملاحظه عندما كان طالباً في المجال الطبي. حيث خصَّ أستاذه بالجامعة كل طالب منهم بخمسة مرضى لمراقبتهم ودراسة حالتهم، ولكل منهم مرض مختلف عن الآخر. كان الهدف من ذلك التمرين هو مساعدة الطلاب على ملاحظة الأعراض المميزة لكل مرض على حدة، مثل عَرَض البقع الحمراء الذي يعمل على التقريق بين مرضى الحصبة والأنفلونزا. لكن ما وجده هانز سيليه كان أمراً لافتاً للنظر، حيث أن جميع المرضى كانوا يتشاركون أعراضاً عديدة، مثل ارتفاع درجة الحرارة وفقدان الشهية والألم وتورم اللوزتين. وعندما اقترح هانز سيليه على أستاذه في الجامعة أن هناك ما يسمى بـ«متلازمة المرض»، لم يظهر أستاذه إي إعجاب بتلك الفكرة ودفنت في وقتها. إلى أن جاء الوقت الذي لاحظ فيه هانز سيليه وجود السمات العمومية نفسها في أعراض الفئران بغض النظر عن الإجراءات التي تعرضت لها.

في البداية أطلق هانز سيليه على ردات الفعل تلك اسم «متلازمة التكيف العامة»، إلا أنه أعاد تسميتها لاحقاً ليصبح اسمها «الإجهاد». لم تكن الفكرة معروفة ومنتشرة بين أوساط علماء وظائف الأعضاء الذين يعنى اختصاصهم بشكل أساسي بإيجاد الروابط بين مواد كيميائية خاصة وبين تأثيرات جسدية خاصة. لقد كان ما يعتقد أولئك العلماء هو أن الجسم عبارة عن شيء يشبه سكنين الجيش السويسري، له أداة خاصة لكل وظيفة أو مجموعة من المفاتيح الحساسة التي تعمل على فتح الأقفال المعقدة. لكن ما كان يشير إليه هانز سيليه هو أن الأمور كانت معقدة أكثر مما كان يعتقد أولئك العلماء، حيث إن أي إزعاج أو تشويش يحصل لذلك النظام الحيوي في الجسم، سيعطيك ردة الفعل المعقدة نفسها بغض النظر عن ماهية ذلك الإزعاج أو التشويش. وقام الأستاذ المشرف على هانز سيليه بتسمية ردة الفعل تلك بـ «علم عقاير القذارة».

كان لدى هانز سيليه الكثير من التفاصيل الخاطئة حول الإجهاد. حيث إنه، على سبيل المثال، كان يعتقد أن الإجهاد طويل الأمد هو أمر من شأنه أن يكون ضاراً وذلك لأن الهرمون الخاص بالإجهاد قد ينفذ من الجسم ولا يمكن إعادة إنتاجه بالسرعة المطلوبة لدفع ذلك الضرر، حيث أن الجسم يصبح غير محميٍّ بمجرد نفاد تلك الهرمونات. تم التشكيك بدوافع هانز سيليه في ذلك البحث عندما تبين لاحقاً أن شركات التبغ دفعت له أموالاً طائلة لدعم بحثه بهدف أن تثبت للناس أن الإجهاد هو الأمر المضر بالصحة وليس التدخين، والناس ببساطة يدخنون للتخلص من ذلك الإجهاد.

ينص مفهوم الإجهاد على أنه تجاوب جسدي عام لأي نوع من الأزمات لفترة طويلة من الزمن. أما اليوم فنحن نعرّف استجابة الإجهاد على أنها الطريقة التي يستعد بها الجسم لاستهلاك كمية كبيرة من الطاقة للرد على أي تهديد أو فرصة محتملة.

ولفهم كيفية عمل الإجهاد، تخيل بأنك من الصيادين وجامعي الثمار تبحث عن طعام في أحد السهوب، وفجأة سمعت صوت خشخشة بين العشب الطويل. قد يكون مصدر تلك الخشخشة أسداً أو محارباً من قبيلة العدو، في كلتا الحالتين أنت في خطر ويجب عليك إما القتال أو الهرب. أوقد يكون أرنبا، حينها يجب عليك التصرف بسرعة لتأمين عشاء الليلة. أوقد تكون طريدة بريّة، حينها أيضاً

يجب عليك التصرف بسرعة لتأمين عشاء الليلة، لكن هذه الطريدة قد تشكل تهديداً لك في حال لم تحترس من أنيابه. ليس أمامك الكثير من الوقت لتحديد ما إذا كان ذلك الصوت تهديداً أو فرصة يجب اغتنامها أو كليهما في آن واحد. وعلى أية حال سيقوم جسمك خلال جزء من الثانية بإعادة توجيه نفسه بهدف تجهيزك لأي مفاجئة قد تحدث.

يقوم عقلك بتوجيه الغدد لتقوم بإفراز سلسلة معقدة التركيب من الهرمونات لتصب في مجرى دمك وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى حدوث التغيرات في خلايا أجهزة جسمك الحيوية. يعتبر كل من الأدرينالين والكورتيزول أهم هرمونين خاصين بالإجهاد، حيث يعمل كلاهما مع هرمونات أخرى على تحرير الغلوكوز والبروتينات والدهون المخزنة في خلايا الجسم الناتجة عن الطعام الذي قمتَ بتناوله ليتدفق في مجرى الدم، فتستخدمها العضلات كمصدر للطاقة. كما أن تلك المواد المحررة يتداخل عملها أيضاً مع الأنسولين الذي يعمل على إزالة الغلوكوز من مجرى الدم ومن ثم تخزينه في خلايا جسمك لاستخدامه لاحقاً.

الآن، وبعد أن أصبحت مزوداً بكمية هائلة من الطاقة التي تسري في مجرى دمك، أنت بحاجة إلى دفع عجلة دورتك الدموية وذلك حتى يتم نقل المواد المحررة بسرعة إلى المكان المطلوب تواجدها فيه. تعمل هرمونات الإجهاد على تسريع وتيرة عمل القلب والرئتين وذلك بهدف تزويد مجرى الدم بالمزيد من الأكسجين. وتتسبب بانقباض في الأوعية الدموية (ارتفاع ضغط الدم). وهو الأمر الذي يؤدي بنبضات القلب إلى أن تضخ الدم بقوة أكبر. ومثل تدفق الماء عبر خرطوم مثني، يرتفع ضغط الدم ويتحول الدم من تدفق إلى رذاذ. من المرجح أن تحدث النبضات القلبية خلال تلك اللحظات من الإجهاد التي يبذل فيها القلب قصارى جهده لإتمام عملية الدورة الدموية.

يعتبر الماء المصدر الحيوي الآخر الذي يتأثر به جسمك حين حدوث الأزمات. حيث تقوم هرمونات الإجهاد بإصدار أمر إلى الكلى بأن تتوقف عن إخراج الماء إلى مجرى الدم لصنع البول. في حين يتم أخذ الماء من جميع أنسجة الجسم وصبّه في مجرى الدم في محاولة يقوم بها الجسم لتعويض ما ينقصه من الماء. وهذا ما يفسر جفاف فمك عندما تكون على وشك أن تفعل أمراً من شأنه أن يشعرك بالإجهاد والتوتر.

وأخيراً يعمل نظام الإجهاد على إثارة ردة فعل مناعية تسمى الالتهاب. نحن عادة ما نعاني من الالتهاب على أنه تورم مؤلم أحمر اللون حول جرح ما أو لسعة حشرة ما، أو تشعر بالالتهاب على أنه مثل الخدوش في حلقك لتدرك حينها بأنك لست فقط متعباً بل إنك ستعاني من نزلة برد. ويُعدّ الألم الذي نشعر به أثناء الالتهاب هو ردة فعل أجسادنا تجاه ذلك الالتهاب، حيث يعتبر الألم بمثابة المجموعة المتنوعة من الأدوية المضادة للفيروسات والمضادات الحيوية التي يقوم الجسم بتزويدها لنفسه.

تلعب الخلية البالعة، أو البلعمية، (وتسمى أحياناً بـ «الآكلة الكبيرة») دوراً مهماً ورائداً في عملية الهجوم على تلك الكائنات الدخيلة والغازية للجسم. وعلى عكس الأجزاء الأخرى من الجهاز المناعي التي تعمل على تذكر هوية الدخلاء والغزاة فنقوم باستهدافهم وتدميرهم، تكتيك الالتهاب هو

معادل القصف البساطي. تسأل هذه الخلايا سؤالاً واحداً فقط: هل أنا المقصودة أم لا؟ إذا لم تكن الإجابة بأنني المقصودة، (أي إذا لم يكشف عن العلامات الجزيئية لجسم الشخص)، فإن «الآكلة الكبيرة» تلتهمها.

عادة ما نظن أن الجهاز المناعي جهازاً تفاعلي، حيث يحدث هذا التفاعل عندما تتسلل البكتيريا أو الفيروسات إلى الجسم من خلال تصعيد عملية هجومية تستهدف تلك الكائنات. هذا التفكير هو تفكير صحيح، لكن استجابة الإجهاد لا تعمل بنفس الطريقة، حيث أنها لا تقف متفرجة وتنتظر إلى أن يتم اختراق الجسم بالفعل بواسطة تلك الكائنات الدخيلة لتبدأ عملها. فبمجرد أن يظهر صوت الخشخشة، يبدأ الجسم بإعداد استجابة وقائية للموقف بأقصى سرعة ممكنة، وذلك من خلال إفراز هرمون الإجهاد في مجرى الدم ليكون جاهزاً لأي إجراء وقائي.

يثير هذا النظام الاستجابي المذهل للأزمات سؤالاً مهماً: إذا توفرت لأجسادنا القدرة على مضاعفة مستوى الطاقة لدينا ونشر درع من الخلايا الوقائية لتجعلنا سريعين في مواجهة أي تحدٍّ يواجهنا، فلماذا إذاً يجب علينا أن ننتظر إلى أن نكون في حالة من الإجهاد والتوتر حتى نستطيع استخدام تلك القدرات المذهلة؟ لماذا لا نستغل تلك القدرات طوال الوقت؟

السبب الأول هو في التطور evolution حيث، كما هو الحال في العديد من مناحي الحياة الأخرى، لا يوجد هنالك وجبة غداء مجانية. والإجهاد لا يخلق طاقة جديدة بل إن كل ما يفعله هو إعادة توجيه تلك الطاقة. وعندما يستجيب الإجهاد بضخ كمية من الطاقة في منطقة ما، فلا بدّ أنها أخذت شيئاً آخر من منطقة أخرى. عند مواجهة الأزمات الطارئة- مثل سماع صوت خشخشة العشب- يقوم جسمك بإيقاف جميع الوظائف غير الضرورية. حيث أن ما يفعله الجسم في ذلك الوقت هو أخذ الغلوكوز والبروتينات الموجودة في الدم بعيداً عن استهلاكها في المشاريع الطويلة الأجل، مثل انقسام الخلايا وصيانة وإصلاح أجهزة الجسم وإعادة توجيهه للعضلات.

فعملية الهضم، على سبيل المثال، تتباطأ إلى أن تتوقف ولأنها تعتبر من المشاريع طويلة الأجل فهي ليست متعلقة بنجاحك خلال الدقائق القليلة القادمة. تعتبر عملية النمو من المشاريع الطويلة الأجل أيضاً، حيث أن الأطفال الذين يتعرضون لفترة طويلة من الإجهاد والتوتر الشديدين الناتجين عن سوء المعاملة أو الإهمال قد تتوقف أجسادهم عن النمو الطبيعي حتى لو كانوا يتغذون بشكل كافٍ وتسمى هذه الحالة بـ «التقزم الإجهادي».

أما السبب الثاني الذي يمنعنا من الاستفادة من فوائد الإجهاد طوال الوقت هو أن الإجهاد يتسبب بأعراض جانبية سيئة جداً. نحن معتادون أن نفكر بردات فعل أجسادنا على أنها ردات طبيعية وبالتالي فهي ليست ضارة لنا. لكن الهرمونات التي تُفرز أثناء الإجهاد تعد هرمونات قوية التأثير بنفس قوة تأثير الأدوية المصنّعة. يستخدم الأطباء هرمونات الإجهاد مثل الأدرينالين والكورتيزول (والشكل المصنّع منه وهو الكورتيزون) كعلاج للعديد من المشكلات الصحية، ولكن يتم استخدامها بشكل قليل جداً وذلك لأن الإكثار منها يؤدي إلى نتائج صحية خطيرة. وكما هو الحال مع الأدوية الأخرى، فإن هرمونات الإجهاد المفردة طبيعياً في أجسادنا هي هرمونات آمنة على صحتنا في

حالة تم استخدامها بين الحين والآخر ولفترة زمنية قصيرة. لكن في الواقع هذه ليست الطريقة التي تقوم بها أجسادنا فعلياً باستخدام تلك الهرمونات.

قام خبير التوتر وعالم الأحياء روبرت سابولسكي من جامعة ستانفورد الأمريكية بمناقشة فكرة تنص على أنه إذا قمنا باستعمال استجابة الإجهاد بنفس الطريقة التي تستعملها الحيوانات الأخرى، فإننا سنجني فوائد استجابة الإجهاد ونتجنب الكثير من أضرارها. ولكن مواصفات استجابة الإجهاد نفسها والتي تجعل من الإجهاد مُعزِز طاقة رائعاً في سائر المملكة الحيوانية، هي التي تسبب أيضاً المعاناة والمرض عند البشر. وكما رأينا سابقاً فإن روعة الإجهاد هي أنه لا ينتظر حدوث الضرر بشكل فعلي حتى يبدأ عمله، إذ أنه يبدأ بالعمل فور ظهور أي تهديد محتمل قد يواجهه. إن الإنسان، مع ذلك، يمتلك القدرة على الإحساس بالتهديد حتى لو لم يكن في الواقع موجود مادياً. وللمساعدة في فهم تلك النقطة، فكر لمدة دقيقة واحدة في أمر يثير رعبك أو قلقك. ستلاحظ حينها بتسارع نبضات قلبك، وقد تشعر أيضاً بارتفاع في درجة حرارتك وقد تبدأ أيضاً في التعرق قليلاً. ما حدث هو أنه تم إثارة استجابة الإجهاد لديك من خلال مجرد التفكير في تلك الأمور. وبخلاف الحيوانات الأخرى، فإننا نحن البشر نستطيع أن نشعر بالقلق تجاه أمور تؤرق مضاجعنا في الليل، فقد نقضي الليل قلقين بشأن عرض الـ PowerPoint التقديمي ليوم غد، أو بشأن دفع القرض العقاري للشهر المقبل، أو بشأن ظهور شامة غريبة الشكل في الظهر.

وأيضاً بخلاف الحيوانات الأخرى، فإننا نحن البشر نستطيع العيش تحت تأثير استجابة التوتر لمدة تصل إلى أسابيع أو أشهر أو سنة كاملة بدون أي انقطاع. فكر في تداعيات وتأثير طول الفترة الزمنية لاستجابة الجسم وتفاعله مع التوتر: سيتفاعل الجسم مع التوتر ويكون في وضعية تجاهل تام لأي مصلحة وفائدة طويلة الأجل، حيث سيصب تركيزه وعمله في إعادة توجيه أي طاقة يكتسبها في سبيل الهرب والنجاة من حالة طارئة، واستخدام تلك الطاقة لفترة زمنية طويلة.

عندما تقوم هرمونات التوتر بإيقاف الأنسولين عن تخزين الغلوكوز لفترة زمنية طويلة، يؤدي ذلك إلى ارتفاع خطر الإصابة بالسمنة والسكري. وعندما تقوم هرمونات التوتر بجعل القلب ينبض ويضخ الدم بقوة أكبر وهو الأمر الذي يتبعه حدوث انقباض في الأوعية الدموية لعدة أشهر، يؤدي ذلك إلى ارتفاع خطر الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية. وعندما يخترق الالتهاب الجسم بدون التحقق منه، فإن الجهاز المناعي يمكن أن يصبح مفرط النشاط وعلى أتم الاستعداد لمهاجمة الخلايا التي توقفت عن تمييز خلايا الجسم الطبيعية والخلايا الدخيلة. عندها يبدأ الجهاز المناعي بتصعيد الهجوم ضد خلايا الجسم مسبباً بذلك أمراض المناعة الذاتية. وثمة طريقة أخرى يمكن فيها للجهاز المناعي أن يصبح أكثر استثارة وهي الفشل بالتفريق بين أجسام دخيلة مؤذية (البكتيريا والفيروسات) ومواد غير مؤذية (مثل حبوب اللقاح وذرات الغبار وبعض المكونات المعينة في الأغذية) وعندما يحدث ذلك، تظهر أمراض الحساسية. وأيضاً يعتبر تعرض الجسم للالتهابات طويلة الأمد وسيلة وسبباً رئيسياً لارتفاع خطر الإصابة بأمراض القلب والاكتئاب واضطرابات صحية أخرى خطيرة.

لا شيء مما سبق ذكره يعتبر تكيفاً مع البيئة المحيطة، هل هو كذلك؟ لقد رأينا في الفصل الثاني

كيف أن شغفنا بالمكانة الاجتماعية، مثل شغفنا بالأكل والجنس، من شأنه أن يؤدي بنا إلى الكثير من المشكلات والمتاعب، وذلك لأن ما كان ناجحاً على مر آلاف السنين، لا يعتبر دائماً مناسباً لبيئتنا الحديثة. عدم التطابق نفسه يصحّ على الإرهاق. ولنتذكر بأن أسلافنا كانوا صائدي طرائد وجامعي ثمار لفترة طويلة من الزمن، أطول بكثير من الفترة التي عشناها. يقدر علماء الآثار أن ١٥ بالمائة من سكان عصور ما قبل التاريخ ماتوا بسبب أعمال العنف، وهي نسبة أعلى بخمس مرات من معدلات الوفاة بالقرن العشرين، بما فيها وفيات الحربين العالميتين الأولى والثانية والهولوكست وغيرها من الإبادات الجماعية. قبل ظهور المضادات الحيوية وتعزيز الصحة العامة، كان من شأن عدوى بسيطة أن تتسبب بوفاة أعداد هائلة جداً من الناس. فعلى سبيل المثال، كان العمر المتوقع للإغريق القدماء حوالي خمسة وثلاثين عاماً. وبوجود الكثير جداً من الأمراض والعنف وغياب العلاجات الطبية الحديثة، قدّم العلاج الذاتي للتوتر أفضل جرعة للتغلب على الهجمات الحادة للإصابات والعدوى. واليوم، لا يزال المخزن الهائل لنظام استجابتنا للتهديد هو نفسه، ولكن طبيعة التهديدات قد تغيّرت.

كان أسلافنا يقضون ليلهم في الكهوف قلقين بشأن الغد كما نفعل تماماً، لكن الأمر المختلف بالنسبة لهم هو أن الجوانب السلبية لتوترهم أعلى بكثير من الجوانب الإيجابية. وبخلافهم نحن الآن محظوظون أننا نعيش عمراً كافياً لنموت بدرجة أكبر بسبب أمراض الشيخوخة، بدلاً من أن تقتلنا الحيوانات المفترسة في البراري. إن الجانب السلبي لتلك المقايضة هو أن الآثار الجانبية للتوتر يمكن أن تكون أكثر أذية في البيئة المعاصرة من التهديدات التي تُحدثها لحمايتنا منها. واليوم، في الدول المتقدمة اقتصادياً، تعتبر أمراض القلب والسكتة الدماغية والسكري أحد أهم الأسباب الأكثر شيوعاً للوفاة، وكل الأمراض التي من الممكن أن يكون التوتر هو السبب في حدوثها أو في تفاقمها. والآن ومع كائنات حيّة أقل، لا نزال مع علاج قد يكون أسوأ من المرض.

بما أن التوتر هو طريقة الجسم للتركيز على الأزمات الحالية على حساب المنافع طويلة الأجل، فإنه من غير المستغرب أن تؤدي الشدّة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية المنخفضة إلى حدوث التوتر الجسدي. حيث أكدت العديد من الدراسات المختلفة وجود العلاقة بين المكانة الاجتماعية والتوتر. فعلى سبيل المثال انظر إلى العمل الذي قام به خبير الأعصاب وعالم الأحياء الأمريكي روبرت سابولسكي مع قردة البابون البرية التي تعيش في حديقة وطنية في دولة كينيا. قضى سابولسكي إجازاته الصيفية لعدة سنوات في تفحص تلك القرودة والتعرف على كل عضو في تلك الجماعة وما هي رتبة كل واحد منهم على سلم التراتبية لجماعتهم. ولقياس مستوى التوتر لديهم، قام سابولسكي بتخديرهم باستخدام البندقية المخصصة لتخدير الحيوانات ثم أخذ عينة من دمهم لفحصها. ووجد أنه كلما انخفضت رتبة القرودة على سلم تراتبية المكانة الخاصة بجماعتهم، كلما ارتفعت معها مستويات هرمون التوتر في أجسادهم وكان من المحتمل أكثر أن يعانون من أمراض متعلقة بالتوتر مثل قرحات المعدة. ولكن ذكور قرودة البابون ذوي الرتب العالية والذين يمكنهم التزاوج مع أي أنثى يختارونها والاعتداء على أي ذكر آخر ذي رتبة أقل، كان لديهم مستويات منخفضة جداً من هرمون التوتر في أجسادهم.

وفي صيف إحدى الإجازات لاحظ سابولسكي أن قردة البابون أخذت تبحث عن طعام لها في كومة للنفايات بجانب منزل أحد السياح. كانت تلك النفايات بمثابة البوفيه الذي يسهل الوصول إليه بالنسبة للقردة. وبالطبع لم يكن مسموحاً لكل قردة البابون بالتمتع بالوليمة حيث سيطر الذكور المهيمنون على تلك الغنائم لأنفسهم بعيداً عن بقية أفراد الجماعة، واكتسبوا بعض الوزن الزائد نتيجة لتناولهم لتلك الوجبات السريعة. ومن المفارقة، أن تلك القردة التي أكلت من كومة النفايات تلك، تقلصت أعدادها بسبب موتها نتيجة إصابتها بمرض السل البقري، وهو مرض من المستحيل أن تتعرض له تلك القردة لو حافظت على طعامها الطبيعي الذي اعتادت عليه. وفي غضون ثلاث سنوات مات جميع الذكور المهيمنين، تاركين وراءهم أماكنهم العالية على سلم التراتبية، حيث لم تبقى أية قردة عدوانية على رأس ذلك السلم. وعندما قام سابولسكي بتحليل عينات الدم لتلك القردة التابعة في الجماعة بعد موت القردة المهيمنة وتسطح السلم الاجتماعي، وجد انخفاضاً ملحوظاً في مستوى هرمون التوتر في أجسادهم.

أظهرت الدراسات التي أجريت على القردة في المختبر وجود علاقة بين اكتساب مكانة أعلى في المجموعة وبين انخفاض أعراض التوتر الجسدي، لكن تلك العلاقة لا تخبرنا عما إذا كان انخفاض المكانة هو ما يتسبب في ارتفاع التوتر أو عما إذا كان التوتر هو الذي يتسبب في انخفاض المكانة. أو قد يكون كل ما في الأمر أن القردة التي تشعر بالقلق والتوتر تكون هدفاً لهيمنة باقي القردة التي تشعر بنسبة توتر أقل في الجماعة. وللتأكد من صحة ذلك الاحتمال، قام الباحثون في جامعة ويك فورست مخبرياً بتبديل الهرمية لجماعات القردة المخبرية وذلك بهدف فهم السبب والتأثير بشكل أفضل. بدايةً أكد الباحثون أن هرمون التوتر لدى القردة ذات الرتبة والمكانة المنخفضة يميل إلى الارتفاع في أجسادها. ثم قدموا للقردة منخفضة المكانة خدمة كبيرة بإزاحة القردة المهيمنة نهائياً من المجموعة.

وجد الباحثون أنه مع إزاحة الحيوانات الأكثر هيمنة، ينخفض هرمون التوتر لدى الحيوانات الأقل هيمنة في الجماعة. وبذلك الإزاحة تجد الحيوانات الأقل هيمنة نفسها وبشكل مفاجئ وبغياب الزعيم أنها تمتلك رتبة وحالة اجتماعية أفضل. وبذلك فإن التجارب المخبرية أثبتت صحة ما كان يشتبه به سابولسكي في بحثه الميداني: اختلاف مواقع الرتب على سلم الهرمية هو المسؤول عن الاختلاف في مستويات هرمونات التوتر، وليس العكس.

إن استجابات التوتر المرتفعة لدى أعضاء الرئيسات الأقل رتبة ومكانة تعطي تفسيراً بيولوجياً منطقياً، وذلك لأن أولئك الأعضاء الأقل رتبة ومكانة في جماعتهم هم الأكثر عرضة للضرب والعض والحرمان من العشاء. إنهم يحتاجون إلى تحضير طاقة أجسامهم تأهباً للحالات الطارئة مراراً وتكراراً أكثر من الذكور الأشد هيمنة في الجماعة. لكن هل هذا الأمر يصح للبشر؟ لا يوجد لدينا نحن البشر بالضبط هيراركية مهيمنة، ولكن يوجد لدينا الكثير جداً من هياكل الهرمية المشابهة. ولا نقيسها بواسطة حقن في الطعام وحقوقنا بالتزاوج، بل إننا نقيسها بواسطة المال والسلطة والطبقة الاجتماعية والمقارنات الاجتماعية. واستناداً على البحوث التي أجريت على الحيوانات، فإننا نتوقع أن الأشخاص ذوي المكانة والرتبة المنخفضة يجب أن يكونوا أكثر توتراً من الآخرين.

وبالفعل، بيّنت الدراسات بأن الأشخاص ذوي الدخل المالية المنخفضة يميلون إلى أن يكون لديهم مستويات مرتفعة من هرمونات التوتر في الدم، كالأدرينالين والكورتيزول. ويميلون أيضاً لأن يكون لديهم فرط نشاط في أداء جهازهم المناعي وبالتالي ارتفاع في مستوى الالتهابات في أجسادهم على وجه الخصوص. قامت بعض الدراسات بقياس مستويات هرمونات التوتر والالتهابات لمجموعة من الناس أثناء طريقهم إلى عملهم اليومي المعتاد، وكانت نتائج تلك الدراسات هي أن الأشخاص الأفقر أو الذين يشعرون بأنهم أقل في المكانة الاجتماعية كان مستوى التوتر والالتهاب في أجسادهم أعلى بقليل. ولكن هذه الاختلافات حقيقةً تزداد عندما تُعرض الأشخاص للتوتر وتشاهد كيف تتفاعل أجسادهم مع هذا التوتر.

قامت إحدى الدراسات التي أجراها أندرو ستيتو في جامعة كوليج لندن بتعيين متطوعين من مختلف الوظائف الرفيعة والمتدنية المستوى التابعة للخدمة المدنية البريطانية. حيث أُوكلت إليهم مهاماً يعتبر القيام بها أمراً مثيراً للتوتر. كانت تلك المهام لأحد المجموعات عبارة عن تتبع مسار نجمة ظاهرة على شاشة الكمبيوتر بواسطة القلم. قد تبدو تلك التجربة سهلة، إلا أن التحدي الذي يكمن فيها هو أن المشاركين لن يتمكنوا من رؤية أيديهم وهي تحمل القلم إلا من خلال المرآة حيث تكون الجهات معكوسة لديهم، اليمين يصبح يسار واليسار يصبح يمين. تم تصميم التجربة بحيث تتحرك النجمة بسرعة كافية تضمن وقوع المشاركين بالخطأ، وفي كل مرة ينحرف القلم عن مسار النجمة يصدر الكمبيوتر صوت تنبيه عالي الحدة. وللتأكد من ضمان إثارة التجربة لتوتر المشاركين، تم إخبارهم بأن «الشخص المتوسط القدرات» يمكنه تتبع مسار النجمة بدقة عالية وبدون أخطاء، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى شعورهم بأنهم أقل من المتوسط.

أثناء وبعد مهمة تتبع النجمة، قاس الباحثون معدلات نبضات القلب ومؤشر الالتهاب في دم المشاركين. وقام كلا المشاركين المنتمين إلى الوظائف المتدنية والعالية المستوى بشكل متساوٍ بتقييم تلك المهمة على أنها شاقة ومثيرة للتوتر. لكن الأمر المختلف هو تفاعل واستجابة أجسادهم مع ذلك التوتر. حيث أظهر الأشخاص الذين ينتمون إلى وظائف متدنية المستوى مؤشرات التهاب عالية في مجرى دمهم. وعلى الرغم من أن كلا المجموعتين كان لديهما ارتفاع في معدل نبضات القلب، إلا أن الأشخاص المنتمين إلى الوظائف العليا سرعان ما عاد معدل نبضات قلبهم إلى الطبيعي. أما الأشخاص المنتمون إلى الوظائف المتدنية المستوى فبقي معدل نبضات قلبهم مرتفعاً لمدة تصل إلى ساعتين من انتهاء التجربة.

وبعيداً في قارة أخرى وفي دراسة أجريت في مدينة لوس أنجلوس، حصلت عالمة النفس كيلي موسكاتل وزملاؤها على نتائج مماثلة ولكن باستخدام طرق مختلفة تماماً، كما قاموا أيضاً بإضافة طريقة جديدة مذهلة للدراسة. بدأت هذه الدراسة بإجراء مقابلات مع متطوعين وخلالها يتم تصويرهم بمقاطع فيديو. تخيل كيف ستكون حالة أن يكون المرء موضوع هذه الدراسة:

تذهب إلى مختبر في جامعة كاليفورنيا الواقعة في مدينة لوس أنجلوس، وتملأ استبياناً يتضمن أسئلة عن دخلك المالي ومكانتك على سلم التراتبية الاجتماعية. ثم يقوم طالب جامعي لطيف ومهني بإجراء مقابلة معك ويسألك أسئلة شخصية مثل: ما هو أكثر ما تقتخر به في حياتك؟ ما هو أكثر ما

تريد تغييره في نفسك؟

وفي اليوم التالي تذهب إلى مختبر حيث تقوم ممرضة بغرز إبرة في ذراعك لأخذ عينة من دمك، ثم بعد ذلك تستلقي في جهاز الرنين المغناطيسي لمسح دماغك مسحاً ضوئياً. هذا الجهاز يشبه سرير المشفى، ما عدا أنك تلقي رأسك في وسط دائرة بيضاء اللون وتشبه الكعكة الدائرية. تلك الأداة مصنوعة من نفس البلاستيك الناعم الملمس المستخدم في صنع مقصورات الأمتعة التي تقع فوق رؤوس الركاب في الطائرات وبحجم سيارة فولكس فاغن. وأثناء استلقائك على ذلك السرير ترفع عينيك لتجد شاشة كمبيوتر داخل تلك الكعكات لتعرف بأن هناك مشاركة أخرى ستشاهد المقابلة التي سجلتها للتو وستعطي رأيها بك، وستقوم أنت بمشاهدتها وهي تقيّمك، وأثناء مشاهدة المشاركة لـ فيديو المقابلة وعلى شاشة كمبيوتر صغيرة تظهر شبكة من المربعات، وكل مربع يتضمن وصفاً ما للشخصية، تقوم بتحريك المؤشر على شاشة الكمبيوتر أمامها لتنتهي عليك أو تهينك باختيارها سمات شخصيتك. في دقيقة ما تعتقد بأنك ذكي لدى النقر على مربع «ذكي» بينما في الدقيقة التالية تتقر على مربع «مزعج» يا لها من فظاظة! وفي لحظة لاحقة ترى الجانب الحقيقي لشخصيتك فتتقر على مربع «مهتم-لطيف»، وتستمر هذه العملية لفترة من الوقت. الأمر الذي لا تعرفه هو أن تلك «المشاركة» التي قامت بتقييمك هي مشاركة وهمية، ومن قام بشكل منظم ومدرّس بمدحك وإهانتك بتلك النقرات على فأرة الكمبيوتر هم الباحثون والقائمون على تلك الدراسة. في حين كانوا يجرون المسح الضوئي لدماغك ويراقبون دمك أثناء رحلة الارتفاعات والانخفاضات العاطفية.

ما وجده الباحثون هو حدوث ارتفاع شديد لمستوى الالتهابات في دماء المتطوعين عندما كانوا يُقيّمون من قِبل شخص في الغرفة المجاورة، وكان ذلك الارتفاع ارتفاعاً عالياً جداً لدى الأشخاص الذين صنفوا أنفسهم في مكانة منخفضة على سلم المكانة الاجتماعية.

كان لنتائج تلك الدراسة عدة أمور مدهشة. أولاً: أصبح لدينا دليل تجريبي على أن مستوى تقييم الشخص لنفسه على سلم المكانة الاجتماعية هو أمر يتسبب فعلياً في حدوث تغيرات في مستوى الالتهابات في الدم، وليس فقط ببساطة أنهما أمران مرتبطان، بل إنه أمر مدرّس ومثبت علمياً. ثانياً: استغرقت تلك التجربة بكاملها حوالي تسعين دقيقة وتم الكشف خلالها عن التغيرات الالتهابية خلال أقل من ساعة. كانت الهرمية الاجتماعية البشرية تعبر عن نفسها وتستنزف تقريباً كل خلية في الجسم في غضون دقائق.

كما قدمت تلك الدراسة اكتشافاً مدهشاً آخر، ألا وهو أن نشاط الدماغ في مناطق معينة من القشرة المخية الأمامية هو ما يتحكم في المسار من التقييم الذاتي للمكانة الاجتماعية إلى حدوث الالتهابات في مجرى الدم. وتُنشّط تلك المناطق من الدماغ، من بين أشياء أخرى عندما يقوم الناس بالتفكير في مشاعر وأفكار ووجهات نظر الآخرين. وعلى الرغم من الحاجة للمزيد من الأبحاث لإثبات وتفسير هذا الاستنتاج الأولي لهذه الدراسة، إلا أن الباحثين اقترحوا تفسيراً لتلك النتيجة، وهو أن الدماغ ربما يحسب بفعالية أين ننحدر على سلم المكانة الاجتماعية باستخدام نفس الآلية العصبية التي نستخدمها عادة لتقدير ما يفكر به الآخرون تجاهنا. ومثل قرودة سابلوسكي، فإن البشر في هذه الدراسة كانوا يتفاعلون مع المرتبة المنخفضة على سلم التراتبية كما لو أنها كانت تهديداً ملموساً

على أرض الواقع، حيث قامت أجسادهم بتهيئة استجابة مناعية كما لو أن تلك الإهانات الاجتماعية كانت هجمات يتعرضون لها على أرض الواقع.

ومثلما يحدث في شركات العلاقات العامة والفرق الطبية في حالات الطوارئ والكائنات الحية، فإن هناك طريقة واحدة فقط لإدارة الأزمات: إعطاء الأولوية للحاجة العاجلة والتعامل مع الحاجات المستقبلية لاحقاً. إنه لمن المؤكد بأنه هناك كائنات حية سلكت نهجاً مختلفاً عن ذلك، إلا أنها ليست بيننا اليوم، تلك الكائنات التي تجاهلت أكثر الحاجات إلحاحاً في المواقف الحرجة، كي تشاركنا حكمتها في الحياة. الميل إلى الحاجات العاجلة على حساب الحاجات المستقبلية هو الأمر الذي يقوم به دماغك عندما يفرز الكورتيزول والأدرينالين في مجرى الدم، حيث يقوم دماغك بتحرير الطاقة والالتهابات لتجهيزك لخوض المعارك الحياتية، وإن استدعى ذلك التحرير خطر إصابتك بأمراض القلب والسكري، إذن فليكن كذلك. هذا تماماً ما يفعله دماغك عندما يقوم بتوجيه اهتمامه إلى صوت خشخشة العشب ويتجاهل أي أمر عدا ذلك. عندما تشعر بأنك لا تمتلك شيئاً، تبدأ خلايا جسدك بالشعور بذلك أيضاً حيث تبدأ تلك الخلايا بأخذ ما تحتاجه الآن وتترك حاجتها المستقبلية لاحقاً. ويتمثل دور انعدام المساواة في تلك العملية هو التسريع، حيث يدفع بالناس للشعور بانعدام الأمان. لا يهم ما إذا كنا نقيس تأثيرات انعدام المساواة من خلال إحصائيات معدلات الوفاة أو من خلال شواهد القبور ذات الجرانيت باهت اللون، حيث إننا في نهاية الأمر سندفع ثمن إدارتنا لتلك الأزمات وذلك لأن ما كنا نسميه بـ المستقبل أصبح هو اليوم، وما كنا نقول عنه بـ الوقت اللاحق أصبح الوقت الراهن.

الفصل السادس

الله والمؤامرات ولغة الملائكة

لماذا يصدق الناس ما يحتاجون تصديقه

ماذا ستفعل بـ ٢٨٠٠٠ دولار؟ تشتري سيارة جديدة؟ تدفع الدفعة الأولى للمنزل الذي ترغب بشرائه؟ تسدد ما عليك من القروض الطلابية؟ من حسن حظ السيدة دايان دايسر من مدينة فورت لودرديل أن قام أحد الأشخاص بإنفاق ٢٨٠٠٠ دولار لشراء شطيرة الجبن المشوي التي صنعتها دايان، لم تكن تلك الشطيرة عادية، حيث ظهرت على الجبن بعد شوائه صورة مريم العذراء.

اتضح لاحقاً بأن ظهور صورة مريم العذراء على شطيرة دايان دايسر لم تكن الوحيدة والأولى من نوعها في العالم، بل إن هذه الظهورات تحدث في كل مكان وزمان. فهناك قرويون في روسيا يعبدون شجرة من نوع البتولا ظهر على لحائها صورة المسيح، وهناك أيضاً عائلة من مقاطعة ويلز في بريطانيا تجلت لها صورة المسيح في بقعة المارميت (16). أسفل غطاء (مرطبان)، وأيضاً هناك رجل من مدينة نيويورك وجد صورة للمسيح على سرة برتقالة، وفي السنوات الأخيرة ظهرت صورة العائلة المقدسة في منتج التشيتوس المصنوع من الذرة، وعلى بسكويت البرتزل، وعلى حلقات الذرة المنكهة بالبصل (حلقات البصل) والمعروفة بفَنيانز، وعلى شطائر التاكو للإفطار. لم تكن تلك الجبنة المشوية هي فقط التي تم بيعها، حيث بيعت حلقات البصل تلك بـ ٦٠٠ دولار.

يسمى هذا الميل لتفسير الأشكال الغامضة من حولنا إلى أمور معروفة ومألوفة لدينا بالباريدوليا pareidolia. ولا تعتبر الباريدوليا ظاهرة جديدة علينا نحن البشر حيث لاحظ ديفيد هيوم الفيلسوف التنويري في القرن الثامن عشر بأن هناك نوعاً من «توجّه كوني بين البشر إلى تصور كل الكائنات قياساً على أنفسهم، وإلى إسقاط صفاتهم على كل الموجودات التي يعرفونها ويألفونها... إذ نجد في القمر وجوهاً بشرية ونجد في الغمام جيوشاً محاربة؛ وإذا لم يُصحح الميل الطبيعي الفطري بواسطة التجربة والتفكير، فإنه سينسب الخبث إلى ما يؤلمنا والطيب إلى ما يسعدنا».



يعتمد مدى سهولة رؤيتك لوجه ما في هذه السحب على مدى احتياجك في الوقت الحالي وانهيار تقيجن - الإدارة الوطنية للمحيطات و الغلاف الجوي - وزارة التجارة.

لماذا يكون لدى الناس هذا «التوجه الكوني» لرؤيتهم آلهتهم وقد تبدت لهم في وجباتهم الخفيفة؟ وكما سنعلم في هذه الفصل، فإن تلك الرؤى التي يراها الناس هي رؤى ذات علاقة مرتبطة بعقول الذين يرونها أكثر من ارتباطها بعالم الأرواح. وأولئك الأشخاص الذين يرونها هم أشخاص ليسوا بالمجانين بل على العكس من ذلك تماماً، إنهم يخرطون في نشاط نقوم به جميعاً وبشكل يومي وهو ما يجلب التنظيم والعقلانية إلى حياتنا، الأمر الذي يعمل بدوره على طمأننتنا وإشعارنا بأن هذا العالم حولنا هو عالم جدير بالثقة ويمكن التحكم فيه والتنبؤ به، ويبعد عنا الفوضى والعشوائية التي تدفع بنا للشعور بالتهديد وفقدان السيطرة. فعندما يقوم الناس باستنباط نموذج معين في الفوضى، فهم يستنبطون معاني من عالم فيه القليل جداً من الحدود الواضحة والكثير جداً من المناطق الرمادية. وبالطبع فإن ما نراه ليس مجرد نماذج تبدر إلينا كيفما اتفق، بل إن أغلب ما نراه هو وجوه بشرية مألوفة، ولأن الوجوه موحية وملهمة لنا، فإن وجوه الرموز الدينية تكون أكثر إثارة للذكريات والعواطف. عندما يكون جوهر المعنى هو ما نبحث عنه، فإننا نميل إلى الأمور العظيمة (الملحمة) وعندما نظر الإغريق القدامى عالياً إلى النجوم رأوا فيها كوكبة من الآلهة والأبطال، وليس صبيحة ندبوا لإيصال رسالة.

عادة ما نعتقد بأن تصوراتنا للأشياء من حولنا هي ببساطة تصورات نابعة من تلك الأشياء نفسها، ونفترض بالعادة أيضاً بأن معتقداتنا عن العالم مصدرها العالم نفسه. ولكن كل من تصوراتنا ومعتقداتنا أيضاً تتبع من حاجاتنا ورغباتنا في أية لحظة. فعلى سبيل المثال، يكون الطعام شهياً أكثر عندما نكون جائعين، والإحساس بالحرارة أفضل عندما نشعر بالبرد، ونعتقد أيضاً بأن قصصاً معينة تبدو واقعية وصحيحة عندما نكون في حاجة إلى تفسير أمر ما.

سوف نستكشف في هذا الفصل كيف يؤثر انعدام المساواة في السلطة والثروة والمكانة الاجتماعية في تغيير تصوراتنا ونظرتنا للواقع الذي نعيش فيه، والدين التي نمارس طقوسه،

والمعتقدات التي نؤمن بها ويعزّ علينا تغييرها. نرغب جميعاً بالعيش في عالم مستقر يمكننا فيه توقع أحداثه القادمة، عالم تكبح فيه الفوضى، عالم يوجد به من يديره. نرغب جميعاً بالعيش في عالم تسوده العدالة، عالم تحدث فيه الأمور الطبية للأشخاص الطبيين، عالم يُنفذ فيه العقاب على الأشخاص السيئين نتيجة ما ارتكبوه من جرائم في هذه الحياة. وفي الوقت الذي تبذل فيه عقولنا قصارى جهدها في كل لحظة تحاول فيها ترتيب وفهم هذه الفوضى الموجودة في حياتنا، يتهادى إلينا انعدام المساواة بكامل ثقله جالباً معه المزيد من الاعتلال والفوضى إلى هذا العالم.

هنالك نقطة أساسية متعلقة بالعقل البشري يجب علينا فهمها، وهي أن ذلك العقل عبارة عن «كشّاف أحوال»، فعلى سبيل المثال يستقبل النظام البصري باستمرار كمّاً هائلاً ومتغيراً من الحركة والألوان والضوء وباستخدام أولئك الثلاثة يقوم بتشكيل صورة ثابتة ثلاثية الأبعاد للعالم. ويتفوق العقل البشري في إتمام هذه المهمة بفارق المئات من السنين الضوئية على كل أنظمة الذكاء الاصطناعية الموجودة حالياً، ولا يرجع سبب ذلك التفوق إلى أن العينين عبارة عن أدوات استشعار دقيقة المعايرة (حيث يمكن لبعض الكاميرات الرقمية في بعض الأحيان رؤية والتقاط جوانب أوسع من العين البشرية)، بل إنه يرجع إلى أن العقل البشري هو الأفضل من ناحية القيام بالاستدلال وسرعة الاستنتاج وملء البقع العمياء استناداً إلى الافتراضات التي يكونها العقل البشري عن العالم الخارجي.

من خلال ملء هذه الفجوات يمكننا فهم الدماغ، بسبب الميزة الغريبة لطبيعة تكوين العين البشرية والتي تُحدث مشكلة كبيرة للرؤية. حيث تتكون شبكية العين من طبقة من المستقبلات الضوئية التي تبطن مؤخرة مقلة العين من الداخل، ويتمثل دور تلك المستقبلات الضوئية في تحويل أشعة الضوء المنعكسة عليها (عبر عدسة العين التي أمامها) إلى إشارات عصبية، ينقل العصب البصري الذي يمر من خلال مؤخرة مقلة العين هذه الإشارات إلى الدماغ. ولكن في النقطة التي يخرج منها العصب البصري من مقلة العين فإنه يترك بقعة لا تحوي مستقبلات ضوئية محدثاً بذلك «بقعة عمياء» في كل عين. وعادةً لا نلاحظ في حياتنا اليومية وجود هذا الخل وذلك يرجع إلى أن الدماغ يأخذ الصورة من عين واحدة و«يملاً» ما «يجب» أن نراه من العين الأخرى. وطالما أن إحدى العينين تستطيع رؤية الأجزاء التي تفتقدها العين الأخرى فإننا لن نلاحظ وجود أي بقعة عمياء في العالم من حولنا.

ربما قد سبق أن رأيت شكلاً مثل الذي بالأسفل مُستخدمًا في توضيح وجود البقعة العمياء، لكنني استخدمه هنا لتوضيح كيف يقوم العقل البشري بملء الفجوات الإدراكية. بداية، قم بتغطية عينك اليسرى ثم بواسطة العين اليمنى قم بالتركيز على علامة الزائد، قم بتقريب وإبعاد الصفحة ببطء عن وجهك مع المحافظة على تركيزك على علامة الزائد.

ومن خلال قيامك بتلك العملية يفترض أن تلاحظ أمرين. الأول، أنه على بعد مسافة معينة، ستتضح لك المنطقة الفارغة من خلال اختفاء النقطة. ويرجع ظهور تلك المنطقة العمياء إلى قيامك بحجب المصدر الذي يتزود منه الدماغ بما يلزمه لملء الفراغ الموجود في اللقطة التي تراها، وكان ذلك الحجب من خلال تغطية عينك اليسرى. لكن الأمر الأكثر أهمية هو الأمر الثاني الذي

ستلاحظه، وهو أنه عندما تأخذ تلك النقطة بالاختفاء فإن المربع سيمتلئ بشكل فوري وكامل باللون الرمادي. وبذلك فإن العقل البشري قام بتقديم أفضل ما لديه لترقيع وملء ذلك الفراغ في المربع باستخدام المزيد من لون المربع نفسه.

الآن بدّل بين العينين، قم بتغطية عينك اليمنى ولكن ركز هذه المرة على النقطة. الأمر الذي سيحدث هو أنه عندما تتلاشى علامة الزائد فإن المساحة ستمتلئ باللون الأبيض. فحتى بالنسبة للنشاط الأساسي الذي يقوم به العقل بتمييز النور والظلام، فإنه يعمل على تكوين افتراضات لملء الفراغات المتوقعة حدوثها. العقل البشري يفترض بأن العالم ليس عشوائياً حتى وإن كان لديه قصر في المعلومات التي يتزود بها، فإنه يقوم بتخمين الناقص وملئه بأمان بما يفترضه لأن العالم مكان منظم وقابل للتنبؤ.



يمتلئ نظامك البصري بالمناطق العمياء نتيجة افتراضات دماغك للواقع المحيط بك.

إن الافتراض بأن العالم مكان منظم ويمكن التنبؤ به هو نوع من حجر الأساس العقلي الذي يعمل على تشكيل القاعدة التي يبنى عليها كل ما يتعلق بإدراكنا وتفكيرنا وإيماننا. نحن رائعون في توليد الأنساق المنتظمة والتي من الممكن في بعض الأحيان بأن تتداخل مع قدرتنا على التعرف على عدم وجود أي نسق من الأساس. تخيل بأنك قمت بشراء بطاقة يانصيب واخترت ستة أرقام، أي من تسلسل الأرقام التالية من المرجح بأن يتم السحب عليها بالصدفة: ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ أو ٣٨ ١٧٧ ٤٣ ٩ ٢٤؟ الجواب هو أن كلا التسلسلين متساويين تماماً في نسبة الترجيح. وببساطة يبدو لنا الأمر عكس ذلك لأن النسق في التسلسل الأول هو نسق منظم وخالٍ من العشوائية.

تحفل الإنترنت بالكثير من اللغط حول كيفية اختيار الأرقام المتوقع فوزها في اليانصيب. ينصح ريتشارد لوستيج الفائز في اليانصيب سبع مرات بأن تقوم باختيار الأرقام بنفسك بدلاً من اعتمادك على الآلة. قام الناس بكتابة الكثير من النصائح رداً على نصيحة ريتشارد لوستيج، مفادها اختيار أرقام تواريخ لها معنى خاص، بينما حذر الآخرون من تلك النصيحة تحذيراً شديداً. في حين اقترح أحد الأشخاص بأن «استخدام مولّد أرقام اليانصيب هو أمر من شأنه أن يزيد من احتمالية فوزك باليانصيب وذلك لأنه سيتم اختيار أرقامك عشوائياً وهي نفس الطريقة التي تسلكها آلة اليانصيب للسحب على الأرقام الفائزة.» كل تلك النصائح أساءت فهم ماهية العشوائية، حيث يتم تعريف السحب العشوائي على أنه تساوي كل الأرقام في فرصة ظهورها في عملية السحب، ولا يهم ما إذا كانت تلك الأرقام تم اختيارها من قبلك أو بواسطة الآلة أو من قبل عمك المفضل لديك، ولا يهم أيضاً ما إذا كانت تلك الأرقام عشوائية مثل عشوائية أول رقم هاتف حصلت عليه أو ما إذا كانت تلك الأرقام هي أرقام مهمة بالنسبة لك مثل تاريخ وفاة والدتك. حيث العشوائية تعني انعدام وجود

سبب أو تأثير. مما يعني عدم وجود أي علاقة بين الأسباب التي تدفعك لاختيار الأرقام وبين الأرقام المتوقع ظهورها، حيث لا يوجد هنالك أي نسق أو نظام معين. الأرقام التي تظهر هي أرقام مجردة تماماً من أي معنى، سوى الإعلان عن الفائز.

وفي حال أدى ما أزعج به من انعدام أي منطق أو وزن لأرقام اليانصيب إلى إصابتك بالاكنتاب قليلاً، حينها يمكنك البدء في تقدير مدى ربطنا حاجتنا العاطفية في إيجاد معنى للأشياء بالأنساق والأنماط من حولنا. يعتبر وجود الأنساق في حياتنا أمراً يدعو للطمأنينة، فحتى عندما يكون الموضوع هو مجرد عمليات رقمية عشوائية، فإن الإصرار على عدم وجود نظام ضمني أو معنى أكبر يمكن أن يفهم بأنه أشبه قليلاً بالإساءة.

كما أن الميل والتوجه إلى إيجاد أنساق وأنماط ذات معنى في العشوائية هو أمر كوني، حسب ما صرح به ديفيد هيوم، إلا أن هذا الميل يحدث بشكل أكبر في ظروف معينة أكثر من غيرها. ومن المحتمل بشكل خاص أننا نختلق أنماطاً ذات معنى في الوقت الذي نشعر فيه بالعجز. ومن المحتمل أيضاً بأن قدرتنا على التنبؤ بأنماط الأحداث وبالتالي تعمل قدرتنا على التحكم على تزويدنا بالقليل من العزاء والمواساة في الوقت الذي نشعر فيه بانعدام سيطرتنا وتحكمنا. وهذه النقطة قد تشرح السبب الذي يجعل المحاسب الذي يقود سيارة فولفو لا يبدو أبداً بأنه هو من يرى المسيح في توست القرفة الخاصة به.

قام عالما النفس جنيفر ويتسون وآدم جالينكسي باختبار العلاقة بين العجز والباريدوليا من خلال إجراء سلسلة من التجارب. حيث قام الباحثان في إحدى التجارب بجعل مجموعة من المشاركين يشعرون بلحظات من العجز وذلك بالطلب منهم بأن يقوموا بسرد قصة مفصلة يصفون فيها أمراً حدث لهم في حياتهم وجعلهم يشعرون بانعدام تحكمهم في الأمور من حولهم. في حين تم الطلب من مجموعة أخرى من المشاركين بأن يقوموا بسرد قصة مفصلة يصفون فيها أمراً حدث لهم في حياتهم وجعلهم يشعرون بكامل سيطرتهم على الأمور من حولهم. بعد ذلك عُرض على المشاركين (من كلا المجموعتين) صوراً تتضمن تشويشاً باللون الأبيض والأسود وتم إخبارهم بأن تلك الصور المشوشة تتضمن رسماً خفياً يجب عليهم تحديده. جميع الصور كانت محض تشويش، لكن المشاركين الذين تم إشعارهم بالعجز كانوا أكثر عرضة بثلاث مرات لرؤية (رسم) خفي في ذلك التشويش، حيث عمل شعور العجز العابر على جعل أدمغة المشاركين تعمل جاهدة لاستخراج معنى من اللاشيء.

كانت نتيجة البحث الذي أجراه عالم النفس نايك إبلاي وزملاؤه أن الناس الذين يشعرون بأنهم متروكون ومهمّلون ويفتقدون للتواصل الاجتماعي، ربما يبدوون بتجسيد الأشياء المحيطة بهم. أولئك الناس تكون علاقتهم مع حيواناتهم الأليفة كما علاقتهم بالبشر. وتبدو لهم الآلهة والأشباح والشياطين بمثابة كيانات حقيقية وحيّة، وحتى الأشياء الجامدة مثل ساعة المنبه قد تلوح واعية وحساسة بعيداً عن كونها تقصد الإزعاج.

تعتبر رؤية الأشخاص في الغيوم أو في الساعات أو في شطائر الجبن هي إحدى طرق فرض

النظام على الفوضى لكنها ليست الطريقة الأكثر شيوعاً. والطريقة الأكثر شيوعاً لإيجاد معنى في حياتنا هي تليفق قصص عن العالم حولنا. والأحداث الأكثر تأثيراً هي تلك التي تجعل كل شيء يبدو متلائماً مع بعضه البعض بطريقة نستطيع فهمها، لكن بعض القصص الأكثر إرضاءً لذائقنا هي تلك التي لها طابع من المحتمل أن يكون غير حقيقي أو غير صحيح.

مؤخراً، قام مستطلع للرأي بسؤال أكثر من ١٢٠٠ أمريكي حول ما يعتقدونه عن مجموعة متنوعة من القضايا. وكانت نتيجة ذلك الاستطلاع بأن ثمانية وعشرين منهم يعتقد بأن هناك قوة غامضة ذات أجندة عالمية تتآمر لتحكم العالم من خلال نظام عالمي جديد واستبدادي. ويعتبر هذا النظام العالمي الجديد هو نظرية مؤامرة مرتبطة بالمتورين، وهم عبارة عن منظمة سرية تزعم إدارتها لمنظمات أخرى مثل الماسونية وصناعة السينما في هوليوود، وحكومة الولايات المتحدة. وفي رواية أخرى تعرف منظمة المتورين أيضاً بـ «الشبح»، وهم عصابة من الأشخاص الخارقين في كتب وأفلام جيمس بوند. ولو قدرت نسبة الثماني والعشرين لنظرية المؤامرة تلك على جميع السكان في هذا البلد فسيصل عدد الأمريكيين الذين يؤمنون بها إلى حوالي ثمانين وثمانين مليون أمريكي.

وَجَدَ ذلك الاستطلاع ذاته بأن واحداً وعشرين بالمائة من المشاركين يعتقدون بوجود مخلوقات فضائية تهشمت أطباقها الطائرة في سماء مدينة روزويل التابعة لولاية نيومكسيكو الأمريكية، وأن الحكومة قامت بالتعتيم على تلك الحادثة، ويعتقد واحد وخمسون بالمائة منهم بأن حادثة اغتيال جون كينيدي كانت مؤامرة مخططاً لها وليس مجرد عملية اغتيال بواسطة رجل مسلح، بينما يعتقد سبعة وثلاثين بالمائة منهم بأن الاحتباس الحراري مجرد خدعة، في حين يعتقد خمسة عشر بالمائة منهم بأن صناعة المنتجات الصيدلانية متحالفة مع الصناعة الطبية لاختراع أمراض جديدة بهدف كسب المزيد من الأموال، فيما يعتقد أربعة بالمائة منهم (أي حوالي اثني عشر مليون أمريكي) بأن «الزواحف المتحولة تقوم بالتحكم في عالمنا من خلال اتخاذها هيئات بشرية ليمسكوا بالقوة السياسية بهدف التلاعب بمجتمعاتنا».

كما يعتقد حوالي نصف الأمريكيين بوجود نوع من أشكال نظرية المؤامرة، ظلت هذه النسبة ثابتة تقريباً لعقود من الزمن. حيث تأخذ تلك النظريات أشكالاً متغيرة، وغالباً ما كانت تنتشر تلك النظريات على نطاق واسع بين الناس، معبأة بالكثير من الغضب والعنف، فقط لتصبح لا محالة طيّ النسيان. وفي وقت قريب من الحرب الأهلية الأمريكية، انتشرت نظرية مؤامرة بشكل واسع في شمال أمريكا، مفادها أن هنالك عصابة سرية من رجال أقوياء من الولايات التي تمارس العبودية، والتي تسمى بعصابة «سلطة العبيد» قامت بشكل سري باغتيال مسؤولين في الحكومة الاتحادية الأمريكية.

خلاصة الأمر، يمكننا القول أن نظريات المؤامرة تتمحور حول أمرين لا ثالث لهما: السلطة وانعدام الثقة. ويمكنك فهم عمل المؤامرة من خلال معرفة مَنْ الذين يؤمنون بتلك النظريات وما هي الفئة المستهدفة لتلك المؤامرة. يعتبر أفضل مؤشر لمعرفة نظريات المؤامرة التي يؤمن بها الناس بأي وقت كان، هو معرفة من هو الحزب السياسي الحاكم. حيث وجد نفس الاستطلاع الذي قمت

بذكره أنفاً بأن الديمقراطيين أكثر احتمالاً من الجمهوريين لأن يؤمنوا بأن الحكومة الأمريكية (التي كانت تحت رئاسة جورج دبليو بوش) هي من سمحت لأحداث ١١/٩ الإرهابية بأن تحدث في البلاد. في حين انتشرت نظريات مؤامرة مختلفة في ظل إدارة أوباما، وكانت تلك النظريات تدّعي بأن باراك أوباما ليس من مواليد أمريكا وأنه يعتنق الديانة الإسلامية في السر وسوى إلى ذلك، ولكن عندما يشعر الناس بالعجز فإنهم يميلون إلى الإيمان بالمؤامرات التي يعمل على تنفيذها الأقوياء.

قام ويتسون وجالانكسي بالتحقق من العلاقة بين السلطة ونظريات المؤامرة من خلال استخدام نفس الطرق التي اعتادوا على استخدامها لدراسة العلاقة بين السلطة والباريدوليا. حيث أجروا تجربة تتضمن مجموعتين من المشاركين وجعلوا إحدى المجموعتين تشعر بالعجز والمجموعة الأخرى تشعر بالقوة والسلطة. بعد ذلك عُرض على المشاركين من كلا المجموعتين عدة تفسيرات للأحداث اليومية تركز على جنون العظمة ونظرية المؤامرة، وطلب من المشاركين بأن يحددوا هل تلك التفسيرات منطقية أم لا.

كانت النتيجة أن المجموعة التي تم إشعارها بالعجز والضعف وجدت أن تفسير المؤامرة لتلك الأحداث هو تفسير منطقي وقابل للتصديق أكثر من المجموعة التي تم إشعارها بالقوة والسلطة. أدت هذه التجربة إلى تأسيس بعض من أوائل أدلة السبب والتأثير، الأدلة التي تدفع الناس إلى الإيمان بالمؤامرات. إن قابلية تصديق الناس الذين يشعرون بالعجز بنظريات المؤامرة هو أمر لا علاقة له بالسمات الشخصية لكل فرد منهم مثل الذكاء والتعليم والذوق الشخصي، بل إنه أمر يتعلق بالظروف التي يجد أولئك الأشخاص أنفسهم محاطين بها، والتي بدورها قد تصبح عاملاً محفزاً لذلك التصديق والإيمان.

في دراسة قام بإجرائها عالم النفس مايكل وود وزملاؤه على نظريتين من نظريات المؤامرة حول مقتل أسامة بن لادن في فترة حكم باراك أوباما. تنص نظرية المؤامرة الأولى على أن القوات البحرية الأمريكية الخاصة لم تقم بالفعل بقتل أسامة بن لادن حيث إنه كان ميتاً قبل فترة طويلة من قيام القوات العسكرية بشن الغارات على مكان إقامته في المجمع السكني في مدينة أبوت آباد الباكستانية؛ حتى أن الغارة نُفذت فقط من أجل أن يحسب فضل قتل أسامة بن لادن للرئيس الأمريكي باراك أوباما. أما النظرية الثانية فتتص على أن أسامة بن لادن لا يزال حياً حتى اليوم، ويعمل حالياً على إدارة القاعدة سراً والتخطيط لهجمات إرهابية جديدة.

ما وجده مايكل وود في تلك الدراسة كان لافتاً للنظر، حيث أن المشاركين الذين آمنوا بقوة بصحة النظرية الأولى، أكثر احتمالاً أن يؤمنوا بصحة النظرية الثانية أيضاً، ومع ذلك، منطقياً من الممكن بصعوبة أن يكون بن لادن ميتاً قبل الغارة الجوية والتي من المفترض أنها قتلتها، أو أنه لا يزال على قيد الحياة. وجد الباحثون أن انعدام الثقة في السلطات الحكومية هو أمر مشترك: حيث كان أولئك المشاركون الذين يعتقدون بأن رجال السلطة يميلون إلى خداع وتضليل الرأي العام من خلال التعتيم على بعض الحقائق، كانوا أكثر ميلاً لتصديق وتقبل كلتا النظريتين. إن انعدام الثقة - وليس انعدام الحقائق أو المنطق - يؤدي بالنظريات المتناقضة لأن تبدو أكثر قابلية للتصديق من التقارير الرسمية، حيث يتطلب التصديق بنظريات المؤامرة بأن تقوم بتبديل القليل من إيمانك بأن

العالم مكان جيد ومُنصف وعادل، بالإيمان بأن هناك شخصاً - أي شخص - يمتلك القدرة الكاملة على التحكم بكل شيء.

لكنه ليس من الضروري أن يتخلى الشخص عن إيمانه بأن العالم مكان جيد ومُنصف، حيث يستطيع الناس المحافظة على شعورهم بأن العالم مكان منظم من خلال إصرارهم على أنه كذلك بكل بساطة، قبل عدة سنوات، قام عالم النفس ميل ليرنر بالإشارة إلى هذه النقطة من خلال إجراء تجربة تفصيلية، في إحدى غرف المختبر جلست سيدة شابة على مكتب مليء بالأسلاك والأقطاب الكهربائية والتي تم توصيلها بها. لكي تجري اختباراً لقدراتها في التعلم والذاكرة وذلك من خلال استماعها إلى أسئلة تطرح عليها من قبل الباحثين وتقوم هي بالإجابة على تلك الأسئلة. يقوم الباحثون في تلك التجربة بصعق الفتاة كهربائياً في كل مرة تخطئ فيها بالإجابة- وأخطأت كثيراً- كان المشهد مؤثراً ومحزناً، حيث كانت الفتاة تصرخ وتبكي من أثر تلك الصعقات. لم تتوقف التجربة تعاطفاً مع بكائها وصراخها، بل استمرت جلسة بعد جلسة.

وفي الحقيقة، كانت تلك الفتاة مجرد ممثلة تتلقى صعقات مزيفة، حيث أن المشاركين الفعليين في التجربة كانوا على الجانب الآخر من المختبر يشاهدون التعذيب العلمي المكشوف والمراقب من خلال مرآة تسمح لهم برؤية ما يحدث. فقد طلب من المشاركين بأن يقيموا المشاعر التي تمر بها تلك الفتاة بين الفينة والأخرى أثناء مشاهدتهم لها وهي تتعذب في ذاك المختبر. وبعد مرور عشرة دقائق من الصعق الكهربائي المستمر، تم إخبار إحدى المجموعتين بأن هناك استراحة، حيث سيتم استئناف سؤال الفتاة وصعقها بعد انتهاء فترة الراحة. أما المجموعة الثانية فتم إخبارهم بأنه سيتوقف صعق الفتاة وبعد انتهاء فترة الاستراحة ستعطى مبلغاً مالياً كنوع من التعويض عن شعورها بالألم الذي تعرضت له. بعد ذلك طلب من المشاركين (من كلا المجموعتين) بأن يقيموا انطباعاتهم عن تلك الفتاة. كانت تلك الانطباعات هي كل ما يرغب الباحثون في معرفته وهي أساس إجراء هذه الدراسة.

بالنسبة للمجموعة التي اعتقدت بأنه سيتم تعويض الفتاة عن الألم الذي تعرضت له، فإن العالم في نظرهم هو مكان عادل ومُنصف، نعم هي بالفعل تعرضت للألم لكن التعويض المالي سيعمل على موازنة الكفة. أما بالنسبة للمجموعة التي اعتقدت بأنه سيتم استئناف مشاهد التعذيب الذي ستعرض له الفتاة، فبدا لهم الموقف عبثياً وظالماً. حيث كانت تلك الفتاة المسكينة، بنظرهم، تعاني من أجل دراسة سخيفة وتافهة، وكان بالفعل معهم كامل الحق بأن يشعروا بالتعاطف مع تلك الفتاة الضحية والمسكينة. وعلى الرغم من شعورهم بالأسى عليها، إلا أنهم وصفوها بـ (غير المحبوبة وغير الناضجة) وقالوا أيضاً بأنه من الصعب أن يعجبوا أو يحترموا أمثالها ولا يرغبون بالتعرف إليها. كان هذا الانطباع مطابقاً تماماً لما تنبأ به ميل ليرنر. حيث أن كل ما قام به أولئك المشاركون من تلفيق واختلاق للعيوب في تلك الفتاة هو محاولة منهم في الحفاظ على يقينهم بأن العالم مكان مُنصف ومتوازن. يعمل منطقنا الأخلاقي بنفس الطريقة التي يعمل بها نظامنا البصري، حيث يقوم بملء ما ينقص المشهد بما يفرضه ويراه منطقياً: الأمور الجيدة تحدث للأشخاص الجيدين والأمور السيئة تحدث للأشخاص السيئين. ومن هذا المنطلق، فإن تلك المشاركة التي تعرضت للتعذيب من

الضروري بأنها كانت مشاركة سيئة وإلا فإنها لن تتعرض لمثل هذا التعذيب، فالكفة هنا متوازنة وكل شيء على ما يرام.

نحن نرى نفس هذه المنطقية عندما يقوم الناس بمحاولة تفسير لماذا يجني بعض الأشخاص مالاً أكثر من غيرهم. فقد أجرى ميل ليرنر تجربة أخرى قام فيها بإجلاس شخصين على طاولة لحل الغاز وأحاجي وأيضاً بوجود مشاركين يراقبون من خلال مرآة وأخبرهم بأنه سيدفع المال لواحد منهم وسيكون اختياره من خلال سحب اسم الفائز المحظوظ من قبعة وسيحصل على المال بينما سيرجع الآخر إلى بيته خالي اليدين. وعلى الرغم من أن المشاركين قد رأوا للتو بأنه تم اختيار اسم الفائز عشوائياً إلا أنهم اعتقدوا بأن الفائز قد عمل بجد أكثر وساهم في حل الأحجية وكان أكثر إبداعاً في حله من الشخص الخاسر. كان اليقين بأننا نحصل على ما نستحق ونستحق ما نحصل، قوي بشكل كبير إلى درجة أنه جعل المشاركين في هذه الدراسة يصدون عن الدليل المنطقي، بل وجعلهم أيضاً يؤمنون بأن الدخل المالي هو أمر متعلق بالفرص العشوائية وليس بجدهم واجتهادهم.

إن ميلنا إلى أن نحرف طريقنا ذهنياً باتجاه العدالة ينطبق علينا أيضاً. لقد ألهمت التجارب التي أجراها عالم النفس ميل ليرنر الخبير الاقتصادي جفري بتلر، إذ تساءل مؤخراً عما إذا كان الدخل المرتفع للأشخاص من شأنه أن يجعلهم يقيمون أنفسهم بشكل مرتفع أيضاً. ولاختبار هذه الفكرة، قام بإحضار مجموعات من المشاركين في هذا البحث لإجراء اختبار للتفكير المنطقي، وفي كل مجموعة من تلك المجموعات تم إخبار نصفهم بأنهم سيقبضون أربعة دولارات مقابل كل إجابة صحيحة، بينما النصف الآخر منهم سيقبضون دولارين فقط. وكما حدث في تجربة ميل ليرنر، قام الباحثون بكل وضوح بإخبار المشاركين بأن اختيار من سيقبض دولارين ومن سيقبض أربعة دولارات سيكون اختياراً عشوائياً. وبعد أن انتهى المشاركون من الإجابة على عشرة أسئلة، طلب منهم بأن يقيموا قدراتهم التفكيرية. وعلى الرغم من أن أداء المشاركين الذين قبضوا مالاً أعلى لم يكن أفضل من أداء زملائهم المشاركين الذين قبضوا مالاً أقل في ذلك الاختبار، إلا أنهم رأوا أنفسهم (الذين وقع عليهم السحب فقبضوا مالاً أعلى) أنهم أشخاص يعملون بجهد أكثر ويفكرون بطريقة تتفوق على زملائهم الذين يقبضون مالاً أقل لأنه لم يقع عليهم السحب. قد يكون الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن أولئك المشاركين الذين لم يقع عليهم السحب قاموا بموافقتهم الرأي حيث قيموا أنفسهم على أنهم أشخاص أقل كفاءة.

وفي عالمنا الواقعي وبعيداً عن تلك التجربة، حيث يبنى الفشل والنجاح على قاعدة مكونة من مزيج معقد من الموهبة والجهد والفرصة، فإننا نكون أكثر استعداداً لتبني قناعة أن الناس يحصلون على ما يستحقون. وبالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يكون الفشل من نصيبهم فإن تلك القناعة تكون ضد مصلحتهم الشخصية، لكنها لا تزال تحقق الهدف وهو مساعدتهم في شعورهم بالطمأنينة بأن العالم مكان خالٍ من الفوضى. قد لا يكون نظام هذا العالم يعمل لتحقيق مصالحهم لكن المهم في نهاية الأمر أن هناك نظاماً يتم اتباعه.

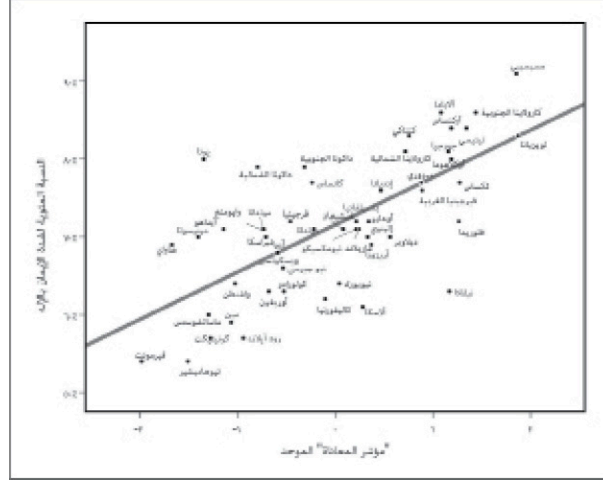
معظم الناس لا يتوقفون عند قناعة أن العالم ذو نظام عادل، بل تمتد قناعتهم إلى أن سبب عدل ذلك النظام هو أنه في أيدي أمينة ويُدَار من قِبَل عادلٍ لا يرضى بالظلم. تعمل الديانات التوحيدية على

طمأنة المؤمنين بها بأن هذا الكون يدار بواسطة إله قوي ومسيطر على هذا الكون ومحسن على عباده وعالم بأحوالهم. يقدم هذا النوع من الإيمان الكثير من الفائدة لأصحابه، على عكس الإيمان بنظريات المؤامرة والتي تؤدي بدورها إلى تزويد الكون بالسيطرة الظالمة على حساب الخير. حيث يعتبر الإيمان الديني محققاً لمصلحة الناس في هذا الكون.

تنطبق بالتساوي العلوم المهمة بالأصول النفسية مع نتائج الإيمان الديني سواءً أكان جوهر ذلك الإيمان صحيحاً أم خاطئاً، وتنطبق بالتساوي أيضاً على المؤمنين بالديانة الإسلامية والمسيحية واليهودية والهندوسية الذين يؤمنون بأمور حصرية ومتبادلة عن الله. ولا يعني بالضرورة شرح الأسباب النفسية للإيمان وعدم الإيمان بأنه لا يوجد هنالك إله، تماماً مثل شرح سبب حصول المؤمنين على منافع عاطفية مقارنة بالذين لا يؤمنون لا تعني أنّ الله موجود. وكما قال فولتير، «إذا لم يكن الله موجوداً، فسيكون من الضروري اختراعه».

إذا كان الشعور بالعجز وعدم الأمان يدفع الناس لأن يكونوا أكثر عرضة لمشاهدة الأنماط والأنساق من حولهم وتصديق نظريات المؤامرة، فإنه من المنطقي بأن يعمل على تقوية الإيمان الديني. حيث أثبتت الدراسات التي أجراها البروفيسور في علم النفس والأعصاب أيرون كاي بأنه عندما يتم دفع الأشخاص للشعور بالعجز أو أن هذا العالم هو عالم فوضوي ولا يمكن التنبؤ به، فإنهم يميلون إلى أن يكون لديهم قناعات قوية في قدرة الله على التحكم بالكون. وغالباً ما يعزّي المؤمنون أنفسهم بما يجري لهم في هذا العالم بترديد شعارات لمعتقدات يؤمنون بها، مثل: «دع أمرك لله وتوكل عليه» و«كل شيء يحدث لسبب». حيث يعمل الشعور بالعجز على تضخيم جاذبية الإيمان بتلك المعتقدات.

وفي دراسة أخرى، قام عالما النفس كارت جراي ودانيال ويجنر بالبحث في الولايات الأمريكية حيث الأشخاص الذين يواجهون معاناة أكثر في حياتهم والأشخاص الذين يواجهون معاناة أقل وذلك من خلال تجميع إحصائيات وفيات الأطفال الرضع، والوفاة الناتجة عن مرض السرطان والأمراض المعدية، وجرائم العنف والبيئات الخطيرة. ولقد قاموا أيضاً بإنشاء رسم بياني (٦.٣) خطي ذي محورين، أفقي وعمودي. المحور الأفقي كان عبارة عن مؤشر بكل تلك العلل السابقة وأسموه بـ «مؤشر المعاناة»، والمحور العمودي يتضمن نسبة الأشخاص في كل ولاية والذين صوتوا في استفتاء الرأي بأنهم يؤمنون بالله بقوة. يعاني معظم علماء الدين في طرح المشكلات الفلسفية للدين، ويعود سبب تلك المعاناة إلى أنه يُعتبر من غير المنطقي بأن الله الكريم القوي القادر على كل شيء يسمح بحدوث مثل هذا البؤس. ولكن ما وجدته الباحثون هو أن البؤس والمعاناة لا تُشكل مشكلة دينية لمعظم المؤمنين بل إنها على العكس تماماً من ذلك. كما قال النبي يعقوب، كلما زاد بؤس الناس، كلما زاد إيمانهم بالله.



الولايات التي يكون لدى الناس فيها معاناة أكثر، يكون لديهم إيمان أقوى بالإله نتيجة لتلك المعاناة. مقتبس من غراي و يجنر، تم إجراء هذه الإحصائية في عام ٢٠١٠

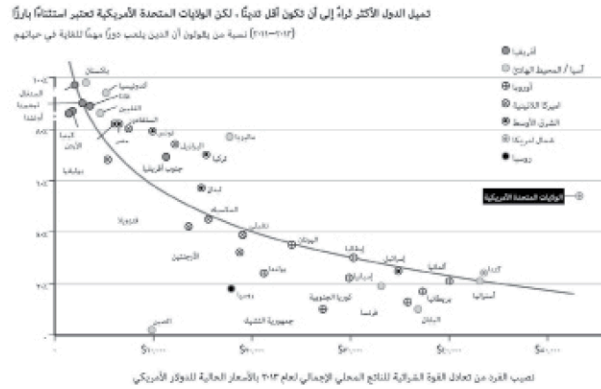
يدعم هذا الاكتشاف الفكرة القائلة بأنه كلما أصبحت المجتمعات أكثر ثراء وتطوراً اقتصادياً، كلما أدى ذلك إلى ضعف الإيمان الديني. تم تبني هذه الفكرة على مستوى العالم تقريباً من قبل مفكري القرن التاسع عشر العظماء. كان كل من كارل ماركس وسيغموند فرويد و إيميل دوركهيم يختلفون في تفكيرهم اختلافاً كبيراً، ولكنهم يتفقون جميعهم اتفاقاً تاماً على أنه كلما ترسخت جذور أفكار النهضة الأوروبية إلى جانب التقدم في الثورة الصناعية، كلما ضُفَّ الدين واستُبدلَ بالنظريات العلمية. مثل نظرية النشوء- التطور التي حلت مكان الإيمان بالخلق- التكوين- كما استبدلت فكرة الخطيئة والتلبس الشيطاني كمسبب للمرض بالنظرية الجرثومية العلمية. فكما سيطر الطب الحديث على الأمراض التي فتكت بالبشر على مدى آلاف السنين، كلما تنازل المعالجون الروحيون والكهنة عن سلطتهم للأطباء وسهلت التكنولوجيا، من الزراعة الحديثة إلى أجهزة التكييف، حياة البشر وجعلتها أكثر صلابة وتحملاً لتقلبات الطبيعة من حولنا. وسيلح علم الكونيات محل علم الأساطير في البحث عن فهم كيف يعمل الكون وفهم أصولنا البشرية. وكل هذه التغيرات مجتمعة ستشجع السعي وراء السبب والدليل على أنهما الطريقة الأكثر ضماناً للإجابة عن أسئلة الحياة الكبرى ولحل المشكلات اليومية.

بحلول منتصف القرن العشرين، كان يؤخذ بالنظرية العلمانية على أنها بند من بنود الإيمان. وفي عام ١٩٦٨م، كتب عالم الاجتماع بيتر برجر في جريدة نيويورك تايمز الأمريكية: «بحلول القرن الواحد والعشرين، من المحتمل أنه لن يتم العثور على المؤمنين الدينيين إلا في طوائف صغيرة، حيث يجتمعون معاً لمقاومة الثقافة العلمانية في أرجاء العالم... ويكونون في مأزق متنام كحالة مُنجم من التنبؤ أثناء زيارة مطولة لجامعة أمريكية. واستناداً إلى قوة الثقافة التتويرية، فإن البشر لن يحتاجوا إلى الله بعد ذلك.

هل بالفعل ستتحقق نبوءة أولئك المفكرين العظماء؟ الإجابة هي لا ونعم في الوقت نفسه. لا،

بمعنى أن معظم العالم سيبقى متديناً بوضوح وبعمق، حيث تشير الاستبيانات إلى أن حوالي ٨٤ بالمائة من عدد سكان العالم والبالغ ٧ مليار نسمة يعتقدون ديانة يؤمنون بها. لكن قد لا يعكس هذا الاعتناق فشل النظرية التي تنص على أن العلم سيحل محل الدين بقدر ما هو فشل في تنبؤ مدى انعدام تساوي التطور الاقتصادي والعلمي الذي حدث في جميع أنحاء العالم. في هذه الأيام هناك من الأماكن التي لا تشابه فيها الحياة اليومية على الإطلاق حياة الجامعة التي تصورها بيتر برجر.

لذا، هل الدول المتطورة اقتصادياً تعتبر أقل تديناً من الدول الفقيرة؟ إجابة هذا السؤال هو نعم بكل تأكيد. فكما ترى في بيانات استطلاعات الرأي الموضحة في الشكل ٦.٤، كلما زاد ثراء الدولة، كلما قلت أهمية الدين لدى المواطن العادي. وإذا نظرنا إلى مقاييس أخرى فسيمكننا رؤية التوجه ذاته، مثل تواتر الحضور إلى الكنسية أو نسبة الناس التي تؤمن بالله. وما يزيد عن ٩٠ بالمائة من سكان الدول الفقيرة جداً مثل باكستان ونيجيريا يقولون إن الدين هو ركيزة مهمة جداً في حياتهم، بينما تتخفض تلك النسبة في الدول الغنية مثل كندا وأستراليا وألمانيا إلى ٢٠ بالمائة فقط. ويعتبر هذا الأمر تأكيداً واضحاً بأنه كلما أصبحت حياة الناس أكثر أماناً من الناحية المالية كلما قلت حاجتهم إلى تعزية أنفسهم بالدين.



تميل الولايات الأغنى لأن تكون أقل تديناً. تم اقتباس البيانات من مركز بيو للأبحاث.

إلا أن هنالك استثنائين عن ذلك النسق، الأول هو أمر يسهل شرحه أما الثاني فليس كذلك. فالاستثناء الأول هو دولة الصين. حيث قامت الحكومة الشيوعية الصينية بقمع الدين لعقود من الزمن، فليس مستغرباً أن الدين سيكون أقل أهمية مما كان متوقعاً من دولة ذات دخل مالي متوسط. أما الاستثناء الثاني والمحير فهو دولة الولايات المتحدة الأمريكية ذات الالتزام الديني العالي، فعلى الرغم من كونها الأعلى ارتفاعاً في مستوى الدخل المالي للفرد في تلك الاستبيانات، إلا أن مقاييس الإيمان الديني لديها تتساوى مع المكسيك ولبنان وجنوب أفريقيا.

إنه لمن المؤكد بأن انتشار الدين يعتمد على العديد من العوامل تتجاوز الدخل المالي، مثل تاريخ وثقافة دولة ما. فلنأخذ أمريكا على سبيل المثال، تأسست أمريكا إلى حد بعيد على يد المهاجرين

الباحثين لهم عن ملجأ من الاضطهاد الديني، وهو الأمر الذي من شأنه بأن يفسر بعض المستويات غير العادية للتدين. في حين اقترحت دراسة حديثة تفسيراً آخر أكثر قوة لارتفاع ذلك المستوى من التدين. حيث قام العالم السياسي فريديك سولت باستخدام أوسع قاعدة بيانات متاحة وذلك بهدف دراسة مستوى الإيمان الديني الموجود في دول العالم، وكان قادراً على شرح كل من التوجهات العامة بالإضافة إلى الأمور الناشئة. وبعد حصر الفروقات بين الدول الشيوعية والدول غير الشيوعية، لم تعد الصين دولة ناشئة عن ذلك النسق. لكن الأمر الأكثر أهمية من ذلك كان دور انعدام المساواة في الدخل المالي لأفراد تلك الدول. حيث كانت الدول التي تتمتع بمستوى عالٍ من انعدام المساواة تتمتع بمستوى ديني عالي أكثر من الدول التي تخلو من انعدام المساواة. كان لانعدام المساواة في الدخل المالي تأثيراً كبيراً يعادل تقريباً مستوى تأثير الدخل المالي نفسه. وبمجرد ما تم سرد البيانات في رسم توضيحي للعلاقة بين الدين وانعدام المساواة والدخل المالي (بدلاً من متوسط الدخل المالي)، لم تعد أمريكا دولة خارجة عن ذلك النسق، لكنها هبطت بمحاذاة النسق الخطي حيث كانت في المكان المتوقع لها، ارتفاع عالٍ في مستوى التدين وانعدام المساواة. يمكن لكلا الفقر وانعدام المساواة أن يشرحا حجم الاختلاف في مستوى التدين- التقوى- عبر بلدان العالم.

على الرغم من عدم وجود أبحاث تحدد سبب وجود الترابط بين انعدام المساواة والتدين، إلا أنني أتوقع بأنه عندما يتم إجراء البحث اللازم ونشره، فإن العامل الرئيسي لتلك العلاقة هو المشاعر الداخلية للمكانة الاجتماعية والأمان. لقد رأينا سابقاً في الفصل الثاني بأن الشخص العادي يشعر بأنه أفقر مما هو عليه وأقل في المكانة الاجتماعية عندما يكون في أماكن مليئة بانعدام المساواة. ولقد عرفنا أيضاً في هذا الفصل بأنه عندما يشعر الناس بالعجز أو الهجر، فإنهم يكونون أكثر عرضة لربط أنفسهم بالأنظمة العقائدية والتي من شأنها أن تساعدهم على أن يروا العالم على أنه مكان عادل وذو معنى ويمكن التنبؤ به. ولا نحتاج إلى جهد كبير عندما نتصور بأنه عندما يرتفع مستوى انعدام المساواة، فإن كل شخص سيشعر بأمان أقل وسيبدو الدين أكثر جاذبية. ويجب التنويه هنا إلى أن هذا الانجذاب هو انجذاب لا علاقة له بمعتقدات خاصة لدين معين. ففي الدول التي تغلب عليها الديانة المسيحية يرتبط انعدام المساواة بإيمان عظيم بالمسيح، أما في الدول التي تغلب فيها الديانة الإسلامية فإن انعدام المساواة ترتبط فيها بإيمان أكبر بالنبي محمد، وما إلى ذلك. حيث يميل الناس إلى النسق الإيماني الذي يلونون به عندما يشعرون بعدم الأمان في هذا العالم.

يحب العلمانيون الإشارة إلى التناقضات المنطقية الموجودة في الكتب المقدسة وإلى طبيعة المعجزات المستحيلة وإلى استحالة إثبات القوى الخارقة للطبيعة، إلا أن العديد من علماء الدين احتجوا بأن الحقائق والمنطق هي أمور لا علاقة لها بجذور وأساس إيمان معظم المؤمنين. حيث إن الدين لا يعتبر مجموعة منطقية من المقترحات التي إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون خاطئة، فهو ليس نظرية علمية. إن العديد من الناس آمنوا بما يؤمنون به بسبب تجارب ذاتية خاصة مروا بها، قد تكون عبارة عن انبهار بروعة وجمال الطبيعة أو ألفة الانتماء إلى مجتمع تسوده المودة والتراحم فيما بينهم أو الراحة التي تشعر بها عندما تسمع الكتب السماوية تتلى وكأنها كتبت من أجلك. كل هذه المشاعر هي نتاج عواطفنا وعلاقاتنا الاجتماعية، وليست نتاج نظرية لعقيدة دينية.

الفقراء ليسوا متدينين أكثر من الأثرياء فحسب، بل إنهم متدينون بطرق مختلفة. حيث يميل الناس ذوو الدخول المالية المنخفضة إلى الإيمان بأن الإنجيل هو عبارة عن كلام الله الحرفي وليس مجرد مجموعة عامة من تعاليم الوحي الإلهي. الفقراء أكثر ميلاً للإيمان بالمعجزات والتلبس الشيطاني والمعالجة بالدين.

كانت نشأتي في ولاية كنتاكي مزيجاً محكماً من الدخول المالية المنخفضة والمستويات العالية من انعدام المساواة وهو الأمر الذي يعدُّ بشدة الإيمان الديني في تلك الولاية. وفي الواقع كان مجتمعي عالماً مليئاً بالغموض والمعجزات. فلقد رأيت مرة بنتاً مراهرة متحمسة سيطرت عليها الروح القدس، وعندما لمس القس جبينها برفق أصبحت مليئة بالتوهج من الروح القدس، وكما شرحت فيما بعد، ترنحت وهي تتهاوى على الأرض. بينما أخذت فتاة أخرى تنتفض كما لو أنها كانت موصولة إلى تيار توتر عالٍ وغير مرئي.

عندما كنت طفلاً، قمت مرة بالإلحاح على إحدى نساء عائلتي لتريني كيف تتكلم بالأسنة. وشرحت لي بأنه إذا ما صليت لله، فإنه سيرسل الروح القدس التي ستجعلني قادراً على التحدث بلغات غريبة. وربما تكون هذه اللغات لغات أرضية أجنبية، أو قد تكون لغات تفهمها الملائكة فقط. كان كلام قريبتني يبدو وكأنه خليط من اللغة اللاتينية والإيطالية، على الرغم من أن ما تمنيته كان شيئاً أكثر قرباً للسماء.

تقوم المجتمعات الدينية المؤثرة بتعليم أطفالها كيف يختبرون الله على المستوى الشخصي. في أحد أيام الربيع الجميلة، أخذ القس في مدرستي الدينية فصلنا إلى الخارج لشرح درس غير اعتيادي. جلسنا على العشب الأخضر الواقع بجانب حديقة صغيرة مليئة بزهور الزنبق الصفراء الجميلة والعشب الطويل المتمايل مع النسائم الدافئة. بدأ القس بشرح الدرس استناداً إلى آية معروفة من الكتاب المقدس: «انظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لَا تَزْرَعُ وَلَا تَحْصُدُ وَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمْ السَّمَاءِيُّ يَفْقَهُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟... تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها.» وأخبرنا القس بأننا إذا أغلقنا أعيننا وشعرنا بالريح وسمعنا حفيف الأعشاب، فإننا نستطيع أن نسمع صوت الله يتكلم إلينا من خلالها.

لم أعد أشعر بأي شيء ما عدا الريح والعشب، أغلقت عيني بقوة وأصخْتُ السمع. كان صوت الريح يبدو وكأنه صوت أم تهدد طفلها. ثم سمعته، نقياً واضحاً كالجرس: صوتٌ يقول، «لكن بسلام. سأراك دائماً.» كان شيء أشبه بالكهرباء. شعرت بسعادة غامرة، ولم أستطع الانتباه إلى أي أمر آخر يحدث من حولي في المدرسة في ذلك اليوم. وفي الحافلة أثناء عودتي للمنزل، استمررتُ بإعادة ذلك الصوت في رأسي محاولاً بذلك أن أستعيد سحر تلك اللحظة.

بعد ذلك حدث لي أمر. العبارة التي سمعتها كانت حقيقةً مزيج من أصحابين من الكتاب المقدس درسناهما مؤخراً. أحدهما يقول، أمر السيد المسيح البحر بأن يهدأ، أطاعه البحر وهدأ؛ والآخر كان إعادة صياغة لإصحاح العسافير والزنابق. كان القس قد اقترح لنا مجموعة خاصة من الأفكار المهدئة، ومن ثم وجه انتباهنا إلى الرياح والعشب وحثنا على سماع صوت الله. ولكن كيف لي أن

أعرف إذا كان الصوت صوت الله أم هو مجرد تعبير من بنات أفكارى؟

لذلك قمت بتجربة صغيرة، استحضرت كلمةً، ولنقل إنها «أرجواني» ثم أغلقت عينيَّ وجاهدت لأسمع الكلمة وسط ضجيج الحافلة المليئة بالأطفال الثرثارين. ومفعماً باليقين، لم ألبث أن سمعتها. هل حقاً قالها أحد الأولاد، أو هل صاغها عقلي من آلاف المقاطع الصوتية التي تطوف من حولي؟ بعد أن قمتُ بهذا التمرين ببضعة كلمات أخرى، أدركتُ بأنك إذا حاولتَ سماع شيء وسط الضجيج المتناثر، عندها من المحتمل أن تسمعه. سمعت عدة كلمات مثل «ترانسلفانيا» و «روتاباكا». ربما كنت أقوم بذلك بالشكل الخاطئ، ولكن لم يبدُ أنني على وشك القيام بمعجزة.

بعدها بعدة سنوات فهمت أن ما قمت بتجربته في ذلك اليوم كان هو نفس الآلية التي يعمل بها العقل البشري عندما يقوم بتمثيل صورة العذراء على الجبن المشوي، أو عندما يقوم بربط العديد من الأحداث العشوائية لتصبح مؤامرة كبرى. نحن جميعنا نفعل الأمر ذاته بطريقة أو بأخرى. لكن عندما يشعر الناس بأنهم مهملون ومهجورون وهو الأمر الذي يجعلهم يشعرون بأن الحياة فوضوية وأن مكانهم مزعزع ومحفوف بالمخاطر، فإن عقولهم تكتسب سرعة في عملها لتحقيق شعورهم باستقرار العالم الذي يعيشون فيه، ويعتبر ما تقوم به عقولهم أمراً ناجحاً حيث يميل الأفراد المتدينون إلى أن يكونوا أكثر سعادة وأقل قلقاً. حول الحياة والموت. أكثر من أولئك غير المتدينين. تعمل بعض منظومات الإيمان على تقديم الراحة والطمأنينة بطرق لا يمكن الحصول عليها بواسطة التفكير العادي. بالنسبة إلى معظم الناس، لا يستطيع إله اللاهوتيين الأكاديميين المجرد غير الشخص أن يؤمن هذا المستوى من الطمأنينة. فكلما كانت الحياة أقسى كلما أصبحت أكثر إعجازاً.

الفصل السابع

انعدام المساواة بين البيض والسود

الميل الخطير لانعدام المساواة العرقية والاقتصادية

لم يكن أول درس لي في التمييز العنصري هو موقف تعرضت له بقدر ما كان قصة تم سردها مراراً وتكراراً بما يكفي لتشعر بأنك تعرضت له بنفسك. كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري في محل للبقالة مع والدتي، ولم يكن يوجد حينها الكثير من التنوع العرقي في مدينتنا، مدينة ماسيو في ولاية كنتاكي، لذلك عندما عبرنا رجل أفريقي أميركي طويل القامة عبر الممر فإنه حينها كان أول رجل أسود اللون رأيته في حياتي خارج شاشة التلفاز. ربما كنت مبهوراً بضخامة بنيته الجسدية أو ربما كنت مبهوراً بقتامة لون بشرته، لكن ما أنا متأكد منه هو أنه عندما قلت بصوت عالٍ - بما يكفي لأن يسمعه كل من كان في البقالة: « ماما ماما، انظري إلى ضخامة - » لا أحد يعرف أبداً بماذا كنت سأنهاي تلك الجملة وذلك لأن والدتي أحكمت إغلاق فمي بيدها بشدة إلى درجة كتمت فيها حتى الغمغمة. هل استخدمت حقاً شتيمة عنصرية، أو كنت بالفعل شخصاً عنصرياً، أم أنني ببساطة كنت سأدعوه رجلاً؟ لم تعطني والدتي أي فرصة، كانت ردة فعلها سريعة عند العبارة التي توضح القصد.

عندما يعبر الكبار عن تعصبهم وتحيزهم، فإنه يمكنك توجيه إصبعك إليهم ونعتهم بالمتعصبين، سواء أكانت عصبية عرقية أو جنسية أو كارهة للأجانب. أما عندما يقوم طفل ما بذلك، فإن كل ما تستطيع فعله هو الاستماع بإحراج. حيث يكون الأطفال بمثابة المرأة التي تعكس المجتمع الذي نشأوا فيه، لذا فإننا نشعر بالأسى تجاه الجنس البشري عندما نسمعهم يتلفظون بشتيمة عرقية. عن ماذا تعبر الثقافة التي تقلق فيها الأم بشأن استخدام طفلها ما دون سن المدرسة - تلك الألفاظ؟ ماذا يعني أن الطفل كان على وشك التلفظ بتلك الشتائم؟

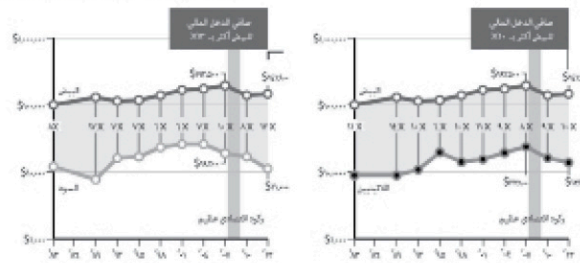
يختلف انعدام المساواة العرقية اختلافاً نوعياً عن انعدام المساواة في الدخل المالي، حيث يتواجد الأغنياء والفقراء في كل المجموعات العرقية ويؤثر التمييز العنصري على حياة الأمريكيين الأفارقة وغيرهم من الأقليات حتى وإن لم يكونوا فقراء. وعلى الرغم من أن انعدام المساواة العرقية والاقتصادية تعتبران قضيتان منفصلتين عن بعضهما البعض، إلا أنهما تتقاطعان أكثر وأكثر خلال السنوات الأخيرة الماضية ويكون ذلك التقاطع من خلال الانخفاض البطيء لانعدام المساواة العرقية والارتفاع المستمر لمستوى انعدام المساواة في مستوى الدخل المالي. سنناقش في هذا الفصل كيف لانعدام المساواة في مستوى الدخل المالي بأن يكون مثل النار في هشيم التعصب العرقي، وكيف يتم استخدام الصور النمطية للعنصرية كمبرر لذلك الانعدام.

وبطبيعة الحال كان التمييز العنصري جزءاً من أمريكا منذ أن وصلت أول سفينة للعبيد السود إلى مستعمرة جيمستاون الإنجليزية في أمريكا الشمالية، وكان ذلك في عام ١٦١٩م. بنت العبودية بلداً والتي أصبحت أخيراً الولايات المتحدة الأمريكية. واستمرت تلك العبودية لمدة قرنين ونصف من

الزمن وهي فترة أطول من عمر دولة الولايات المتحدة الأمريكية منذ تأسيسها إلى اليوم. وعندما انتهت العبودية في عام ١٨٦٥م، دخل نظام جيم كرو حيز التنفيذ والذي حافظ على ظلم واضطهاد الأمريكيين الأفارقة لمدة قرن كامل. وعندما منَع قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤م التمييز العنصري بكافة أشكاله، مع سن قانون حقوق التصويت في عام ١٩٦٥م، والذي أنهى بوضوح ممارسات التصويت التمييزية، لم يتغير المجتمع ويتجاوب مع تلك القوانين بين عشية وضحاها. فبعد مضي ٣٥٠ سنة على الإخضاع القانوني الكامل، فقط نصف قرن- أقل من عمر واحد- تفصلنا عن قانون طاولات الغداء، وبرادات مياه الشرب، والمدارس للبيض فقط. إلا أن السؤال الذي يفترض طرحه هو: ما هو حجم التغير الحاصل منذ ذلك الوقت؟ تعتمد إجابة هذا السؤال على الشخص الذي تسأله.

إذا قمت بالنظر إلى استطلاعات الرأي، فإن نسبة الأمريكيين الذين يؤيدون الأفكار العنصرية بصورة علنية مثل الفصل في المدارس والتمييز العنصري في التوظيف قد انخفضت من أغلبية واضحة في ستينيات القرن الماضي لتصبح مجرد أرقام مفردة اليوم. يعتبر انخفاض نسبة التحيز العنصري أمراً مشجعاً، إلا أننا ربما قمنا بتنشيط الكثير من الأمور المشجعة لأولئك السود.

نمو فيجوات الثروة العرقية و العنصرية منذ فترة الركود العظيم
متوسط عائلي الدخل المالي للعائل بالولايات المتحدة ٢٠١٣



ملاحظات: البيض و السود لا يشعرون على التمييز- الاتيين من أي طرف- تم رسم المنطقت على نمو لوهاريتميا. كل خط شبكي هو أكبر بغير مرات من خط الشبكة الموجود بأسفله. بدأ الركود العظيم في ديسمبر 2007 و انتهى في يوليو 2009.

لم يتم التلخص في العقود الأخيرة من الفجوة الموجودة بين ثروة الأمريكيين البيض و ثروة الأمريكيين السود و ثروة الأمريكيين الاتيين. تم اقتباس البيانات من مركز بيو للأبحاث.

في استطلاع للرأي في عام ٢٠١١م، طُلب من عينة من ممثلين وطنيين للمواطنين البيض والسود، بأن يُقيّموا مدى استهداف التمييز العنصري الذي حصل لكل من البيض والسود في كل عقد من الفترة الواقعة ما بين عام ١٩٥٠م إلى ٢٠٠٠م. اتفقت كلا المجموعتين البيض والسود على أن نسبة التمييز العنصري الذي حصل ضد السود قد انخفضت خلال تلك الفترة الزمنية، إلا أن البيض آمنوا بانخفاض تلك النسبة انخفاضاً حاداً أكثر مما آمن السود أنفسهم. وكما اختلفت تلك المجموعتان اختلافاً لافتاً للنظر في تصوراتهم حول التمييز العنصري ضد البيض. أعرب السود عن أن التحيز العنصري ضد البيض هو أمر غير موجود في خمسينيات القرن الماضي ولا يزال غير موجود إلى اليوم. بينما أعرب البيض عن تزايد وتنامي التحيز العنصري ضد البيض في الفترة الزمنية المذكورة في السؤال. وعلى ما يبدو فإن البيض يرون أن التحيز العنصري على أنه مكسب أو

خسارة: حيث أنه كلما قل التمييز ضد السود، كلما رأوا أن التحيز العنصري ضدهم سيصبح أعلى. يعتبر هذا التوجه هو توجه منتشر بشكل كبير بين البيض الذين أعربوا عن أن التمييز العنصري ضد البيض سيكون مرتفعاً بنسبٍ عالية مع نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين وسيكون هذا التمييز العنصري ضد البيض مشكلة أكبر من مشكلة التمييز العنصري ضد السود.

غير أن البيانات تخبرنا قصة مختلفة تماماً. إذ بقيت الفجوة بين الدخل المالي للعائلات السوداء وبين الدخل المالي للعائلات البيضاء ثابتة إلى حد ما منذ ستينيات القرن الماضي. وفي عام ١٩٦٧ كان دخل العائلة السوداء العادية يعادل ٥٥ بالمائة من دخل العائلة البيضاء. وفي عام ٢٠١١، أصبح ذلك الرقم ٥٩ بالمائة وعلى الرغم من أن تلك الفجوة بين العائلات البيضاء والعائلات السوداء قد تقلصت في معدلات تخرج أبنائهم من الثانوية العامة، وبدرجة أقل في تخرج أبنائهم من الجامعات، إلى أن تلك التطورات لم تساعد في تقليل فجوة الدخل المالي بين البيض والسود.

الأمر الأكثر أهمية أن الفجوات العرقية في الثروة (أي إجمالي الدخل الصافي) لم تأخذ في التزايد إلا في العقود الأخيرة الماضية، حيث في عام ٢٠١٣ م كانت ثروة العائلات البيضاء تقدر بأنها ثلاثة عشر ضعف ثروة العائلات السوداء العادية، وأنها عشرة أضعاف ثروة العائلات ذات الأصول اللاتينية. كان حجم هذا التفاوت نفس حجم التفاوت في ثمانينيات القرن الماضي تماماً ويمثل خطوة إلى الوراء من التقلص المتواضع للفجوة في تسعينيات القرن الماضي. هنالك عدة عوامل تعمل على منع الإنجازات في التعليم من تقليل فجوات الدخل والثروة.

يعتبر العامل الأول هو ملكية المنزل، وهو الأمر الأعلى بكثير لدى العائلات البيضاء. في حين أن العامل الثاني هو عامل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالميراث. فما أن تقوم العائلة بتجميع بعض الثروة حتى تستخدمها لشراء منزل أو تعيين كمذخرات للجيل القادم من العائلة. في حين يكون متوسط ثروة العائلات السوداء والعائلات اللاتينية المهاجرة قريبة من الصفر، وكل جيل منهم يبدأ ثروته من الصفر. حدد العديد من علماء الاقتصاد عدة عوامل أخرى تساهم في زيادة مساحة فجوة الثروة بين البيض والسود، وتتضمن تلك العوامل الفروقات في معدلات السّجن ومعدلات الزواج والطلاق. ولكن يستحيل فهم تلك الفروقات بدون فهم دور التمييز العنصري الذي يعمل على خلق مجموعة ثابتة من الضغوط على أسر الأقليات.

إن انعدام التوازن هذا في الثروة والتعليم وملكية المنازل يمكن أن يخدم كنوع من اختبار رورشاك Rorschach. فإذا كنت تعتقد بأن أسر الأقليات هي المُلَامة الوحيدة والمسؤولة عن مصائرها، فإنك ستجد ما يدعم اعتقادك من البيانات اللازمة. وفي الجهة المقابلة، إذا كنت تعتقد بأن أسر الأقليات هي ضحايا للتمييز العنصري والافتقار المنظم إلى الفرص، فإنك أيضاً ستجد ما يدعم اعتقادك من البيانات اللازمة. تكمن المشكلة في صعوبة عزل دور التمييز العنصري باستخدام مثل تلك الإحصاءات المذكورة في الأعلى. حيث يمكن لبيانات ملكية المنزل ومتوسط الثروة أن تخبرنا بالفروقات الموجودة لكنها لا تستطيع شرح السبب. لذا، فإننا نحتاج إلى أن نتحول من البيانات إلى سلوكيات الناس أنفسهم لمساعدتنا في فهم السبب.

في إحدى التجارب الرائدة التي أجرت فيها عالمة الاجتماع دافا بيجر اختباراً للتمييز العرقي في الحياة الواقعية وذلك من خلال قيامها بإرسال اثنين من الشبان - أحدهما أبيض والآخر أسود - وذلك للتقدم إلى وظائف في مدينة ميلووكي. وأعطتهما سيرة ذاتية موحدة ومزيفة ليكون ليهما نفس المؤهلات. كما قامت أيضاً بتزويدهما بسيناريو موحد يستخدمونه عند التقدم والتعريف بأنفسهم واستكمال تقديم طلبهم للعمل. بعد ذلك تقدم الشبان إلى ٣٥٠ وظيفة وكل وظيفة تقدم لها شخص واحد فقط وكان يتم اختيار المتقدم لكل وظيفة اختياراً عشوائياً بهدف أن تكون التجربة تجربة عشوائية. وبعدها انتظر الشبان مكالمات أصحاب العمل.

هل دعمت نتائج هذه التجربة آراء المشاركين في الاستبيان الذين يؤمنون بأن التحيز ضد البيض على مبدأ «خسارة أو مكسب» موجود؟ حتى إن النتيجة لم تكن قريبة. حيث تم الاتصال بالمتقدم الأبيض ضعفي مقدار نسبة الاتصال بالمتقدم الأسود على الرغم من تكافؤ مؤهلاتهما. تم إعادة إجراء هذه التجربة في كل من مدينة نيويورك وشيكاغو وأتلانتا ومدن أخرى، وتم الحصول على نفس النتيجة. كما أعادوا إجرائها في مجالات أخرى غير التوظيف. حيث يرتفع احتمال رفض الوكلاء العقاريين تأجير الشقق للسود أكثر من البيض وذلك على الرغم من تكافؤ مؤهلاتهم. كما تقدم معارض السيارات عروضاً شرائية أقل ملائمة وذات فوائد رهنية أعلى على المشتريين السود أكثر من البيض وذلك على الرغم من تكافؤ مؤهلاتهم. يعتبر التحيز العنصري ضد السود أمراً واقعاً ومزدهراً في أمريكا القرن الواحد والعشرين.

إذا كانت إجابات الاستبيانات لا تعطي صورة واضحة للمواقف العنصرية في الوقت الراهن فإن هناك مكاناً آخر يمكننا فيه أن نجد ما نبحت عنه. ففي أربعينيات القرن الماضي، كان هنالك فريق من علماء النفس مكون من زوج وزوجته، كينيث ومامي كلارك، يعتبر من أوائل من استنتج بأنه إذا كنت تريد أن تقيس كيف تتسرب تقييمات المجتمع وتوقعاته إلى عقولنا، فانظر إلى عقول الأطفال، حيث يعتبرون أفضل إسفنجة ثقافية يمكنك الحصول عليها. كان ذلك الفريق فريقاً مميزاً، ليس لبحوثه الرائدة وحسب، بل أيضاً لأن عضويه كانا عالمين أفريقيين أميركيين يعملان ويبحثان في الوقت الذي لم تكن فيه الجامعات الأمريكية تسمح بدخول السود من نفس الأبواب التي يدخل منها البيض، ما جعلهم يصرون على الالتحاق بالجامعة والتخرج منها ومن ثم التدريس فيها. كانا قد التحقا بجامعة هاوارد ليصبحا أول أفريقيين أميركيين ينالان شهادة الدكتوراه في مدينة كولومبيا، ولاية ميزوري. قام الزوجان بتطوير طرق بسيطة لدراسة التمييز العنصري حتى عند الأطفال الصغار جداً، حيث عرضوا على طفل زوجاً من الدمى إحداها بيضاء والأخرى سوداء، ثم سأله سلسلة من الأسئلة البسيطة مثل: أي الدميتين تبدو أجمل؟ أيهما تبدو أقبح؟ مع أي الدميتين ترغب اللعب؟

خلال أربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن الماضي، عبّر الأطفال البيض عن ميلهم الثابت لتفضيل الدمى البيضاء، بينما كانت اختيارات الأطفال السود متنوعة ومشكلة بحسب الظروف المحيطة بهم. فعلى سبيل المثال فضل الأطفال السود الذين يدرسون في المدارس المفصولة، الدمى البيضاء وهو الأمر الذي يشير إلى أنهم كانوا يمتصون الرسائل الثقافية في مجتمعهم والتي تنص

على تفوق الأطفال البيض على الأطفال السود. وبحلول أواخر ستينيات القرن الماضي ألغى الفصل العنصري، وبدأ الأطفال السود في المدارس الموحدة والمندمجة مع البيض بتغيير تفضيلاتهم لتلك الدمى، حيث لم تكن لديهم أي تفضيلات أو أحياناً يفضلون الدمى السوداء اللون. وفي العقود التي تلت ذلك، أجرى الباحثون العشرات من النسخ المتنوعة لدراسات الدمى، وركزت معظم الدراسات على الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين سن الثالثة وسن السابعة، وبالنسبة للأطفال السود فإن نسق تفضيلاتهم ظل محافظاً على تنوعه حيث أن هذا التنوع على ما يبدو كان مرتبطاً بتجاربيهم السابقة وبخلفيتهم المحلية وظروفهم، تماماً كما حدث في الدراسة الأصلية. لكن الأطفال البيض كان توجههم ثابتاً بشكل محزن: حيث إنهم اليوم يفضلون الدمى البيضاء نفس تفضيلهم لها في أربعينيات القرن الماضي.

الأمر المذهل في دراسات الدمى هو أن الرسم البياني لذلك التحيز العرقي في تلك الدراسات عبر عقود من الزمن يشبه إلى حد كبير أنماط التمييز العرقي في تجارب دافا بيجر الميدانية أكثر من شبهها للأنماط المتغيرة التي تظهر في الاستبيانات، حيث أن الاستبيانات التي تكشف عن القليل من التعصب العرقي هي استبيانات ذات بيانات شاذة عن الواقع الذي نعيشه، الأمر الذي يثير سؤال إلى أي مدى يمكن الوثوق بالتقارير الشخصية لتلك الاستبيانات، لأننا عندما ننظر إلى السلوكيات الفعلية نجد استمراراً التحيز العنصري مراراً وتكراراً، وهذا ما لا يظهر في تلك التقارير.

تفضيل الدمية التي تشبهك هو شيء، أما التعصب العرقي الذي يؤدي إلى أذية شخص شيء آخر مختلف ومسألة خطيرة جداً. تنشر ولاية فلوريدا، والمشهورة بشفافية قوانينها المعروفة بـ «قوانين الشمس الساطعة»، بنشر الصور والسجل الجنائي التعريفي لكل سجين في سجون الولاية على الإنترنت ليطلع عليها الجميع. قامت عالمة النفس إيرن بلير بتحديد ما إذا كان يمكن التنبؤ بطول فترة حكم كل السجناء وذلك من خلال شكلهم ومظهرهم في الصورة الجنائية التعريفية. حيث عرضت المئات من الصور الجنائية التعريفية على أشخاص لا يعرفون شيئاً عن جريمة أصحاب تلك الصور، وذلك ليُقيّموا مدة حكمهم في السجن. قام أولئك الأشخاص بالحكم على السجناء استناداً إلى أي درجة يبدو عليهم أنهم من الأفارقة الأمريكيين، من ١ (لا ينتمي إلى الأمريكيين الأفارقة) إلى ٩ (أمريكي أفريقي بشكل كامل). بعد ذلك قامت بالاستعانة بخبير قانوني لتحديد خطورة جريمة كل سجين منهم، بالإضافة إلى أية جرائم سابقة في سجلاتهم الجنائية. لم يكن حكم ذلك الخبير القانوني هو حكمه الشخصي حيث أن قانون العقوبات في فلوريدا يحتوي على نظام خطورة الجرائم والمكون من عشر نقاط والتي تهدف إلى تحديد مدى خطورة أي تهمة تُوجه إلى الموقوفين. فعلى سبيل المثال يعتبر تقديم رخصة مزورة هي جريمة قانونية تُقيم على أنها ١، بينما بيع الكوكايين المخدر ٥، والقتل ١٠. تم استخدام تلك النقاط كضوابط إحصائية وذلك حتى يتسنى للباحثين قياس مدى اختلاف فترة حكم السجناء من مرتكبي نفس الجرائم.

وجد الباحثون أنه كلما زاد سواد لون بشرة السجناء كلما زادت معه فترة الحكم عليهم أكثر من بقية المساجين الذين ارتكبوا نفس الجريمة، حيث صُنفت جرائم السجناء الأكثر سواداً على أنها جرائم ذات مستوى عالٍ في نظام خطورة الجرائم وتمت زيادة فترة الحكم عليهم بسبعة وثمانية

أشهر أكثر من أولئك السجناء الأقل سواداً والذين تم تصنيف جرائمهم على أنها جرائم ذات مستوى خطيرة منخفض في نظام خطورة الجرائم. لا بد أن ملامح أولئك السجناء والتي أثرت على تقييمات الأشخاص الذي طلب منهم تخمين فترة سجنهم، أثرت أيضاً على حكم القضاة. والأمر المثير للاهتمام هو أن تأثير مظهر أولئك الأشخاص السود أمر ينطبق تماماً على جميع السجناء سواء أكانوا من البيض أو من السود، حسب ما هو موضح في سجلاتهم الجنائية. وبغض النظر عن عرقهم الفعلي، فإن مظهر الشخص الأسود اللون هو من يتتبع بفترة الحكم التي تقضى في السجن.

يبدو أن التحيز العرقي يؤثر على العقوبة النهائية أيضاً. وباستخدام أساليب مماثلة للدراسة السابقة، قامت عالمة النفس جنيفر إيبهاردت باختبار وتقصى فرض عقوبة الإعدام في ولاية بنسلفانيا في أكثر من ستمائة قضية قتل كانت مؤهلة لعقوبة الإعدام عبر فترة زمنية تبلغ عشرين عاماً، ونتيجة لتفحصها ظهر هنالك تفاوت عرقي واضح: المتهمون ذوو البشرة الأكثر سواداً من المحتمل أكثر أن يُحكم عليهم بالقتل أكثر من غيرهم بالنسبة للمُقيمين المستقلين، إلا أن ذلك لا يحدث إلا عندما تكون الضحية المقتولة من أصحاب البشرة البيضاء. وعلى الرغم من أنه لم تتم أبداً مناقشة العرق جهرًا خلال المشاورات على تحديد فترة الحكم، إلا أن هيئة المحلفين تأخذ العرق بعين الاعتبار.

لا تعتبر منصة المحلفين المكان الوحيد الذي يصبح فيه التحيز العرقي مسألة حياة أو موت. حيث إنه في عام ٢٠١٤ م كانت مواقف السيارات في محطة شل للوقود هي المكان الذي بدأت فيه مشكلة ليفار جونز في مدينة كولومبيا التابعة لولاية ساوث كارولانيا. فعندما نزل من سيارته- البيك أب- البيضاء اللون، سألته الشرطي شون غراوبرت، «هل لي من فضلك أن أرى رخصتك؟». كان ليفار جونز رجلاً أسود نحيفاً يرتدي بنطلوناً قصيراً ترابي اللون وقميص بولو قصير الأكمام، ولم يكن قد أغلق باب شاحنته بعد، واستجابة لطلب الشرطي، استدرك ليفار جونز إلى سيارته ليخرج منها محفظته. فصرخ الشرطي شون غراوبرت «اخرج من السيارة!»، «اخرج من السيارة!» وبمجرد ما سُمعت كلمة «سيارة» للمرة الثانية، كان هنالك صدى لصوت طلقات نارية وتحطمت معها نافذة السيارة الواقعة خلف ليفار جونز.

في الأفلام، عندما تطلق الرصاصة فإنها تصدر صوتاً مدوياً مثل صوت انفجار المدفعية. إلا أن الصوت الذي صدر من أثر إطلاق الرصاص من المسدس اليدوي للشرطي يشبه صوت ضربة كرة الغولف. وفي الأفلام، عندما يُصاب الرجل بطلقة نارية فإنه يبدو وكأنه لكم بقبضة يد خفية، بدا السيد ليفار جونز مندهلاً. سقطت منه محفظته، تخطى محاولاً الإمساك بها قبل أن تسقط على الأرض. بعد ذلك، أعاد انتباهه للرجل الذي يسد النار عليه قفز وأمال خصره إلى أحد الجانبين كما لو أن هنالك نحلة مزعجة قرصت وركه. ثم استوعب ما حدث فرفع يديه عالياً في الهواء واستلقى مترنحاً على الأرض، وهو ينظر بشك تارة إلى محفظته التي سقطت على الأرض، وتارة أخرى إلى الرجل الذي لا يزال يطلق النار عليه. استمر ذلك الموقف الذي كان أشبه ما يكون بلقطة سينمائية لمدة ثلاث ثوانٍ.

وعندما توقف إطلاق النار، قال ليفار جونز: «كنت آتي لك برخصتي. أنت قلت لي بأن أحضر

رخصتي. وأنا جلبت لك رخصتي.» أصبحت نبرة صوته أكثر إلحاحاً واستعجالاً: «هنا هذه هي رخصتي. إنها هناك.» لقد كان اهتمامه متمركزاً حول الرخصة، محاولاً بذلك إثبات هويته وبرأءته، الإثبات الذي من شأنه أن يحل الفوضى الحاصلة. ومع إنهاء الشرطي اتصاله بمركز الشرطة عبر الأجهزة اللاسلكية حول «إطلاق نار»، سأل ليفاز جونز، «ماذا ارتكبت، سيدي؟... لماذا أطلقت النار علي؟... لماذا استوقفت سيارتي؟» أجاب الشرطي غروبرت بكل هدوء: «مخالفة عدم ربط حزام الأمان، سيدي.»

نجا ليفاز جونز من الحادثة التي وقعت له ذلك اليوم وتعافى من رمية الرصاص التي استقرت في وركه. أما الشرطي غروبرت فقد طُرد من الشرطة بعد أن أقر بذنبه في التهم الموجهة إليه بالتعدي والاندفاع في الهجوم.

أصبح قتل الشرطة للرجال السود غير المسلحين أمراً رئيسياً في حديث الأمريكيين عن العرق. وإذا كنت من الذين يتابعون الأخبار فقد يكون لديك صورة في ذهنك عن جثة مايكل برون الملقاة لعدة ساعات على إسفلت أحد شوارع مدينة فيرغسون التابعة لولاية ميسوري، أو الاحتجاجات في تلك الحادثة مع صفوف شرطة مكافحة الشغب المضاءة بنار السيارات المشتعلة، وربما سمعت الكلمات الأخيرة الهادئة لـ إريك غارنر عندما قال للشرطي الذي يخنقه بقبضة يده، «لا أستطيع التنفس»، ربما أنت الآن تستعيد في ذهنك الفيديو الذي اتجهت فيه سيارة شرطة نحو تايمر رايس ذي الأربعة عشر عاماً ثم طرحته أرضاً في غضون ثانيتين.

في قلب كل تلك الحوادث التي حصلت، وغيرها الكثير، كان هنالك مفهوم ذاتي عما كان يحدث بالفعل. هل كان مايكل برون يهاجم الشرطي دارن ويلسون بالفعل؟ هل كان إريك غارنر يشكل خطراً على رجال الشرطة عندما قاوم اعتقالهم له؟ هل كان تايمر رايس يسحب سلاحاً حقيقياً؟ إن مثل تلك الأحكام والإجراءات التي نُفذت على أولئك الضحايا يجب أن تكون تحت ظروف قهرية يتعرض لها أفراد الشرطة. غالباً ما تتطوي تلك المواقف أو الظروف على نوع من الالتباس أو الغموض: نفس الحركة قد تعني الوصول إلى رخصة القيادة أو قد تكون الوصول إلى السلاح. وفي مثل تلك الحالات لا يوجد وقت لتداول مثل هذه الأسئلة فإن كان سلاحاً فإن إعطاء الشخص ثانية إضافية لتحذيره قد تكون الثانية الفارقة بين الحياة والموت. تعتبر إحدى أفضل النتائج المثبتة في علم النفس هي أن الناس تشعر بالظروف الغامضة وتحدد ماهيتها استناداً إلى حدسهم وتوقعاتهم، فكلما قل الوقت المتاح للتفكير المتأنى كلما زاد اعتمادك على ذلك الحدس والتوقع. إن مشاهدة هذه الأحداث التي تربطها أوجه تشابه مذهشة التي تنشر مراراً وتكراراً كعناوين رئيسية في الأخبار هي بمثابة رفع مرآة قبيحة تعكس توقعات مجتمعنا عن الرجال السود.

إن حجر الأساس في اتخاذ القرارات القانونية في مثل تلك الحالات هو «اختبار الشخص المنطقي»: ماذا سيفعل الشخص المنطقي عندما يواجه بمثل تلك الظروف؟ لكن الجدير بالذكر هو أن اختبار الشخص المنطقي من شأنه أن يخلق الكثر من الحيرة عندما نتعامل مع قرارات نعلم أنها كانت خاطئة في الماضي.

حاول أن تضع نفسك مكان الشرطي غروبرت وهو يواجه ليفار جونز، لا أحد منا يفكر بأنه سيرتكب نفس الخطأ. ولكن لو عَلم غروبرت بأن ما يفعله هو أمر خاطئ فإنه بكل تأكيد لن يفعله. الحقيقة المزعجة هي أنه يمكننا جميعاً أن نرتكب نفس نوع الخطأ الذي ارتكبه الشرطي غروبرت عندما قام بإطلاق النار على رجل أسود أعزل.

في إحدى أوائل التجارب التي أجريتها كطالب دراسات عليا، قمت باختبار ما إذا كان الشخص العادي أكثر احتمالاً لأن يعتقد بأن أي مادة غير ضارة يمكن أن تكون خطيرة في حال وقعت في يد شخص أسود. تصدرت عناوين الأخبار حادثة إطلاق النار من الشرطة على رجل أسود يسمى أمادو ديالو ومشابهة لحادثة ليفار جونز ادعى أفراد الشرطة بأنهم كانوا على يقين بأن حياتهم كانت في خطر على الرغم من أنّ وحسب ما تبين، لم يكن أمادو ديالو يحمل في يده سوى محفظته. كان الكثير من الناس يتساءلون عما سيفعله الشخص المنطقي لو وضع في موقف أفراد الشرطة. ومسلحاً بأحدث أدوات التجارب النفسية، شرعتُ بالبحث لمعرفة الجواب.

تعلمت كيفية كتابة رموز الكمبيوتر اللازمة لإنشاء لعبة إلكترونية تختبر تلك الفكرة. ولقد قمت بتجربتها بنفسي أولاً، كل شخص يقوم بتجربة اللعبة ستظهر له صورة لشخص ما على الشاشة حيث أن بعض الصور كانت لأشخاص بيض البشرة بينما الصور الأخرى كانت لأشخاص سود البشرة. وبعد الصورة، ستظهر صورة عنصر على الشاشة، نصف تلك العناصر كانت عبارة عن مسدسات يدوية بينما النصف الآخر كانت أدوات صغيرة وآمنة وغير خطيرة مثل المفكات والكمائنات. واخترتُ الأدوات التي كانت مشابهة للمسدس باللون والخطوط، كما أنها كانت أيضاً بنفس الحجم وأيضاً مصنوعة من المعدن. وبعد كل مره تظهر فيها صورة لوجه شخص/ أداة، أقوم بالضغط على زر مسدس أو على زر أداة. قمت ببرمجة اللعبة على تكرار النمط التالي-وجه، عنصر، استجابة؛ وجه، عنصر، استجابة- حوالي المائتي مرة. لقد أكملت إجراء المائتي مرحلة وبدا الأمر سهلاً لي. قمت بتفحص بياناتي وكنت دقيقاً بجمع تلك البيانات.

وبعد ذلك أضفتُ، كتابةً، رموزاً برمجية مهمة جداً لتلك اللعبة: حيث يقوم الكمبيوتر بحساب الوقت المستغرق للضغط على أزرار استجابة، فإذا استغرق الوقت أكثر من نصف الثانية فستظهر على الشاشة علامة × كبيرة باللون الأحمر وعبرة «بطيء جداً!»، حيث أن ما قمت بفعله هو إضافة عنصر الضغط الزمني على التجربة. أدت هذه الإضافة إلى تحول مهم في مسار التجربة حيث إن التجربة لم تعد مجرد اختبار نظر، بل جعلته اختباراً لإصدار الأحكام والقرارات خلال جزء من الثانية. حيث عملت هذه التجربة على تزويد مختبر الأبحاث- لأول مره- بهذا النوع من القرارات السريعة التي يتوجب على أفراد الشرطة اتخاذها عندما يحاول المشتبه به إخراج شيء من جيبه أو عندما ينحني لتناول شيء ما من سيارته.

قمت بإجراء اختبائي مرة أخرى، لكن هذه المرة كان الاختبار أكثر صعوبة حيث قمت بتركيز عيني على نفس المكان الذي ظهرت فيه الصورة. انحنيت نحو الشاشة، احدوبت كتفائي في تركيز تام. كلما اجتهدت في محاولتي للتغلب على علامة الـ × الحمراء الكبيرة، كلما ارتكبتُ المزيد من الأخطاء. وعندما انتهيتُ من تكرار هذا الاختبار لمائتي مرة، كانت رقبتني تؤلمني وكنت أتصيب

عرقاً ليس بسبب الجهد الذي بذلته وحسب بل أيضاً بسبب القلق بشأن ما ستكشفه نتائج آرائني لهذا الاختبار. فعندما اطلعت على نتيجتي، كنتُ قد أُجبت إجابة صحيحة على ٨٠ بالمائة. لم تكن نتيجتي سيئة لكن نمط الأخطاء التي ارتكبتها كان مقلقاً: عند عرض صورة لرجل أسود اللون كنتُ أميل لأن أخطئ اختيار الأدوات غير المؤذية لأختار المسدسات.

وبطريقه ما لا تشكل هذه البيانات أي معنى. كنت اعلم تماماً أن صورة الوجوه السوداء التي تظهر في هذه اللعبة في الكمبيوتر لا تشكل أي تهديد، وكنت اعلم أيضاً أن وجوه الأشخاص ذوي البشرة السوداء لا تربطها أي علاقة بالمسدسات حيث إنني أنا من كتب رموز هذه اللعبة ومتأكد تماماً من عدم وجود العلاقة بينهما، وبالتأكيد فانه لم يكن لدي أي سبب يدفعني للتحيز العرقي باختياري المسدس عند ما ظهرت لي صورة رجل اسود اللون، لقد كنت أحاول جاهداً بأن أكون دقيقاً في أدائي للاختبار.

ومن زاوية أخرى، فإنه على الرغم من نتائج تجربتي إلا أن البيانات الناتجة كانت منطقية تماماً. في نهاية الأمر أنا نشأت على ثقافة تقلق بشأن الألفاظ التي يستخدمها الأطفال الصغار لوصف رجل ذي بشرة سوداء اللون، نشأت على نفس الثقافة التي نشأ عليها مالكو العقارات ورجال الأعمال الذين نواجههم في دراساتنا وتجاربنا الميدانية، وهي الثقافة نفسها التي نشأ عليها الشرطي غروبرت.

كنت جالساً في مختبري منهمكاً في محاولتي للتغلب على اختبار التحيز العرقي الخاص بي، إلا أنني فشلت في ذلك وشعرت لأول مرة بالفجوة المزعجة التي تفصل بين نواياي الحسنة وبين سلوكي المتحيز والمعروف بـ «التحيز الضمني». لقد شعرت كأنني رجعت من جديد ذلك الطفل الصغير في محل البقالة، لقد استمررت في استخدام هذه اللعبة في عشرات التجارب التي تضمنت آلاف المشاركين، كما قام باحثون آخرون بإعادة إجراء هذه اللعبة في مختبراتهم الخاصة بهم، وكانت النتائج هي النمط نفسه من التحيز العرقي والذي يتكرر مراراً وتكراراً. حيث كان الناس يعتقدون بأنهم رأوا مسدساً عندما ظهرت لهم صورة رجل أسود البشرة في البداية، وفي بعض النسخ من هذه التجربة قمنا بإخبار المشاركين وتحذيرهم بأن عرق الشخص الذي سيظهر في الصورة سيعمل على إثارة تحيزهم العرقي حيث تم حثهم على مقاومة هذا التحيز. إلا إن ذلك التحذير لم يأت بأي نتيجة إيجابية بل إنه جعل التحيز العرقي أسوأ بقليل. ويعود سبب ذلك إلى أن موضوع التحيز العرقي كان متواجداً في عقول المشاركين. إن نوايانا الحسنة لا تمنعنا من تحيزنا العرقي غير المقصود.

وبعد فترة قصيرة من نشري لأول أبحاثي في فهم وتحديد التحيز العنصري، تلقيت رسالتين بريدين من القراء. الأولى كانت من شرطي متقاعد لم يفضل محتوى بحثي كونه يحتوي على نوع من التلميح على وجود التحيز العنصري لدى أفراد الشرطة، كما كتب في نهاية رسالته بأنهم مجبرون على اتخاذ قرارات يكون مصيرها إما الحياة أو الموت وذلك خلال أقل جزء من الثانية وتحت ظروف معقدة وغامضة. أما الرسالة الثانية فكانت من شخص ما وصف نفسه كناشط للحقوق المدنية، كان قلقاً بشأن وصفي للتحيز العنصري على أنه تحيز غير مقصود وأن هذا البحث قد يُرى

عناصر الشرطة مما يرتكبونه من جرائم بدافع تحيزها العنصري بدلاً من تحميلهم مسؤولية ما يفعلونه من أفعال متحيزة. الأمر الذي يجدر ذكره هنا هو أنه قد يكون كلا المرسلين على حق، حيث أن هذا الأمر يعتبر معضلة تواجه الفلاسفة وعلماء النفس والقانون.

هناك طريقة أخرى لرؤية هذه المعضلة هي إعادة النظر في «اختبار الشخص المنطقي». فعلى الرغم من أن ليس كل شخص يُظهر تحيزاً عرقياً، إلا التجربة أظهرت أن المشارك العادي لديه تحيز عرقي حتى وإن لم ينو إظهاره. إذا افترضنا أن الشخص العادي هو شخص منطقي فإننا بذلك نستنتج أن الشخص المنطقي سيكون حينها أكثر ميلاً لرؤية الخطر المتوقع حدوثه من قبل شخص أسود أعزل أكثر من شخص أبيض أعزل وبالتالي فإن التحيز العنصري أمر منطقي. وهذا الاستنتاج لا يبدو صحيحاً.

البديل لذلك الاستنتاج هو أن نفترض أن الشخص العادي هو شخص غير منطقي، فإذا بدأنا من هذه الفرضية، عندما تقرر هيئة المحلفين اتهامنا أو تبرئتنا من خلال طرح سؤال عما سيفعله الشخص المنطقي، فإنهم بذلك يطالبون المتهم بمستوى أعلى مما يتوقعونه من أغلبية الناس، وهذا يعتبر ظلماً وإجحافاً وهذا هو تناقض التحيز العرقي الكامن. حيث تكون السلوكيات والإجراءات التي تتخذ مفصولة عن النوايا، ولا نعرف إلى أين نوجه غضبنا من سلوكياتنا المتحيزة.

إن فهم التحيز العرقي الكامن يتطلب منا أن نسلك نهجاً أكثر دقة عندما نقوم بوصف الأشخاص على أنهم «عنصريون» أو «غير عنصريين». لو اعتبرت نفسك متحيزاً عنصرياً أم لا، ولماذا، فإنك من المحتمل بأن تركز على أفكارك الواعية والمعتقدات والقيم التي تؤمن بها بالإضافة إلى النوايا الحسنة، التي تعكس إن كنت بالأساس شخصاً جيداً فإنه من المحتمل بأن ينتهي بك الأمر لأن تعتقد بأن التحيز العرقي الضمني هو مشكلة أشخاص آخرين غيرك. وعلى الرغم من أننا نود جميعاً أن نصدق أنفسنا بأننا أعضاء في نادٍ «خالٍ من العنصرية»، إلا أننا جميعاً غارقون في ثقافة بُني ماضيها وحاضرها على مستوى هائل من انعدام المساواة العرقية. أظهرت الأبحاث أنه حتى غالبية الأشخاص ذوي النوايا الحسنة منهم - وأطفالهم - يظهرون علامات التحيز العرقي الضمني في حال اختبارهم.

إليك مثال سريع لنوع آخر من اختبارات التحيز الضمني لتجربها بنفسك. اقرأ الكلمات الموجودة في الأسفل، ثم أكمل الجزء لناقص من الكلمة بأول كلمة تتبادر إلى ذهنك.

Dog Scottish Jack Russell Ter .

كلب أسكتلندي جاك راسل را

الآن اقرأ المجموعة الثانية وأكمل الجزء الناقص من الكلمة بأول كلمة تتبادر إلى ذهنك.

Mohammed Mosque Islamic Ter .

محمد مسجد إسلامي إر

أراهن بأنك اعتقدت بأن «رائع» هي الكلمة الموجودة في أول فراغ، و «إرهابي» هي الكلمة الموجودة في الفراغ الثاني. لم أحتج لأنتبأ بإجاباتك إلى معرفة أي شيء حول معتقداتك وقيمك، ولا إلى توجهاتك السياسية. كل ما أحتاج معرفته هو أنك غارق في ثقافة عبارة عن شبكة من الجماعات التي تعمل على ربط الإسلام بالإرهاب، وكنتيجة فإن عقلك يقوم بصنع روابط أيضاً.

غالبًا ما تتم مقارنة العقل البشري بالكمبيوتر، إلا أن العقل البشري في واقع الأمر يشبه الإنترنت أكثر من الكمبيوتر. حيث يتكونان من شبكة كثيفة من الأفكار والمعلومات، هذه الشبكة تتضمن على كم هائل من الهراء والبذاءة جنباً إلى جنب مع المعرفة التي لا غنى عنها. حيث يمثل التحيز العرقي الكامن نتائج البحث الأولية غير الخاضعة للرقابة في انتقالها إلى روابط تلك الشبكة والتي من الممكن أن تكون في بعض الأحيان نتائج مزعجة.

تشير الدراسات إلى أن التحيز العرقي الكامن هو اليوم أكثر انتشاراً من التعصب الأعمى الموجود سابقاً. وعلى الرغم من أن التحيز العرقي الكامن هو تحيز منتشر على نطاق واسع، إلا أن الدراسات الحديثة تشير إلى أن الناس يكونون أكثر تحيزاً في مواقف معينة أكثر من غيرها، و ترتبط اختلافات هذه المواقف التي تزيد من التحيز بالمال والسلطة وانعدام المساواة. ويعتبر هذا الترابط بين تلك الحالة الاقتصادية والتحيز العرقي مفهوماً قديماً بحد ذاته. فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة نُشرت في العام ١٩٤٠م، أنه عندما انخفض سعر القطن في المنطقة الجنوبية، ارتفعت معه أعداد السود الذين قتلوا على يد البيض. وأشار باحث تلك الدراسة إلى أنه عندما ضربت بالمزارعين البيض ضائقة اقتصادية، قاموا بتفريغ إحباطهم على السود. وبعد بضعة عقود زمنية- عقت تلك الدراسة- من الخلافات حول الطرق الإحصائية لهذه الدراسة، ولكن التحليلات الحديثة التي تستخدم إحصائيات أكثر تطوراً، أيدت نتيجة الدراسة الأصلية التي تنص على أن: القلق الاقتصادي يغذي الصراعات العرقية.

لا تزال تلك الروابط بين الحالة الاقتصادية والتحيز العرقي موجودة إلى اليوم وفي أشكال أكثر لطفاً من ذي قبل. ففي إحدى الدراسات قام عالما النفس إيمي كروتش وديفيد أموديو بإعطاء مشاركين بيض عشرة دولارات ليلعبوا بها لعبة اقتصادية، وجعلوا بعضهم يشعرون بالخسارة بإبلاغهم أنه كان بإمكانهم أن يحصلوا إلى ما يصل إلى مائة دولار لكنهم للأسف حصلوا على عشرة دولارات فقط. في حين أبلغوا مجموعة أخرى منافسة لهم بأنهم حصلوا على عشرة دولارات من أصل عشرة دولارات وهو أعلى مبلغ يمكن الحصول عليه في تلك اللعبة، كي لا يشعروا بعدم الخسارة. بعد ذلك طلب من كلا المجموعتين بأن تصنفا عدة صور ثنائية العرق لأشخاص إما بيض أو سود. وكانت النتيجة هي أن الأشخاص الذين تم إشعارهم بأنهم فقراء نسبياً رأوا معظم الصور الثنائية العرق على أنها صور لأشخاص لديهم بشرة أكثر سمرة وأقرب للشكل النمطي للسود أكثر من أولئك الذين تم إشعارهم بأنهم أغنياء نسبياً. عمل الشعور بالخسارة على تضخيم تصوراتهم للاختلافات العرقية، وباعد المسافة بين هؤلاء المشاركين البيض الذين يرون «نحن» و«هم».

وأظهرت أبحاث أخرى أن شغل منصب قيادي من شأنه أيضاً أن يزيد مستوى التحيز العرقي الضمني. فعلى سبيل المثال قامت إحدى الدراسات بتعيين المشاركين فيها ليصبحوا «مديرين» أو

«موظفين عاديين». وعمل أولئك المشاركون كثنائي مكون من مدير وموظف لحل مشكلة ما، كان المدير هو من يملئ الأوامر على الموظف لديه، ليقوم بعد ذلك بتقييم العمل الذي قام به الموظف. حيث أظهر المشاركون الذين عُينوا كمديري مستوى تحيز عرقي ضمني أعلى من أولئك المشاركين الذين عُينوا كموظفين عاديين، وحتى أعلى أيضاً من المشاركين مجموعة المراقبة الذين لم يشاركوا في مهمة لحل مشكلة ما على الإطلاق.

تشير تلك الدراسات إلى أن كون الخسارة أو عدم الخسارة أمر من شأنه أن يزيد مستوى التحيز العرقي. أليست هاتان النتيجتان متناقضتين؟ ليس تماماً. تخيل معي أن هنالك شركتين لديهما مجموعة متنوعة عرقياً من الموظفين. الشركة «أ» هي شركة مريحة وعفوية وغير رسمية مع الموظفين وليس لديها مستوى عالٍ من الهرمية، تخيلها شركة تقنية ناشئة في وادي السيليكون، مع طاولات كرة الطاولة وحدائق خارجية تقدم فيها البيرة والأطعمة، كما تشمل أيضاً على الأغاني والألعاب للاستمتاع بها في الأجواء العائلية، وتشمل أيضاً على الدراجات للتجول بها حول المكتب. نعم يوجد هنالك مديرة، لكنها ترتدي جينزاً مريحاً وتجلس في المكاتب الجماعية أثناء عملها على جهازها اللوحي مثلها مثل بقية الموظفين في المكتب. لا يوجد هنالك سلسلة من الأوامر، حيث يعمل الموظفون بكامل حريتهم في فرق عمل لحل المشكلات، وعندما ينتقلون من مشروع إلى آخر تتحل فرق العمل.

بينما الشركة «ب» هي شركة أكثر تقليدية وتراتبية، يوجد هنالك إملاء صارم للأوامر، حيث يجلس المدير التنفيذي في مكتبه الذي يقع في الزاوية ويقوم بإملاء الأوامر على مدير القسم والذي بدوره يكمل مسيرته في الهرمية ليدلي بتلك الأوامر على بقية الموظفين. وحين يواجه الموظفون مشكلة ما مع مديرهم المباشر، فإن الذهاب إلى المدير الأعلى هو أمر غير قابل للتفكير به.

أي الشركتين تعتقد بأنها تحتوي على علاقات أكثر انسجاماً مع ذوي الأعراق المتنوعة؟ تشكل الهرمية في الشركة الثانية بيئة خصبة للصراعات والتحيز العرقي. فعندما يكون الجميع إما رئيس أو مروض، فإن الهرمية تسلط الضوء باستمرار على فروقات المكانة الاجتماعية. ويمتد تأثير الهرمية إلى المنظمات الصغيرة مثل الشركات. لقد رأينا في الفصول الأولى لهذا الكتاب أن المواطنين في الولايات التي لديها مستوى عالي من انعدام المساواة تركز أكثر على المكانة الاجتماعية والهرمية، لذا فمن المنطق أنه سيكون لديهم مستويات عالية من التحيز العرقي. ودعماً لتلك الفكرة، وجد تحليل إطلاق النار من قبل الشرطة عبر البلاد أن الرجال السود العزل كانوا عرضة لإطلاق النار أكثر الرجال البيض العزل بثلاثة أضعاف ونصف. لكن ذلك التفاوت والتباين كان أعلى في المناطق التي تعج بانعدام المساواة.

إن انعدام المساواة في الدخل المالي ليس الأمر الوحيد الذي يعمل على زيادة التحيز العنصري، حيث إن التعصب من شأنه أيضاً أن يعمل على استمرارية انعدام المساواة في مستوى الدخل. وجدت دراسات أجريت عبر عقود من الزمن وجود علاقة قوية بين النفور من الأشخاص السود وبين معارضة سياسات الرعاية الاجتماعية التي تهدف إلى دعم ومساعدة الفقراء. فعلى سبيل المثال، وجد العالم السياسي مارتن جيلينز أن معظم الأمريكيين يؤمنون بأن مستوى انعدام المساواة عالٍ

جداً، وسبعة من أصل عشرة منهم يعتقد أن على الحكومة زيادة مقدار إنفاقها لدعم الفقراء، إلا أن نفس تلك النسبة من الأمريكيين يعتقدون بأنه يجب خفض الدعم المخصص للرعاية الاجتماعية. يشير تعبير «الرعاية الاجتماعية» ببساطة إلى مجموعة من البرامج الحكومية المحايدة عرقياً والتي تهدف إلى مساعدة الفقراء. وبالتالي فإن تلك النتائج لا معنى لها بالنسبة إليهم.

لكن تبين أنه عندما يتحدث الأمريكيون عن «الفقراء» فإنهم بذلك يقصدون أمراً مختلفاً تماماً عن «مستفيدي الرعاية الاجتماعية». ويعتبر أفضل تنبؤ للرغبة في خفض الإنفاق المالي لمستفيدي الرعاية الاجتماعية هو التحيز العنصري. الناس الذين يعتقدون بأن الأشخاص السود هم أشخاص كسالى وغير مستحقين للمساعدة هم أكثر الناس معارضة للإنفاق على الرعاية الاجتماعية.

إنه لمن المؤكد أن التحيز العنصري لا يعتبر هو السبب الوحيد الذي من شأنه أن يدفع بالناس لمعارضة الإنفاق على الرعاية الاجتماعية. حيث أشار الاقتصاديون إلى أن مواطني الطبقة العليا والطبقة المتوسطة يكون لديهم فائدة منطقية من رفضهم ومعارضتهم للإنفاق على الرعاية الاجتماعية. فمن وجهة نظرهم، يعتبر خفض الضرائب على الأغنياء وخفض الفوائد للفقراء هو ببساطة أمر يتعلق بالمصلحة الشخصية. وبالمثل، فإن الناس قد يعارضون إنفاق الرعاية الاجتماعية على خلفيات إيديولوجية. حيث إنهم قد يقيمون العمل الجاد والاعتماد على النفس، واعتبار الرعاية الاجتماعية فخاً للاعتماد على الغير، وهو موقف غالباً ما يتبناه السياسيون والنخب السياسية. إلا أن الدراسات التي قام بها جيلينز لم تجد أي دليل على أن تلك هي الدوافع الرئيسية للمواطنين العاديين. ومن الناحية الإحصائية، إذا أردت التنبؤ بمن هم ضد الرعاية الاجتماعية، فإنك تستطيع تجاهل المفاهيم الاقتصادية وتركز على تحيزاتهم العرقية.

في حين أن تعبير الشخص العادي عن مستفيدي الرعاية الاجتماعية بألفاظ عنصرية مُتخفية هو أمر غير مفاجئ، إلا أن الحقيقة هي أن مستفيدي الرعاية الاجتماعية هم مقسومون بالتساوي بين المستفيدين البيض والسود واللاتينيين. لكن عندما قام جيلينز بتحليل الوصف المستخدم لمستفيدي الرعاية الاجتماعية في التلفاز والمجلات الإخبارية منذ ستينات القرن الماضي، وجد هناك تحيزاً عنصرياً واضحاً: فعندما تم وصف مستفيدي الرعاية الاجتماعية على أنهم «الفقراء المُستحقون» كان معظمهم من البيض، بينما عندما وُصفوا بالكسالى والكذابين، كانت غالبيتهم الساحقة من السود.

إن الرسالة الاجتماعية التي تربط الرعاية الاجتماعية بالأشخاص الكسالى بشكل عام والأشخاص السود بشكل خاص هو أمر من شأنه أن يعقد المناقشة حول الرعاية الاجتماعية بدون الإشارة إلى العنصرية. هذا الرابط أثار جدلاً حول «سياسة صافرة الكلب»، وتلك السياسة هي أن يسمع الناس رسائل مشفرة حول العرق والتي على ما يبدو أنها تصريحات سياسة واضحة. إن التعليقات الشهيرة لرونالد ريغان حول قيادة «ملكات الرعاية الاجتماعية» لسيارات الكاديلاك أغضبت الديمقراطيين. على الرغم من أن رونالد ريغان نفى أي علاقة لتعليقه بالعرق. إلا أنه لم يتم تجاوز تعليقه وخاصة عندما قام مستشاره لي أتواتر بوصف الرسائل العنصرية المشفرة على أنها عنصر رئيسي في «الاستراتيجية الجنوبية» للجمهوريين وكان ذلك في مقابلة أجراها في ١٩٨١م عندما صرح: «في عام ١٩٦٨ م لم يكن بوسعك قول «ز...جي» لأن ذلك سيؤلمك ويأتي لك بنتيجة عكسية. لذا فإنك

تقول أشياء مثل الاندماج الإجباري وحقوق الولايات وما إلى ذلك. أنت تتكلم الآن بتجرد عندما تتحدث عن خفض الضرائب وكل هذه الأمور التي تتكلم عنها هي مجمل الأمور الاقتصادية وانعكاساتها التي تضر السود أكثر من مما تضر البيض. ويكون اللاوعي جزءاً منها.»

ومؤخراً اتهم المتحدث الرسمي بالبيت الأبيض بول رايان بتوجيه رسائل مشفرة (بتصفير الكلاب) عندما وصف الفقر بأنه «إحباط ثقافي في مدننا الداخلية على وجه الخصوص، التي يكون فيها الرجال عاطلين وأجيال كاملة من الرجال الذين لا يفكرون مجرد تفكير بالعمل» ولاحقاً قام هو أيضاً بنفي علاقة تعليقه بالعرق.

لا يمكننا الجزم بما كان قصد أولئك القادة، هل كانوا يقصدون إثارة الانقسامات العرقية في عقول الناخبين البيض مع المحافظة على هيبته العامة؟ أو هل كانوا بالفعل محايدين عرقياً لكن أعضاء الحزب المعارض هم من فسروا تعليقاتهم بتهكم؟ الحقيقة هي: إذا كنت تؤيد ريغان ورايان، فإنك ستميل لأن تظن بهما الظن الحسن. لكن إذا كنت لا تثق بهما، فإنك ستميل لأن تراهما صانعي التعليقات المتلونة العرقية غير الحاذقة.

ومن وجهة نظر نفسية، فإن الاستنتاج المثير للاهتمام أن القصد الفعلي للمتحدث في نهاية المطاف هو أمر غير مهم، الأمر المهم بالفعل هو كيف يفسر المستمعون كلمات ذلك المتحدث. يفترض أن قصد إرسال الرسائل العنصرية المشفرة - سواءً أكانت رسائل مقصودة أم لا - هو إحداث قفزة نفسية لدى متلقي ومستمعي تلك الرسائل. إن تلك الرسائل تقترض أنه عندما يتحدث السياسيون عن أمور السياسة، فإن الناخبين يربطون حديثهم بالعرق. ومؤخراً، قام المتعاونون معي وهم جازمن براون يانوتزي وإيرين كولي ورون داتش وأنا باختبار ما إذا كان المواطنون سيتصورون ويرون في أذهانهم صوراً لأشخاص سود البشرة في حالة تم سؤالهم عن مستقيدي الرعاية الاجتماعية.

ولمعرفة ذلك، احتجنا إلى طريقة لتصوير التمثيل الذهني للمشاركين في دراستنا. فبدأنا من خلال إنشاء صورة مركبة تتكون من ملامح وجوه مُختارة لرجل أسود وامرأة سوداء ورجل أبيض وامرأة بيضاء. وأضفنا لهذه الوجوه ثنائية الجنس والعرق وضوء وتشويش بصري مثل الذي يظهر على شاشة التلفاز. قمنا بتكرار تلك العملية مئات المرات إلى أن حصلنا على مجموعة كبيرة من الوجوه التي تبدو مختلفة وضبابية بشكل طفيف. بعد ذلك قمنا بعرض زوج من الوجوه من تلك المجموعة على المشاركين في الدراسة وطلبنا منهم أن يحددوا أيّ الوجهين أكثر ميلاً لأن يكون من مستقيدي الرعاية الاجتماعية. وبواسطة التحريك البطيء لمجموعة الصور التي حكم عليها المشاركون بأن أصحابها من «مستقيدي الرعاية الاجتماعية» وتكرار الأمر ذاته للصور التي حكم عليها المشاركون بأن أصحابها «غير مستقيدين من الرعاية الاجتماعية»، حصلنا على مجموعة ثنائية جديدة من الصور المركبة.

الصور التي ظهرت، أسرت عن كيف يبدو مستقيدي الرعاية الاجتماعية في صور المشاركين. عندما عرضنا زوجاً من الصور المجهولة لمجموعة جديدة من المشاركين، قاموا بوصف

الأشخاص السود على أنهم مستفيدو الرعاية الاجتماعية، بينما وصفوا الأشخاص البيض على أنهم من غير مستفيدي الرعاية الاجتماعية. لقد وصفوا مستفيدي الرعاية الاجتماعية بالعدائين والأغبياء والكسولين ولا يتحملون المسؤولية. والأقصى من ذلك هو أن المشاركين وصفوهم أيضاً بأنهم أقل إنسانية من البيض. تستطيع أن ترى عيون غير المستفيدين من الرعاية الاجتماعية المحددة بوضوح، بينما ترى عيون المستفيدين من الرعاية الاجتماعية غائرة.



الصور الذهنية النمطية لمستفيدي الرعاية الاجتماعية (اليمين) و غير المستفيدين (اليسار).

بعد ذلك قمنا باختبار ما إذا كانت الصور الذهنية تحدث تغيرات فعلية في فكرة دعم الإنفاق على الرعاية الاجتماعية. حيث قمنا بعرض مجموعة الصور التقليدية لمستفيدي الرعاية الاجتماعية ولغير مستفيدي الرعاية الاجتماعية وعرضناهم على مجموعة أخرى من المشاركين بدون تحديدهم، وسألناهم عما إذا كانوا يؤيدون تقديم المساعدات الغذائية والنقدية لكل من المستفيدين وغير المستفيدين من الرعاية. كانوا بصفة عامة مؤيدين عندما تصوروا أن ضرائبهم ستذهب لغير المستحقين للرعاية الاجتماعية البيض. بينما عندما تصوّروا بأن ضرائبهم ستذهب لمستحقي الرعاية الاجتماعية السود، أصبحوا معارضين للفكرة. تعتبر المواصفات التي يتصورها الناس حول مستفيدي الرعاية الاجتماعية هي نفس المواصفات التي تدفعهم لمعارضة إنفاق ضرائبهم عليهم.

لقد رأينا في هذا الفصل مدى عمق العلاقة بين العرق وانعدام المساواة. يخلق انعدام المساواة الاقتصادية حالة نحن-و-هم ذهنية والتي من شأنها أن تزيد التحيز العرقي. وتعتبر العلاقة القوية التي تربط بين العرق والفقر والاستحقاقية في عقول المواطنين هي عائق رئيسي يحد من تقليص مستوى انعدام المساواة الاقتصادية. وذلك العائق هو أن العديد من الناس ببساطة لا يشعرون بدافع لدعم محاربة الفقر عندما يتخيلون بأن الأقليات هي التي ستستفيد من ذلك الدعم.

إن الاعتراف بوجود التحيز العرقي يدفع العديد من المواطنين للشعور باليأس، وذلك لأنه يبدو من الصعب جداً تغييره، والتحيز العرقي الضمني يبدو صعباً على وجه الخصوص، لأنه لا يكمن فقط في عقول الأفراد بل في الأفكار الضبابية وغير الواضحة في الوقت الراهن للناس و التي تكوّن الثقافة في المجتمع من حولنا. وعلى الرغم من ذلك، هناك دراسة حديثة أثارت بعض بواكر التفاؤل. حيث أجرى الملايين من الناس اختبار التحيز الضمني على الموقع الإلكتروني projectimplicit.com والذي يمكنك من خلاله اختبار تحيزك المتعلق بالعرق والجنس والعمر والفئات الاجتماعية الأخرى. قام عالم النفس دومينيك بيكر بالتحقيق في الولايات الأمريكية التي أظهرت أعلى وأخفض مستوى من التحيز العرقي، وما هي العوامل التي ميزت تلك الولايات.

كان انعدام المساواة في الدخل المالي أحد أهم العوامل الرئيسية، فالولايات ذات المستويات المنخفضة من انعدام المساواة كان لديها تحيز عرقي منخفض، وكان ذلك حتى بعد حساب متوسط الدخل المالي والاختلافات الإقليمية بين شمال البلاد وجنوبها. كان لدى الولايات التي تتميز بانخفاض انعدام المساواة مثل ولاية أوريغون وواشنطن وفيرمونت مستوى أقل بكثير من التحيز العرقي من الولايات التي تمتلك مستوى عالياً من انعدام المساواة مثل ولاية لويزيانا ونيوجرسي وبنسلفانيا. وعلى الرغم من صعوبة تغيير قلوب الناس وعقولهم، إلا أن السياسات الاقتصادية من شأنها بالتأكيد أن تعمل على خفض انعدام المساواة في الدخل المالي.

لقد رأينا في الفصول السابقة كيف للمقارنات الاجتماعية التي نجريها أن تُغيّر نظرتنا للعالم، والأمر ذاته ينطبق على كيفية فهمنا لانعدام المساواة العرقية. في حين أن الفجوة بين وجهات نظر المواطنين الأمريكيين البيض والمواطنين الأمريكيين السود حول المستويات الحالية للتحيز العرقي لا تعمل فقط على عكس الفروقات في التجارب الحياتية اليومية، بل إنها أيضاً تعكس أنواعاً مختلفة من المقارنات. في دراسة أجراها عالم النفس ريتشارد إيباتش تبين أنه إذا سألت أشخاصاً بيضاً عن مدى أداء الدولة في التغلب على العنصرية، فإنهم سينظرون إلى الماضي كمرجع لهم. ومقارنة بأيام العبودية الماضية السيئة وجم كرو، فإننا كما يبدو نحقق تقدماً جيداً، كما سيؤكد البيض. لكن إذا سألت نفس السؤال لأشخاص سود، فإنهم ينظرون إلى المستقبل ويقارنون بما ستكون عليه الحياة في دولة تتسم بالعدل الحقيقي، ونتيجة لتلك المقارنة فإن الوضع الحالي لهم سيبدو كئيماً تماماً.

إن الأشخاص البيض والأشخاص السود لا يعيشون في عوالم مختلفة تماماً، وجد الباحثون أنك إذا دعوت مشاركين سوداً ومشاركين بيضاً إلى إجراء أنواع المقارنات التي تميل المجموعة الأخرى لإجرائها، فسينتهي بهم الأمر إلى تطابق نتائج مقارنتهم. إذا قمت ببحث المشاركين السود على التفكير بمدى سوء أوضاعهم في الماضي، فإن تقييماتهم للحاضر ستكون أكثر تفاؤلاً. وإذا شجعت المشاركين البيض على تخيل ما ستكون عليه المساواة الحقيقة في المستقبل، فإنهم سيصبحون أقل رضاً وأكثر حماساً لتغيير الوضع الراهن. ولنعتبر هذا الفصل بمثابة دعوة للتطلع إلى الأسمى والأفضل في مستقبلنا.

الفصل الثامن

السلم المشترك

لماذا الأجور النزيهة تحيل إلى اللعبة النزيهة

كان إلمر رويز يكسب قوت يومه من عمله كحفار للقبور، عاش مع زوجته وأطفاله على أراضي مقبرة شيكاغو. كانت أراضي القبور العشبية هي ملعب الأطفال، إلا عندما يكون هناك دفن لميت ما، حينها يضطرون للبقاء داخل المنزل. وبعد حفره للقبور في كل يوم، يشهد إلمر رويز كل عملية دفن تحدث في المقبرة وذلك بهدف الاطمئنان بأن الأمور تجري بسلاسة كما يجب. قال إلمر رويز: «هناك بعض الجناز التي أثرت بي فعلاً، جناز الأطفال الصغار، لقد دفنا الكثير من الأطفال الصغار.» ولإخفاء مشاعره أثناء مراسم الدفن، قال إلمر رويز: «عادةً أرتدي نظارة شمسية سوداء.»

يسأل الناس إلمر رويز باستمرار: «كيف لك أن تتأقلم مع ذلك؟»، وقد تُفاجأ بإجابته حين يقول: «أنا استمتع بعملتي جداً، وخاصة في فصل الصيف ولا اعتقد أن هناك أي وظيفة داخل مصنع أو مكتب تسمى وظيفة رائعة. عملي يمكنني من التعرض للهواء المنعش طوال اليوم، إنه عمل رائع بالفعل.»

قد تعترض حتماً لأن إلمر رويز لا يمكن أن يكون جاداً بما قاله، فاستمتاعه بحفر القبور ليكسب عيشه هو أمر من المستحيل أن يكون صحيحاً، إلا أن إجابته في واقع الأمر لا تعتبر غريبة. حيث وجد الباحثون أن الناس الذين يعملون في «مهن سيئة» - مثل حفاري القبور وعمال المناجم وعمال المسالخ حول العالم - يميلون إلى أن تكون لديهم نظرة إيجابية عن وظائفهم بشكل مدهش. تلك النظرة الإيجابية لا تتعلق بكونهم يحبون عملهم بقدر ما هي عدم استساغتهم للوظائف التي يراها الناس على أنها «وظائف جيدة» والتي يفترض بهم أن يستمتعوا بها. فعلى سبيل المثال، وجدت دراسة حديثة أن ٩٥ بالمائة من الأطباء كانوا راضين عن وظائفهم، وهي الفئة الأكثر رضاً عن عملها. لكن وجدت تلك الدراسة أيضاً بأن ٨٥ بالمائة من سائقي الحافلات - وهم الفئة الأقل رضاً عن عملهم - كانوا راضين أيضاً عن مهنتهم. بالنسبة لمعظم الموظفين فإن مفتاح رضاهم عن وظائفهم ليس ما يفعلونه، بل ما تعنيه تلك الوظيفة لهم، ما تعنيه الوظيفة بالنسبة للناس هو غالباً ما يكون أقل ارتباطاً بالعمل والمهام الواجب عليهم القيام بها، وأكثر ارتباطاً بمدى اتصالهم ومقارنة أنفسهم بالآخرين.

بينما شَعَرَ إلمر رويز بالشفقة على أولئك المساكين البائسين الذين يعملون في المكاتب، فإنهم من المرجح بأن يشفقوا عليه أيضاً. عندما نشرت أول مقال علمي لي، أرفقت - فخوراً بنفسني - نسخة منها في رسالة أرسلتها إلى أخي الذي - كما ذكرت سابقاً - كان مسجوناً في ذلك الوقت. وردّ علي في رسالة كتب فيها بأنه يقدر ما وصله مني وأنه قد بدأ يشعر بالاكْتئاب لأنه كان عالِقا في السجن ويعمل مقابل بضع سنتات فقط في الساعة، حتى رأى ما أعمل عليه طوال يومي، تلاشى عنه ذلك الشعور، كما أوضح. وهكذا تعتبر علاقتنا مع وظائفنا علاقة نسبية مثلها مثل جوانب كثيرة في

حياتنا.

تم اكتشاف جزء كبير من العلاقة الغريبة التي تربط بين الناس ووظائفهم من قبل جيش الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية. وكان ذلك الاكتشاف في فترة الصراع عندما حدثت الإغارة على بيرل هاربر، حيث ارتفع عدد أفراد الجيش الأمريكي من ربع مليون إلى مليون ونصف خلال سنة واحدة. وتسببت تلك الزيادة السريعة جداً في الجيش - بواقع خمسة أضعاف - إلى نشوء عدد من المشكلات البشرية واللوجستية. وعلى ضوء الحنين الحالم إلى الماضي، نحن اليوم نتذكر ذلك «الجيل العظيم» لشجاعتهم وثباتهم، إلا أن الأشياء لم تكن دائماً وردية داخل الجيش في ذلك الوقت.

كان العديد من الجنود الجدد يفتقرون إلى انضباط الجنود النظاميين، وعبر الضباط عن استيائهم من المجندين الجدد، بأنهم لا يؤدون التحية العسكرية ويناقشون في الأوامر ويتذمرون باستمرار. حتى أنهم أيضاً خالفوا التسلسل القيادي - المخالفة التي لم يُسمع بها من قبل في الجيش - وأرسلوا رسائل شكوى إلى الجنرالات وأعضاء الكونغرس الأمريكي. إن اعتياد مليون رجل على أن يكونوا مواطنين أحراراً ثم فجأة يُصبحون في السلك العسكري الذي تُملأ فيه الأوامر ولا تُناقش، هو أمر تسبب في وباء اسماء الضباط «انخفاض الروح المعنوية».

دخل عالم الاجتماع صامويل ستوفر على خط هذه الأزمة حيث اختيرَ لقيادة شعبة البحوث في الجيش. استخدم صامويل ستوفر البحث الاستبائي والتحليل الإحصائي - واللذين تعتبران أحدث التقنيات في ذلك الوقت - وذلك لمحاولة فهم ما يحفز الجنود. ونتيجة بعد نتيجة، أصبح بحثه يشكل تحدياً لحكمة الضباط التقليدية. فعلى سبيل المثال، وجد صامويل ستوفر أن كره العدو يعتبر أمراً أقل أهمية مما ظنه الضباط لتحفيز الجنود، وأن الأمر الأكثر أهمية كان الرغبة في عدم خذلان زملائهم في الخدمة. كما أيضاً وجد صامويل ستوفر في دراسته بأن تجربة القتال الفعلي للعدو قللت بشكل مثير للدهشة من كراهية العدو بدلاً من زيادته، وأن الجنود الذين لم يسبق أن غادروا أمريكا كرهوا الألمان واليابانيين بدرجة أكثر من أولئك الجنود الذين يقاتلون في ساحة المعركة، والقوات الأمريكية التي حاربت الألمان كرهت اليابانيين أكثر من كرهها للألمان، بينما كان أولئك الذين يحاربون اليابانيين قد كنوا في صدورهم كرهاً أعظم للألمان. كانت تلك النتيجة مخالفة لما افترضه وتوقعه الضباط وهو أن القتال يولد الكراهية والكراهية بدورها تغذي القتال، وجد صامويل ستوفر في بحثه أن الكره يكون سهلاً من مسافة آمنة، وأكثر سهولة من الكره في خضم الذعر والخوف في المعركة.

عندما حوّل صامويل ستوفر انتباهه إلى ما يجعل الجنود يحبون أو لا يحبون وظيفتهم، وجد مرة أخرى أدلة أخرى تخالف المعنى العام والمُتوقع. اكتشف بأن رجال الشرطة العسكرية، والذين كان لديهم فرصة ضئيلة لترقيتهم، كانوا أكثر رضا وارتياحاً تجاه تطلعاتهم المستقبلية أكثر من رضا وارتياح أعضاء القوات الجوية الذين يتمتعون بترقيات سريعة. كما اكتشف صامويل ستوفر أيضاً بأن الجنود السود الجنوبيين كانت لديهم معنويات أعلى من الجنود السود الشماليين على الرغم من أن الجنود السود الشماليين كانوا يعاملون بشكل أفضل من الجنود السود الجنوبيين. لم تكن تلك الاستنتاجات المبكرة مجرد صدفة. عندما نظر صامويل ستوفر بشكل ممنهج عبر شعب الجيش،

كان الجنود أكثر رضا في الكتائب الأقل حظاً في ترقية أفرادها. لماذا يكون الناس أكثر سعادة في مثل تلك الحالات؟

أدرك صامويل ستوفر أن الإجابة عن ذلك السؤال هو أن الجنود يقارنون أنفسهم بالجنود الآخرين الذين كانوا في نفس مراكزهم: رجال شرطة عسكرية يقارنون أنفسهم برجال شرطة آخرين. أفراد القوى الجوية يقارنون أنفسهم بأفراد آخرين من القوى الجوية. لا تختلف الرتب اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض في الهرمية للشرطة العسكرية المتساوية نسبياً، لكن في القوات الجوية الأكثر تراتبية بكثير، فإن حقيقة أن بعض الجنود كانوا ذوي رتب مرتفعة ارتقاعاً هائلاً أكثر من غيرهم من الجنود هو أمر أثار استياء الجندي العادي. وهكذا تولدت فكرة «الحرمان النسبي». كان بحث صامويل ستوفر هو أول بحث نابع من تقليد طويل من الدراسات يستنتج أن المكانة النسبية في الهرمية هي أمر مهم بقدر أهمية أو حتى أكثر أهمية من المكافآت الملموسة المرتبطة بترتب معينة.

يعتبر مكان العمل هو أكثر مكان يعاني فيه الناس من انعدام المساواة المباشرة بشكل يومي. في هذا الفصل سنكتشف ما هي المساواة وانعدام المساواة في المكانة والسلطة والأجور وهي التي تشكل المعنى الذي نستخدمه لوصف وظائفنا.

إن ميدان العمل منظم بشكل تراتبي، ويعود جزء من ذلك التشابه إلى أن كل ما يقوم البشر بفعله هو أفعال مرتبة ومنظمة بنفس ترتيب تلك الهيكلية. ففي إحدى الدراسات التقليدية، تم جمع مجموعة من الغرباء لجلسة حوارية لمدة ساعة من الزمن، وتم إعطاؤهم القليل من التوجيهات حول ما يجب عليهم القيام به بطريقة مختلفة. وبدون أي توجيهات من الباحثين، رتب تلك المجموعات نفسها في تسلسل هرمي مكونة بذلك المكانة الخاصة بها والتي تشمل قادة يقومون بتوجيه الحوار، ومرؤوسين يتبعون توجيهات أولئك القادة. إذا لاحظت أن مجموعة الناس ملتقة حول بعضها سواء أكان ذلك في حفلة سواء في حديقة المنزل أو حول بعضهم البعض في زاوية الشارع أو في الفصول الدراسية، فإنهم بذلك الاجتماع يميلون إلى تصنيف أنفسهم وفقاً لتسلسل هرمي وتراتبية صغيرة خاصة بهم. وكلما زادت هيمنة «قادة» تلك المجموعات كلما زادت المساحة الخاصة بهم وكلما تحدثوا أكثر كلما كان لهم تأثير أكثر على تفاعلات أفراد المجموعة، في حين يكون بقية أعضاء المجموعة أكثر ثباتاً وانصياعاً.

وحتى إذا كانت المواقف اليومية تُعلي من شأن الهرمية، فإنه من غير المفاجئ أن تكون ميادين العمل أكثر تأهيلاً لذلك. وفي الواقع، عندما حاول العلماء دراسة المنظمات والشركات التي لا تحتوي على الهرمية فإنهم لم يجدوا أيّاً منها. فعلى سبيل المثال، تشتهر شركة التصميم IDEO بعدم تضمن إدارتها للتراتبية. عندما تأسست في تسعينات القرن الماضي، كان لديها مظهر ولمسة شركة ناشئة في وادي السيليكون. حيث كان معظم الموظفين تقريباً لهم المنصب نفسه: «مهندس». وعلى الرغم من افتقارها إلى تسلسل الهرمية الشكلي، إلا أنه عندما لاحظ الباحثون الروتين اليومي لموظفي تلك الشركة، فإنهم رأوا اختلافات مقامية في كل مكان وزاوية في تلك الشركة. حيث تتنافس المهندسون خلال جلسات العصف الذهني على تطوير الأفكار الإبداعية، وأولئك الذين كانت لهم

سمعة إيجابية في إيجاد أفضل تلك الأفكار الإبداعية تلقوا احتراماً وطاعةً أكثر من الآخرين وكان يُدفع لهم أجور أعلى من البقية. في حين أن أولئك الذين كانت لهم مساهمات قليلة في جلسات العصف الذهني فإنه لم تعد تُرسل إليهم دعوات لحضور تلك الجلسات ونتيجة لذلك فإنهم سيتركون الشركة في نهاية المطاف. إن تلك التدرجات والاختلافات في المكانة والسلطة والأجور تعتبر هي القلب النابض في أية تراتبية. وبعض الشركات أكثر مصداقية في ذلك من غيرها.

تساعد الهرمية المنظمات والشركات على العمل بشكل أفضل في بعض النواحي، حيث إن القدرة على صعود سلم الهرمية الخاص بالشركة هو أمر من شأنه أن يقدم حافزاً للعمل بجدية أكثر. إحدى الميزات الأخرى للتراتبية هو أنها تقدم قوانين واضحة حول الأدوار وما هو متوقع من الأشخاص في مختلف المناصب وهو الأمر الذي بدوره يقلل الصراع و يساعد كل شخص على تحديد وظيفته. والميزة الأهم هي أن الهرمية تمكن الناس من أن يتخصصوا في المجالات التي يبرعون فيها بشكل أكبر. فعلى سبيل المثال يحتاج المدراء التنفيذيون في شركات الأدوية إلى معرفة كيفية إدارة الشركة، بينما لا يتوجب عليهم معرفة كيف تتفاعل المواد الكيميائية، في حين أن الكيميائيين أنفسهم لا يحتاجون للقلق حول معرفة استراتيجيات السوق.

وبالنظر إلى كل النواحي الإيجابية والمفيدة للتراتبية، فإنك ستعتقد بأنها أمر جيد توفره في قطاع الأعمال، وأنه كلما زادت الهرمية في شركة ما كلما كان ذلك أفضل. ومن المؤسف أنها ليست بتلك السهولة، حيث إنه قد يتم تنظيمها بشكل جيد أو بشكل سيء، وعلى ما يبدو فإنها قد نُظمت بشكل سيء وعلى نحو متزايد. ولفهم لماذا تنظم بشكل سيء على نحو متزايد ربما يكون المشكلة، فكر في هذا السؤال: من تعتقد من التالي ذكرهم لديه الوظيفة الأكثر ضغطاً وتوتراً، هل هو المدير التنفيذي لشركة ما أو الموظف في تلك المكاتب المزدهمة خارج ذلك المكتب الواسع الواقع في الركن؟

يعتقد الكثير من الناس بأن الصرامة والشدة وتروؤس الإدارة التنفيذية وتصفح البريد على الهاتف الذكي هو أمر صعب على الرئيس التنفيذي في الوقت المفترض فيه بأن يحضر حصة تدريب طفله على دوري البيسبول للصغار. ففي مقالة نُشرت مؤخراً في صحيفة وول ستريت جورنال وُصف فيها الوضع المؤلم لأحد الرؤساء التنفيذيين الذي يضطر إلى سحب نفسه من السرير كل صباح وأن يجمع قواه ويضع قناعه لمواجهة يوم طويل ومليء بإعطاء الأوامر والإملاء على الآخرين بما يجب عليهم فعله. وبحسب ما أخبرنا، أصبح الموقف أكثر سوءاً عندما لم يعد باستطاعته أي خيار سوى أن يأخذ إجازة سنة كاملة من وظيفته ليحمر مع عائلته عبر المحيط الأطلسي.

وتوافق مجلة Forbes على ذلك: «العديد من المدراء التنفيذيين لديهم مساعدون شخصيون يساعدونهم في إدارة جدولهم الزمنية، ويحضرون الاجتماع تلو الآخر بفارق لحظة يذهبون فيها إلى دورة المياه لتفريغ مثاناتهم. «يا لها من نقمة! والأمر الأسوأ من امتلاء وضغط المثانة هو الضغط المصاحب للاضطرار لإقالة الناس من وظائفهم: «قد تعتقد أنه يمكن للمدير التنفيذي أن يسهل عليه تحديد من هو الشخص الذي سيستغني عنه ولكن ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة. الاضطرار إلى اتخاذ قرارات صعبة بشأن الناس المحيطين بك هو أمر من الممكن أن يكون له تأثيره الصعب جداً عليك.»

من المؤكد أن طرد الناس من وظائفهم يعتبر أمراً مؤثراً ومرهقاً، إلا أنه ليس بسوء أن تكون مطروداً بالفعل من وظيفتك. في الواقع، فإن البيانات التجريبية تحول الأمثلة المذكورة أعلاه على رؤوسهم. تقدم دراسة أجراها عالم النفس غاري شيرمان وزملاؤه الدليل الأكثر مباشرة حتى الآن على اختلاف الإجهاد الذي يعاني منه الرؤساء والمرؤوسون. حيث قام العلماء بتقييم الموظفين بدوام كامل سواء أكانت وظيفتهم في قطاع الأعمال أو في القطاع العسكري الذين يتلقون دروساً تعليمية خاصة في الإدارة في جامعة هارفارد، قسم الأعمال. تم تصنيف المشاركين إما كقادة أو غير قادة، مع التعريف بالقادة على أنهم أولئك الأشخاص الذين تتطلب وظيفتهم إدارة أشخاص آخرين. وفي استطلاعين للرأي حول القلق والمقاييس الحيوية لهرمون التوتر (الكورتيزول)، أظهر الناس الذين يتبعون الأوامر (غير القادة) مستويات توتر عالية أكثر من أولئك الذين يعطون الأوامر والتوجيهات (القادة)، وكانت النتائج هي نفسها في كل من موظفي (مشاركي) قطاع الأعمال والقطاع العسكري.

وأحد الأسباب التي تجعل الهرمية أمراً مثيراً لتوتر الكثيرين من الناس الموجودين في قاع تلك الهرمية هو أنهم غالباً ما يفتقرون إلى السيطرة على كيفية وتوقيت أدائهم لعملهم. لقد جربت وشعرت بأهمية تأثير السيطرة والتحكم وذلك من خلال مسيرة عملي في سلسلة من الوظائف عندما كنت طالباً في الجامعة. كانت كل وظيفة تبدو أفضل من سابقتها. وأول وظيفة لي كانت مضيفاً (خدمة الطاولات) في مطعم بونديروزستيك هاوس. كانت الإكرامية حوالي دولار واحد لكل طاولة، بالإضافة إلى أن الضريبة كانت تُخصم من الأجر، وهو الأمر الذي كان يعني بأني أعمل بالكامل من أجل الإكرامية. ولأن الإكرامية كانت منخفضة جداً، كنّا نخدم من ست إلى عشر طاولات في نفس الوقت.

ويعتبر الأمر المفضل لي في عمل خدمة الطاولات هو أن الوقت يمر بدون أن تشعر به. فمن اللحظة التي أبدأ فيها العمل، أسرع بتلبية طلبات الشراب من طاولة، وتوصيل الطعام إلى أخرى، وإزالة الأطباق المتسخة من أخرى، بينما ألاحظ بطرف عيني أن هنالك طاولتين إضافيتين قد شُغلتا في القسم الخاص بي. تمر وردية الست ساعات كلمح البصر، وفي نهايتها قد أعاني من ألم في قدمي لكني لا أشعر بالتعب؛ قلبي لا يزال ينبض بسرعة والأدرينالين والكورتيزول لا يزالان يُضخان في عروقي.

ولأنني مهتم بعلم النفس، حصلتُ على وظيفة كنت شغوفاً بها في مكان يُدعى الصحة النفسية «وحدة استقرار الأزمات». كان مفهوم تلك المنشأة هو أن الولاية من شأنها أن توفر الكثير من المال في حال استطاعت إيداع المرضى نفسياً، والذين كان معظمهم من المعوزين، وذلك من خلال وضعهم في مستشفى حكومي. استأجرت الحكومة منزلاً لهم، وبدلاً من توظيف الأطباء الأكفاء ذوي الأجور المرتفعة، كان طاقم العمل عبارة عن ممرضة وبعض المتخرجين حديثاً ومجموعة من طلاب الجامعة. يأتي المرضى عادة وهم في حالة من الهلوسة أو عقب محاولة انتحار أو كليهما. فنقوم (طاقم العمل) بمراقبتهم وبذل قصارى جهدنا في سبيل إبعادهم عن فعل أي أمر من شأنه أن يؤذيهم، ويستمر ذلك إلى أن يستطيعوا الحصول على موعد في العيادة الخارجية مع طبيب نفسي يصف لهم الأدوية التي يحتاجونها. غالباً ما تكون الليلة الأولى ليلة متوترة، حيث ننتظر فيها لنرى

ما إذا كانت المشكلة الرئيسية هي المخدرات (وفي هذه الحالة ستتلاشى الهلوسة) أو الاضطراب الذهاني (وفي هذه الحالة لن تتلاشى الهلوسة).

في مقاطعة وارين كانت كل مناوبة ليلية في ذلك المستشفى يتولاها فريق عمل من خريجي الجامعة بدوام كامل مع طالب جامعي بدوام جزئي. مرّت ليّالٍ عديدة اضطر فيها العنصر المناوب بدوام كامل للخروج لإحضار مريض جديد، تاركاً بذلك الطالب ليتولى مسؤولية العناية بالعديد من المرضى النفسيين غير الخاضعين لأي علاج، من خلال الهاتف. وعندما أُنذِر ما كان يحدث، أشعر بأنها كانت مسؤولية ثقيلة وهائلة على شخص يبلغ من العمر عشرين سنة وكل ما يعرفه عن علم النفس بأنه تخصصٌ أُنِيق. لقد تلقيتُ حدّاً أدنى من التدريب حول ما يجب القيام به عندما يتصل شخص يحاول الانتحار طالباً المساعدة، كل ما أستطيع تذكره هو أنني شعرت بأهمية «إبقائهم يتحدثون» وذلك للحفاظ عليهم من فعل أي أمر آخر من شأنه الإضرار بهم.

الأمر الغريب هو أن تلك الوظيفة كانت أقل ضغطاً وتوتراً من وظيفة خدمة الطاولات في المطعم، نعم المخاطر كانت ذات مستوى أعلى، لكن نادراً ما يطلب المرضى النفسيون الكثير من الطلبات. إذا لم يسبق لك العمل مطلقاً في وظيفة خدمة الطاولات، فإنه قد يكون من الصعب عليك فهم كيف يمكن لطلب ستة أشخاص بإعادة تعبئة مشروبهم الغازي أن يكون أكثر إثارة للقلق من شخص واحد يعاني من أزمة وجودية. ومع ذلك فإنه عندما يُطلب منك أن تقوم بأكثر مما تستطيع أن تقعله حالياً يصبح الأمر بطبيعة الحال مثيراً للتوتر. إنه يشبه محاولة تركيز كل انتباهك لتذكر رقم هاتف ما بينما يصرخ شخص قريب منك بأرقام ما. كل أمر يفعله المضيف يكون تحت ضغط الوقت، ولا يمكن للمضيف أبداً بأن يقول بكل بساطة، «أنا مشغول- سأرجع إليك عندما أنهى ما أقوم به.»

كانت وحدة استقرار الأزمات تعتبر تطوراً بالنسبة لخدمة الطاولات، لكنهما لا ترقيان إلى الضغط الذي مررت به عندما كنت أعمل في خدمة الرد على المكالمات. لست متأكداً ما إذا كانت تلك الخدمة لا تزال موجودة في ظل هذا الانتشار لأنظمة الرد الآلي، لكن في حال كانت لا تزال موجودة، فمن المحتمل أنك لم تدرك بأنك واجهت بالفعل أحد أولئك المرضى، وذلك لأن خدمة الرد على الهاتف هي في الأساس عبارة عن جهاز هاتف تحدث فيه أشخاصاً تجهلهم وتجهل ماهيتهم.

يجلس موظفو خدمة الرد على الهاتف في غرفة مليئة بالكبائن، ويضعون سماعات ويردون على عشرات الاتصالات من الشركات في المدينة. ومهمتنا هي أن لا يشعر المتصل بأنه يتحدث مع خدمة الرد على الهاتف بدلاً من الشركة نفسها، ولكن علينا إيهام المتصل بأنه إذا اتصل مثلاً على شركة للسباكة في الساعة الثالثة فجراً، فإن فريق عمل تلك الشركة والمُدرّبين تدريباً عالياً كان كل ما ينتظرونه هو تلقي مكالمته. وقد يسلك هذا السيناريو مسلكاً خاطئاً عندما يبدأ المتصلون بطرح أسئلة منطقية، مثل، «هل بيلى موجود أم لا؟» حينها فإننا نعتمد على التدريب المتقدم الذي تلقيناه في الفن الأوروبي بما يخص «التحكم في المكالمات». حيث يعتبر التحكم في المكالمات مهارة تمارس من قِبل موظفي خدمة الرد على الهاتف والشخصيات السياسية في جميع أنحاء العالم، ويشمل ذلك التحكم قمع الميل البشري للإجابة على أي سؤال طرح عليك من قبل شخص آخر. كانت مهمتنا

تتمحور حول الحصول على اسم ورقم المتصل وسطر واحد يشرح طبيعة المكاملة، وبعد ذلك إنهاء المكاملة في أسرع وقت ممكن.

وعلى الرغم من أنني لم أكن ارتفع أي درجة على سلم الهرمية -كنت في أسفل سلم هيراركية المكانة لكل وظيفة أحصل عليها- إلا أن السبب الذي جعلني أشعر بالرضا المتزايد في كل تلك الوظائف التي شغلتها (بما في ذلك وظيفة خدمة الرد على الهاتف) هو أنني اكتسبت المزيد والمزيد من التحكم في عملي ومن تفاعلي مع زملائي. عادة ما تكون الزيادة في مستوى التحكم والسيطرة يصاحبها زيادة في الرتبة على سلم الهرمية بالإضافة إلى زيادة في الأجر، ولكن الطرق التي يؤثر فيها انعدام المساواة في الأجر على الإنتاجية والرضا الوظيفي هي طرق معقدة وغالباً ما تكون مفاجئة. ومن المفترض لانعدام المساواة في الأجور أن يكون تحفيزياً. إن مكافأة الموظفين الأكثر إنتاجية في عملهم، كما تفترض النظرية، سيدفع الجميع للعمل بجد أكبر لتحقيق أجر أعلى. يخلق هذا النوع من الأجور (الأجر مقابل الأداء) فهماً اقتصادياً مثالياً. لكن لسوء الحظ ليس كل الناس جيدين في اتباع القوانين الاقتصادية. قد يكون انعدام المساواة في الأجر دافعاً محفزاً، إلا أنه قد يكون أيضاً دافعاً للاستياء والامتناع.

إذا كنت مديراً وتريد استخدام التفريق بالأجر بهدف تحفيز موظفيك، فإنك بذلك تريد أن تكون صريحاً وواضحاً حول مقدار ما يتقاضاه كل موظف لديك. وفي حال كان لدى الموظفين بالفعل معلومات كاملة حول مقدار ما يتقاضاه الأشخاص الآخرون على كل درجة وظيفية في سلم رواتب تلك المؤسسة التي يعملون لديها، فإنهم حينها يستطيعون ضبط وتعديل اجتهادهم في العمل وفقاً لذلك. لكن في الممارسات المهنية تكون لدى معظم الشركات سياسات رسمية أو قواعد غير رسمية تمنع تلك المعلومات من أن تظهر للعلن. تعتبر سرية الأجور أمراً منطقياً في حال اعتقدت بأن آثار انعدام المساواة في الأجر على الاستياء والامتناع ستكون طاغية على آثارها الإيجابية في الأداء الوظيفي.

تعمل سرية الأجر أيضاً على إثارة المتاعب عندما يكون هنالك شخص ما لا يستطيع الحفاظ على الأسرار. تماماً مثل السر الذي سرّبه باحثون عابثون في أحد الدراسات حول كيفية تأثير انعدام المساواة في الأجور على الموظفين. ففي عام ٢٠٠٨ قام ساكرامنتو بي بإطلاق موقع إلكتروني يسرد فيه راتب كل موظف في ولاية كاليفورنيا، وتضمن القوة العاملة وطاقم العمل بالكامل لنظام جامعة كاليفورنيا. كان لدى فريق بحثي بقيادة الاقتصادي ديفيد كارد فكرة تنص على إبلاغ بعض أعضاء هيئة التدريس والموظفين حول الموقع الإلكتروني للتعرف على مدى تأثير ذلك على رضاهم الوظيفي، فقاموا بإرسال رسالة إلكترونية إلى مجموعة من آلاف الموظفين لإرشادهم إلى الموقع وتزويدهم برابط مساعد يقودهم إليه وذلك حتى يسهل عليهم الاطلاع والبحث عن الرواتب بأنفسهم. في حين لم ترسل تلك الرسالة إلى مجموعة أخرى من الموظفين. وبعدها ببضعة أيام أرسل استبيان إلى كلتا المجموعتين حول رضاهم الوظيفي ومدى احتمال تغيير وظائفهم في العام المقبل.

الأمر غير المفاجئ هو أن موقع الأجور الإلكتروني كان له تأثيره الحاد على الموظفين. فقد أدت معرفة الموظفين برواتب زملائهم إلى حدوث تأثير كبير على سعادة الموظفين في وظائفهم، إلا أن

ذلك التأثير اعتمد على مقدار ما يجنونه من المال. فبالنسبة لأولئك الذين يجنون أقل من متوسط رواتب زملائهم في القسم فإن تلك المعرفة عملت على جعلهم أقل رضا وأكثر اهتماماً في البحث عن عمل في مكان آخر. لكن أولئك الذين كانوا يجنون أعلى من المتوسط فإن الكشف عن رواتبهم المرتفعة جداً لم يجعلهم يشعرون بمقدار عالٍ من الرضا الوظيفي. في الواقع، لم يحدث هذا أي تأثير عليهم.

وبعد ذلك الاستبيان بثلاث سنوات، قام الباحثون بمتابعة أوضاع أولئك الموظفين الذين تم إرسال موقع الأجور إليهم وذلك لمعرفة من منهم انتقل من وظيفته. كانت النتيجة أن أولئك الموظفين الذين تقاضوا أقل من المتوسط قد أصبح الكثير منهم الآن لا يعملون في الجامعة. لا يعتبر الأجر المنخفض هو السبب الذي دفعهم للمغادرة، وذلك لأن الموظفين ذوي الأجور الأقل في المجموعة التي لم ترسل إليها رسالة بريدية لم يغادروا بنفس تلك المعدلات المرتفعة التي غادرت من المجموعة التي أرسلت إليها الرسالة؛ بل إن السبب الأكثر أهمية و الذي دفعهم لترك العمل هو معرفة أن أجورهم كانت أقل من أجور زملائهم.

وجدت دراسة جامعة كاليفورنيا أن المستويات العالية من انعدام المساواة في الأجور تعمل على تقليل رضا أولئك الذين هم في قاع السلم الوظيفي بدون زيادة رضا وسعادة من هم في قمته، وهم الأمر الذي يتعارض بدوره مع نظرية الأجر على قدر الأداء، إلا أن هذا البحث لم يتقصّ الأداء الوظيفي. هل من الممكن أن يكون انعدام المساواة في الأجر لا يزال يعتبر دافعاً للأداء الوظيفي الأفضل؟ إن الإنتاجية والأداء هما أمران يصعب قياسهما في بيئة جامعية وذلك لأن «الإنتاجية» هي أمر له معانٍ مختلفة عندما يتم تطبيقه على الباحثين والأساتذة والإداريين. وأشارت دراسات أخرى إلى أن مسألة الأداء يصعب قياسها في بعض الميادين، مثل ميدان الرياضة وعلى سبيل المثال: دوري الأبطال.

في أحد الدراسات، قام الاقتصادي مات بلوم بحساب عدد مرات الخسارة والفوز بكل فريق في دوري البيسبول الرئيسي على مدى ثمان سنوات. وتماشياً مع نظرية انعدام المساواة في الأجر تحفز أداء أفضل، فإنك ستوقع بأن الفرق ذات الفروقات الأكثر في الأجور هي الفرق التي ستربح جولات أكثر. إلا أن ارتفاع مستوى انعدام المساواة في البيسبول (مثل الاقتصاد الأمريكي) هو أمر مُوجه بالكامل- تقريباً- بواسطة الرواتب المالية الهائلة التي تُدفع للاعبين الأفضل أداء. هل يعتبر منح نجوم الفريق رواتب عالية أمراً من شأنه أن يزيد من فرص فوز الفريق؟

ما وجدته مات بلوم في تلك الدراسة كان العكس تماماً. كان أداء الفرق التي تنتم بمستويات عالية من انعدام المساواة في الأجر سيئاً أكثر من الفرق التي تقل فيها مستويات انعدام المساواة. تم العثور على آثار مشابهة لدراسة مات بلوم في دراسة لاتحاد كرة القدم الأمريكية حيث وجدت أن فرق كرة القدم التي لديها مستويات عالية من انعدام المساواة قد فازت بمباريات أقل. كما كشفت تلك الدراسة أيضاً عن وجود انكماش ملفت للانتباه، وهو ارتباط الارتفاع في انعدام المساواة في الأجر بارتفاع إيرادات الفريق المالية. يعتبر التفسير الأكثر ترجيحاً لنتائج تلك الدراسة هو أن إنفاق مبالغ ضخمة من المال لشراء نجوم رياضيين تزيد من رغبة المشجعين لدفع قيمة التذاكر والتغطية الإعلامية

لمشاهدة هؤلاء اللاعبين المشهورين، حتى ولو كانت عقودهم الباهظة الثمن قد أضعفت الأداء العام للفريق.

ولكن لماذا يؤدي انعدام المساواة في الأجر إلى ضعف الأداء؟ يعتبر الجانب السلبي الرئيسي لذلك الضعف هو انعدام المساواة في الأجر وهو أمر من شأنه أن يعمل على خلق استياء بقية أعضاء الفريق وبالتالي تقل لديهم روح التعاون والعمل الجماعي. وللتحقق من هذا التفسير فإننا نحتاج إلى النظر إلى ما هو أبعد من مجرد عدد مرات الفوز وعدد مرات الخسارة وذلك بهدف التحقيق باستخدام تفاصيل أكثر حول أداء كل لاعب بعينه.

يحب الباحثون دراسة لعبة البيسبول دائماً وذلك بسبب توفر وتسجيل الإحصائيات اللازمة للاعبين في كل مباراة يخضونها. قام مات بلوم بتقصي إحصائيات جميع اللاعبين في بطولات الدوري التي جرت في نفس الوقت الذي أجريت فيه الدراسة الأصلية، والبالغ عددهم ١٦٤٤ لاعباً.

ومن غير المفاجئ، كان أداء اللاعبين ذوي الأجور المرتفعة أفضل من زملائهم اللاعبين ذوي الأجور المنخفضة. في حين كان اكتشافه المفاجئ هو أن النجوم الساطعين في الفرق ذات المستويات العالية من انعدام المساواة قد أدوا أداء أسوأ من النجوم الساطعين في الفرق ذات مستويات انعدام المساواة المنخفضة. إذا كنت تعتقد بأن انعدام المساواة في الأجر سيعمل على تحفيز أداء نجوم الفريق، فإنك ستحصل على نتيجة عكس ذلك تماماً. فعلى ما يبدو أن المستويات العالية من انعدام المساواة تعمل على إضعاف وتنشيط النجوم اللاعبين الساطعين في الفريق بدلاً من تحفيزهم، وهو الأمر الذي سنتوقع حدوثه في حال كنت تعتقد بأن التأثير الرئيسي لانعدام المساواة في الأجر هو إقلال من تماسك وتعاون الفريق. وبحسب ما ذكر في دراسة لجامعة كاليفورنيا، فإن آثار انعدام المساواة الضارة على الروح المعنوية والعمل الجماعي تطغى على آثارها الإيجابية في الأداء.

إلا أن الأمر الجدير بالذكر هو أن انعدام المساواة في الأجر لا يعمل بشكل دائم على تنشيط وإضعاف الأداء. حيث كشفت دراسات الغولف الاحترافية أن البطولات التي تتسم بمستويات عالية من انعدام المساواة في جوائز الفائزين المالية هي بطولات ارتبطت بنتائج تسديد أفضل لكرات الغولف. وبالمثل، كشفت دراسة لسباق ناسكار بأن زيادة انعدام المساواة في الجائزة المالية هي أمر من شأنه أن يؤدي إلى زيادة سرعة السباق. يوجد هنالك اختلاف تام بين أداء الرياضات الجماعية (مثل البيسبول أو كرة القدم) وبين أداء الرياضات الفردية (مثل الغولف والسباق) حيث إنه في نهاية المطاف يمكن للمتنافس الواحد بأن يركز بشكل أكبر أو أن يغير استراتيجيته في حال ارتأى بأنه سيحصل على مال أكثر. في حين أن الرياضات الجماعية تتفوق فيها قدرة العمل الجماعي لدى المجموعة على موهبة كل عضو منفرد فيها. ولهذا السبب يمكن لتأثير انعدام المساواة الهدام لتناسق الفريق بأن يتفوق ويطغى على التأثير المُحفز لأفراد معينين في الفريق.

ولفهم آثار انعدام المساواة في العمل علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما إذا كانت تتوزع المهام في مكان العمل كتوزيع مهام فريق رياضة جماعي أو كتوزيع مهام رياضة فردية. بعض الوظائف هي في الأساس رياضات فردية. إذا كنت سائق شاحنة تتمحور مسؤوليته حول القيادة بمفردك لساعات

أو أيام متواصلة، حينها فإن الفجوة الكبيرة بين السائقين الذين يحصلون على الأجر الأفضل والسائقين الذين يحصلون على الأجر الأسوأ في الشركة التي تعمل بها هي فجوة من شأنها أن تعمل على تحفيز الأداء الأفضل من ناحية- على سبيل المثال- القيادة لساعات أطول في سبيل تحصيل أجر أعلى. إلا أن الغالبية العظمى من أماكن العمل في أماكن وبلدان الاقتصاد الحديث تتطلب عملاً جماعياً، حتى الوظائف الفردية جزئياً مثل برمجة الحاسب تتطلب عادةً بأن تصبح جزءاً من فريقٍ ما وذلك لإنجاز مشروع أكبر من عملك الفردي الذي تمارسه، وعلى الأقل يكون العمل لبعض الوقت فقط.

لا يقتصر أثر انعدام المساواة في الإخلال بأداء الفريق على الرياضة فحسب. حيث قامت دراسة ضخمة لعشرات الشركات بمقارنة جودة المنتجات التي تنتجها بالتصنيف المعطى لها من قبل مدراء تنفيذيين مستقلين وخبراء في مجالات تلك المنتجات. ووجدت تلك الدراسة بأنه كلما زاد مستوى انعدام المساواة في الأجر بين ساعات عمل المدراء التنفيذيين وساعات عمل الموظفين، كلما قلت معه جودة ما يقومون بإنتاجه. معظم المنتجات هي نتيجة لسلسلة إنتاج طويلة ومعقدة تتضمن تفاعل وعمل الآلاف من الموظفين على مختلف المستويات في الشركة. حيث كلما كان مكان العمل يستند على العمل الجماعي أكثر كلما زاد طغيان الآثار السلبية للاستياء من انعدام المساواة على آثاره الإيجابية المحفزة للعمل.

ليست المساواة بالضبط ما يريده الموظفون حيث إنهم يفهمون بأن الشخص المُدرَّب تدريباً متطوراً صاحب المهارات اللازمة والخبرة الكافية سيُدفع له أجر مالي أكثر من الموظف المبتدئ والمُفتقر للمهارات اللازمة. ما يرغب الناس به هو التوازن العادل بين ما يقدمونه من عمل وبين ما يحصلون عليه بالمقابل. فكر بهذا الأمر على أنه نسبة، وأبسط تعبير عنه هو دولار مقابل كل ساعة عمل. يوجد هنالك أنواع أخرى من المكافأة على العمل إلى جانب المال وأنواع أخرى من العمل إلى جانب مقدار العمل المُنجز.

وعندما يكون التناسب بين ما يقدمونه وبين ما يحصلون عليه تناسباً غير متوازن، سيحاول الناس استعادة ذلك التوازن. إن الأمر المثير للاهتمام حول هذه النسبة بالذات هو أنه يمكن جعلها أكثر ملاءمة وذلك إما من خلال زيادة المكافآت أو من خلال تقليل العمل. وبالأخذ بأبسط تعبير عن تلك النسبة (دولار مقابل كل ساعة عمل) فإن تلك الملاءمة تعني إما رفع مقدار الأجر (لنفس مقدار العمل المُنجز) أو تقليل عدد ساعات العمل (لنفس مقدار الأجر). عندما يشعر الموظفون بأنهم لا يحصلون على أجر مكافئ لما يقدمونه من عمل، فإنه يمكنهم التفاوض وطلب المزيد من الأجر والفوائد، حينها سيصبحون أكثر إبداعاً في أساليبهم لتحقيق ذلك التوازن.

يمكنهم تحقيق ذلك التوازن من خلال التهرب من مسؤولياتهم، مثل آدم، عامل صيانة في الجامعة تمت مقابلته من قبل المؤلف مارتن سبروس. حيث أوضح آدم ما يفعلونه خلال ساعات عملهم قائلاً: «دائماً ما يبدو علينا بأننا ننتمي إلى أي مكان نحن فيه وذلك لأننا نرتدي قفازات العمل ولدينا شاحنة وُضع عليها شعار الجامعة»، وأضاف قائلاً: «إن الجامعة تمتد عبر مدينة بأكملها في ولاية نيوجرسي، وهو الأمر الذي يُمكننا من أن نذهب إلى أي مكان نريده بدون أن يفكر مشرفونا أو

يشكّوا في أي شيء. هذا الأمر يعطينا الكثير من الحرية للقيام بكل ما نريده. نحن نقود الشاحنة بصورة مستمرة ونذهب إلى منزل زميل لنا ونخلد إلى النوم لبضع ساعات، وبعد ذلك نرجع لإكمال العمل».

يوجد هنالك طريقة أخرى يسعى من خلالها الموظفون لتحقيق ذلك التوازن، وهي زيادة الأجر الذي يتقاضونه ويكون ذلك من خلال السرقة، مثل روي، موظف الشحن في مستودع الخمر. حيث كانت الشركة التي يعمل بها في طور الانتقال من بوسطن إلى لمويزفيل وتخطط لتسريح جميع الموظفين. ووفقاً لما قاله روي فإن «الروح المعنوية قد دُمِرت تماماً في المصنع بأكمله.» كانت إحدى مهام روي هي التجول في المستودع والتقاط زجاجات الخمر نصف الفارغة التي شُربت من قبل الموظفين الآخرين. وبعد التقاط زجاجات الخمر تلك، يقوم بالتخلص من أرخصها والاحتفاظ بأفضلها لنفسه. وأضاف روي قائلاً: «كنا كل شهر نقوم بجرد مخزونات المستودع وتعقب (الانكماش) الذي يحصل له، وهو الأمر الذي ينبغي أن يطلق عليه تعقب (الاحتساء)... وفي النهاية، قرر الموظفون أيضاً في قسم الشحن بأننا قد نستلم مكافآت نهاية الخدمة الخاصة بنا. وفي اليوم الأخير، كان من المفترض علينا بأن نقوم بتحميل كل المخزون المتبقي إلى شاحنة صندوقية ونقله إلى كنتاكي. الذي حدث هو أننا قمنا بتحميل ما يقارب الـ ٢٠٠ حاوية المملوءة بالخمر المتنوعة على متن سيارة نقل صغيرة، حيث قمنا بقيادتها حول المدينة وتوقفنا عند منزل كل موظف منا لإعطائه ما يلزمه من الحمولة. وعندما عادت هذه السيارة إلى المصنع، كانت فارغة تماماً. ولا يزال لدي إلى الآن بعض ذلك الخمر».

أحياناً تأخذ إعادة التوازن أشكالاً أكثر غدراً، كما هو الحال مع أحد سماسرة البورصة والمعروف بـ P.J.K. : «لقد رأيت كل الأموال التي يسرقها أولئك الأشخاص، وقلت لنفسني، «أريد حصة من ذلك». وفي أحد الأيام أدرك أنه باستطاعته إجراء صفقات كبيرة بواسطة استخدام هاتف مشترك في قاعة التداول. وأسهب قائلاً: «لقد تناولت بعض الهواتف، وضغطت على مجموعة من الأزرار ثم ركضت لشاشة العرض لمشاهدة هبوط ونزول السوق... لقد أصبحت هذه العملية لعبة كبيرة واستمتعت بالتلاعب بالأشياء في قسم التداول ومن ثم الركض إلى الشاشة لرؤية تذبذب السوق. لقد كان الأمر مضحكاً وذلك لأنني كنت أسأل التجار عما إذا كان باستطاعتي استعارة هواتفهم لثانية من الزمن، عندها اتصل بالرد الآلي لأضع قبضتي على لوحة المفاتيح.

على الأقل كانت سرقتي سرقة من اللصوص، إلا أن التخريب والعبث الواضح الأثر من الممكن أن يؤدي إلى أضرار لا معنى لها. كان من بين المشاركين في دراسة سبراوس موظف بريد قام بتدمير صناديق البريد بالكامل، وموظف مسؤول عن تغليب الأناناس أراد أن يدخل ويرسل قفازات عبر آلة التقطيع من أجل تدميرها. في حين كان المخرب الأكثر خبثاً هو موظف في مصنع لصناعة السيارات إذ قام بوضع الـ BBs في الكربراتور كي تتعطل السيارات بشكل مفاجئ ومتقطع بطريقة يبدو وكأنه عطل عشوائي بطريقة تثير الجنون. تلك التصرفات تبدو تصرفات لا معنى لها إلى أن نتذكر التوازن الذي يحاول الناس تحقيقه والوصول إليه. إن محاولة مساواة نسبة الأجر بالعمل المقدم من خلال الإقدام على مثل تلك الأعمال السلبية لن تؤدي إلى زيادة وتحسين الرصيد البنكي،

لكن بإمكانها موازنة تلك الحسابات عاطفياً. إنها كما قال عنها آدم، موظف الصيانة الجامعي: «في حال كان عليّ أن أبرر سبب ما قمت به، فإني سأقول لا يوجد هنالك أي دافع دفعني للانتقام، مجرد عطاء عادل وأخذ عادل.»

عندما قام الباحثون بتحديد الدوافع لتلك السلوكيات السيئة بين مئات الموظفين المشاركين في الدراسة التي أجراها سباروس، وجدوا أن الدوافع الأكثر شيوعاً كانت الشعور بالظلم وافتقار التحكم بما يدور حولهم. ولأن تلك التقارير كانت مجرد سرد قصصي، فقد بحثت دراسة أخرى وبطريقة أكثر منهجية حول كيفية تأثير الظلم على تحفيز السلوك السيء في العمل. حيث قام الباحثون بالتعاون مع شركة لتصنيع قطع غيار السيارات وتعمل على إدارة ٣ مصانع لها. ومؤخراً فقدت هذه الشركة عقودها مع أحد عملائها الجوهريين ونتيجة لذلك فإنه سيحتّم عليها تخفيض أجور موظفيها بشكل مؤقت حتى تستطيع استعادة وتعويض الإيرادات المفقودة. أُنقِعَ الباحثون الشركة بتحويل التخفيض المؤلم للأجور إلى تجربة حقيقية وواقعية.

في أحد مصانع الشركة، أعلّمت الإدارة الموظفين عن العقود المفقودة وأبلغهم بأنه سيكون هنالك خفض في الرواتب بنسبة ١٥ بالمائة وسيكون ذلك خلال الأسابيع العشرة القادمة. وفي المصنع الثاني، لم تعمل الشركة على خفض أي نسبة من رواتبهم. بعد ذلك عمل الباحثون مع محاسبي الشركة للقياس مقدار «الانكماش» الذي حصل في مخزونات المصانع، وبعبارة أخرى، قاموا بمراقبة وحساب كم من البضائع والمعدات التي اختفت من المصنع بشكل غامض ومفاجئ.

في الأسابيع العشرة التي سبقت تخفيض الأجور، كان لدى كلا المصنعين نفس معدلات الانكماش، حيث تم اختفاء أقل من ٣ بالمائة من سلع المصنع. ولكن خلال الأسابيع العشرة من انخفاض الأجور، شهد المصنع الذي عانى من تخفيض أجور موظفيه تضاعف نسبة الانكماش ثلاثة أضعاف ما كانت عليه. وللتأكد من أن تلك التأثيرات التي رأوها كانت مدفوعة فعلياً بواسطة تخفيض أجور الموظفين، أكمل الباحثون مراقبة مستويات الانكماش خلال الأسابيع العشرة التي تلت استعادة استلام الموظفين لأجورهم العادية. وبعد المراقبة، وجدوا أن معدلات السرقة قد عادت إلى مستوياتها وإلى ما كانت عليه قبل تخفيض أجور الموظفين.

هل كان الموظفون يسرقون لأنهم يحتاجون إلى المزيد من المال ويريدون الاستفادة من قيمة المنتجات التي يسرقونها؟ أم أن الشعور بالظلم هو من دفعهم للسرقة كوسيلة لتحقيق التوازن؟ لقد ذكرت سابقاً أن هناك مصنعاً ثالثاً لتلك الشركة، قام الباحثون باستخدام هذا المصنع الثالث لإلقاء الضوء على سبب زيادة السرقة. في هذا المصنع، خفضت الإدارة الأجور بنسبة ١٥ بالمائة، ولكن بدلاً من الإعلان عن هذه النسبة والإجراء بدون مراعاة للموظفين، شرحت إدارة الشركة للموظفين الظروف الحالية التي تمر بها الشركة والأسباب الدافعة لذلك التخفيض، موضحين بأن هذا الإجراء مُطبق على الجميع وهو وحده من يُمكنهم من تجنب تسريح أي شخص في هذا المصنع. كما أكد مدير المصنع بأنه هو والفريق الإداري بالكامل سيتم تخفيض أجورهم بنفس نسبة باقي الموظفين تماماً. ونتيجة للمراقبة، وجدوا أنه في هذا المصنع ارتفع معدل السرقة بشكل طفيف خلال فترة تخفيض الأجور بنسبة لا تزيد عن ٥ بالمائة. وكما تشير هذه النتائج فإن السرقة كانت أمراً متعلقاً

بشكل أساسي بموازنة النسبة بين الأجر والعمل في حال رأى الموظفون بأنها نسبة غير عادلة و غير متكافئة.

لقد رأينا أنه عندما يشعر الموظفون ويواجهون فقدان السيطرة فإنهم حينها يُصابون بالتوتر، وعندما يشعرون بأنه لا يُعاملون بالعدل، فإنهم يُعادلونها من خلال موازنة ما يقدمونه بما يحصلون عليه. على الرغم من أن خفض الأجور هي أحد أكثر الطرق المؤكدة لإثارة الشعور بالظلم، إلا أن هنالك العديد من الطرق الأخرى. وكما رأينا، يحكم الناس على أجورهم من خلال مقارنتها بأجور الآخرين، مما يعني أن الأجور المنخفضة للموظفين العاديين المُقترنة بالزيادة لأجور المدراء التنفيذيين خلال السنوات الأخيرة هو أمر من شأنه أن ينذر بتوجه مشؤوم العواقب.

أوضحت دراسة موظفي جامعة كاليفورنيا أن الموظفين لا يمكنهم الشعور بعدم الرضا عن انعدام المساواة إلا عندما يدركون وجودها. وأثبتت دراسة حديثة أنه في كل من أمريكا والعالم بأجمعه لا يعي الناس ولا يدركون مدى انعدام المساواة الموجودة في معظم الشركات و المنظمات الربحية. طلبت إحدى الدراسات- والتي شملت على مواطنين من ٤٠ دولة من حول العالم- من المشاركين بأن يقدروا كم يتقاضى الموظف غير الماهر العادي سنوياً في دولتهم وكم يتقاضى مدير شركة صناعية كبرى، ثم سألوا عن حجم المبلغ الذي من المفترض أن يتقاضاه الموظف العادي والمدير التنفيذي العادي. بعد ذلك قام الباحثون بحساب نسبة أجر المدير التنفيذي إلى أجر الموظف العادي.

في كل دولة انتمى لها أولئك المشاركون، كان مستوى ما يفترضونه من انعدام المساواة أقل مما قاموا فعلياً بتقديره. ففي المتوسط، اعتقد المشاركون بأن المدراء التنفيذيين يتقاضون ١٠ أضعاف ما يتقاضاه الموظف العادي. وفي المقابل اعتقدوا بأن المبلغ الذي يُفترض بالمدراء التنفيذيين أن يتقاضوه هو بالمتوسط ٤.٦ ضعف ما يتقاضاه الموظف العادي. وتعتبر أحد الجوانب والأمر المذهلة في نتائج تلك الدراسة هي درجة إجماع المشاركين على هذا الرأي. اعتقد الناس الذين قاموا بوصف أنفسهم على أنهم ليبراليون سياسياً بأن المدراء التنفيذيين من المفترض بأن يجنوا ٤ أضعاف الموظف العادي، بينما اعتقد الناس الذين وصفوا أنفسهم بأنهم محافظون سياسياً بضرورة أن يتقاضى المدراء التنفيذيون ٥ أضعاف الموظف العادي. اعتقد المشاركون الذين كانوا ينتمون إلى فئة الأقل ٢٠٪ من الدخل المالي بأنه يفترض أن يجني المدراء التنفيذيون ٤.٣ ضعفاً مما يجنيه الموظف العادي، بينما اعتقد المشاركون الذين انتموا إلى فئة الأكثر ٢٠ بالمائة دخلاً مالياً بأن المدراء التنفيذيين من المفترض بأن يجنوا ٥ أضعاف الموظف العادي. كانت أفكار الناس وافتراساتهم موحدة بشكل مدهش حول العمر المفترض ومستويات التعليم المفترضة وكل متغير آخر درسه الباحثين قد اتفقوا عليه أيضاً بشكل مدهش.

إن الإجماع العالمي المذهل حول مقدار انعدام المساواة في الأجور التي من الممكن للناس بأن تتقبلها هو أمر تجاوز الحدود المعقولة، ولم يكن ذلك التجاوز إلا عن طريق الجهل العالمي المدهش حول مقدار انعدام المساواة الموجود فعلياً. في كل دولة تم اختبارها، قام مواطنوها، المشاركون في الدراسة، بالتقليل من تقدير الدرجة الفعلية لانعدام المساواة في الأجور. فعلى سبيل المثال قدر الأمريكيون بأن ما يجنيه المدراء التنفيذيون يعادل قرابة ٣٠ ضعف الموظف العادي، وفي الواقع

وحسبما يشير الباحثون فإن المدراء التنفيذيين العاديون في عام ٢٠١٢م كسبوا ١٢.٣ مليون دولار. وذلك حوالي ٣٥٠ ضعفاً لدخل الموظف العادي المُقدر بـ ٣٥٠٠٠ دولار.

يعتقد الأمريكيون أن المدراء التنفيذيين يجنون ما يقارب مليون دولار سنوياً، وإذا قمنا برسم وتحديد هذا الدخل على الشكل التوضيحي ذي الحجم البشري التوضيحي لتوزيع الدخل من الفصل التمهيدي، فإنه سيكون أعلى المرفقين بالضبط. وعلى الرغم من ذلك فإن تحديد القيمة الصحيحة البالغة ١٢ مليون دولار ستتطلب ٨ رجال يقفون على رؤوس بعضهم البعض. لا يتوقع الموظفون أبداً بأن ما يجنيه المدراء التنفيذيين هو ٣٥٠٠٠ دولار كما لا يتوقعون أن يجنوا لأنفسهم الـ ١٢ مليون دولار. تعتبر نسبة ٣٥٠ إلى ١ هو أمر كافٍ لإهانة الشعور بالعدالة لدى معظم الموظفين. وإذا كان المسؤول التنفيذي يعني لشركة ما أكثر مما يعنيه الموظف العادي، هل هو بالفعل يستحق أكثر مما يُعطى للموظف العادي بمقدار ٣٥٠ مرة؟

على الرغم من صعوبة تحديد القيمة الدقيقة للمدير التنفيذي، إلا أن الدراسات استطاعت أن تضع تقديرات تقريبية لذلك. حيث يستطيع الباحثون تحديد مقدار ارتباط ثروة شركة ما لمن يتولى قيادتها، ويكون ذلك من خلال فحص أداء العديد من الشركات على مدار سنين عديدة. وافترض أن بعض المدراء التنفيذيين هم أفضل من غيرهم، وأن الشركات التي يرأسها أفضل أولئك المدراء التنفيذيين من المُفترض بأن يتقاضوا أجوراً أعلى هو على ما يبدو افتراض منطقي. إلا أن هنالك العديد من العوامل الأخرى التي تساهم في تحقيق أرباح أعلى للشركة والتي لا يستطيع المدير التنفيذي أن يسيطر عليها. إذاً السؤال الذي يجدر بنا طرحه هو ما مدى التأثير الفعلي للمدير التنفيذي ذي المستوى الممتاز في أداء عمله على نجاح شركة ما؟

في تحليل شامل لآلاف الشركات على مدى يقارب عقدين من الزمن، وجد أستاذ الإدارة ماركوس فيتزا أن حوالي ٥ بالمائة فقط من اختلافات الأداء بين الشركات من شأنها أن تكون عائدة إلى المدير التنفيذي لتلك الشركات، في حين لعبت عوامل أخرى دوراً أكبر من ذلك بكثير. حيث تؤثر التقلبات الاقتصادية على الشركات بطرق لا يستطيع المدير التنفيذي أن يفعل أي شيء حيالها. تعتبر بعض المجالات التجارية مثل الأعمال المصرفية، أكثر ربحية من غيرها من الأعمال، مثل الزراعة. وبعض الشركات كانت أكثر نجاحاً من غيرها قبل أن يتولى المدير التنفيذي الحالي زمام أمورها. وبالإضافة إلى هذه العناصر التي لا يمكن التحكم بها، فإن تقديرات ماركوس فيتزا تشير إلى أن حوالي ٧٠ بالمائة من أداء شركة ما، والتي يحصل فيها المدير التنفيذي عادة على التقدير والولم تجاه ذلك الأداء، هي مسألة فرصة عشوائية بحتة. عندما تبدأ أحد الشركات طريقها في إيجاد مدير تنفيذي جديد، فإنها غالباً ما توظف الباحثين عن العمل والشركات الاستثمارية، وتقضي شهراً من العمل الدؤوب وتتفق الملايين من الدولارات في سبيل اختيار المرشح المناسب لهذا المنصب. تشير أبحاث ماركوس فيتزا إلى أن تلك الشركات ربما تكون أيضاً قد حددت واختارت نخبة من المتقدمين ذوي المؤهلات العامة المطلوب توفرها لشغل المنصب، وبعد ذلك التحديد تضع جميع تلك الأسماء في قبعة لتجري سحباً عليها.

يميل الناس إلى مقاومة قبولهم لفكرة أن النتائج التي يهتمون لأمرها هي نتائج حدثت بسبب

محض الصدفة. أظهرت الدراسات مراراً وتكراراً أن مستثمري الأسهم المحترفين لا يستطيعون دائماً التغلب على صندوق الاستثمار الذي بدوره يعكس السوق بأكمله. لا يستطيع مدمنو المشروبات الغازية التفرقة والتمييز بشكل تام بين الكوكاكولا والبيبسي في اختبار التذوق الأعمى. ولا يستطيع عازفوا الكمان المحترفون معرفة ما إذا كانوا يعزفون على ستراديفاريوس أو الكمان العادي في حالة كانوا مغمضي الأعين. ومع ذلك الجهل وانعدام السيطرة، ما هو مقدار الوقت والجهد المكرّسين لاختيار الأسهم وشراء المشروبات الغازية ذات العلامات التجارية المعروفة وصرف تحويشة العمر على آلة الكمان تلك المقدرة بـ ٣ مليون دولار؟

ليس من المفاجئ أن نتائج تحليل دراسات ماركوس فيتزا كانت نتائج مثيرة للجدل. قام باحثون آخرون بإعادة تحليل البيانات باستخدام تقنيات إحصائية مختلفة ووجدوا أن نسبة تأثير المدير التنفيذي قد تكون نسبة مرتفعة تصل إلى ٢٢ بالمائة. التقديرات الأخرى تقع في مكان ما في الوسط. وبغض النظر عما إذا كان الرقم الحقيقي لتأثير المدير التنفيذي يقارب الـ ٥ بالمائة أو الـ ٢٢ بالمائة، فإنه سيكون من الصعب إقناع الموظفين بأن المدير التنفيذي هو شخص يستحق ما يُعطى له من مال نظير ما يقدمه للشركة.

من شأن المبالغة في انعدام المساواة الذي نراه اليوم في أجور المدراء التنفيذيين أن يؤدي إلى إضعاف وتقويض الرضا الوظيفي والعمل الجماعي وجودة المنتج الذي ينتجه أولئك الموظفين، حيث يُلهم انعدام المساواة الموظفين ويدفعهم إلى التهاون والسرقة والتخريب. وعلى الأرجح فإن تلك النزاعات، التهاون والسرقة والتخريب، هي نزاعات لا تزال تحت الدراسة إلى الآن وذلك بسبب الافتقار العام إلى الوعي بمدى انعدام المساواة الفعلي الموجود في سلم الرواتب. ولكن مع وصول أجر المدير التنفيذي إلى ارتفاعات جديدة، فإن معرفة ذلك الأجر أصبح مسألة عامة يعرفها الكثير والكثير من الناس.

في عام ٢٠١٥، طُلب من الشركات لأول مرة بالإفصاح علناً عن نسبة أجر المدير التنفيذي إلى نسبة أجر الموظف العادي. وعلى الرغم من أنه من المبكر جداً معرفة ما إذا كان ذلك الإفصاح العلني لتلك المعلومات من شأنه أن يحدث أي تأثير على الروح المعنوية للموظفين. إلا أنه من الواضح بأن الوعي بعدم المساواة في الأجور بدأ في الازدياد. حيث أن ثلاثة أرباع الأمريكيين يعتقدون فعلياً بأن راتب وأجر المدير التنفيذي هو راتب مرتفع جداً، فيما يعتقد ما يقارب الثلثين منهم بأنه يجب تحديد أجر و راتب المدير التنفيذي ووضع سقف محدد له. تخيل ماذا سيحدث بمجرد أن يعرفوا الحقيقة.

الفصل التاسع

فن العيش عامودياً

سلام أكثر تساوياً، مقارنة مع الاهتمام والأمور الأكثر أهمية

تتناول كل دراسة في هذا الكتاب جانباً واحداً من جوانب انعدام المساواة. ولتحقيق تقدم علمي كان من الضروري تقسيم المشكلة المعقدة إلى أجزاء أبسط في سبيل فهم دور كل جزء من تلك الأجزاء، إلا أنه في نهاية المطاف يجب تجميع تلك الأجزاء إلى كل واحد، كما هو الحال في الحياة الحقيقية التي يتجاوز تعقيدها تعقيد أي دراسة مفردة.

إن نهج عش سريعاً، مت صغيراً والمدفوع بواسطة المستقبل غير المضمون وغير المؤكد هو نهج من شأنه أن يؤدي إلى اتخاذ قرارات قصيرة النظر بدءاً من القروض المستحقة الدفع إلى بيع المخدرات إلى التسيب المدرسي، التي بدورها توفر مردوداً مالياً قصير المدى لكنها في المقابل تؤدي إلى تخريب وتدمير المستقبل. كما أنه أيضاً يشجع الشباب على إنجاب الأطفال بشكل مبكر وتنشيط الزواج، وهو الأمر الذي يعتبر أكبر التزام طويل الأجل يعيشه الناس. يعتبر هذا الافتقار إلى حياة عائلية مستقرة أمراً قد يؤدي إلى تدمير مستقبل أطفالهم. إن ردة الفعل الطارئة تجاه التوتر والجهاز المناعي لما يواجهنا من أزمات يومية هو أمر من شأنه أن يعطينا الطاقة اللازمة لإخراجنا من تلك الصعوبات، ولكن على حساب تخريب وتدمير صحتنا في المستقبل. إن مشاعر انعدام الأمان الناجمة عن الفقر إلى جانب الانقسات والمقارنات التي يسهل إجراؤها والتي تعززها حقيقة انعدام المساواة تحتنا إلى اعتناق وتبني المعتقدات التبسيطية والأيدولوجيات المتطرفة والأحكام المسبقة التي توفر لنا الإجابات السهلة، لكنها تقوم بذلك عن طريق تدمير وتخريب الأداء الطبيعي للمجتمع المدني.

يمكن لكل عامل من تلك العوامل أن يسهم في إلقاء الضوء على حالة انعدام الأمان والأزمات الحقيقية. أضف لهذه الديناميكية الحقيقة البسيطة التي تنص على الناس الذين يستطيعون تحمل تكاليف الانتقال بعيداً عن المناطق المضطربة فإنهم يميلون لفعل ذلك، تاركين وراءهم حشود الناس الأقل حظاً والذين يعانون من أسوأ المشكلات، والذين وصفهم عالم الاجتماع وليام يوليوس ويلسون بـ «المحرومين حقاً». يميل الأفراد إلى اتخاذ قراراتهم من بين الخيارات المألوفة لهم، يسلكون مسارات يسهل عليهم التنقل فيها. إنه لمن غير المرجح أن يعرف الطفل المولود في مثل هذه الظروف أي شخص قد هرب للالتحاق بالجامعة، أو أي شخص آخر لا ينتمي إلى غير فئة الفقراء. تعمل تلك العوامل التي يدعم بعضها الآخر على خلق نوع من الجاذبية نحو الأسفل والتي تجعل من الصعب على أي شخص الإفلات منها.

تعتبر الاستعارة اللفظية (الجاذبية) استعارة ملائمة، وذلك لأن الابتعاد عن المناطق التي يتركز فيها الحرمان هو أمر يتطلب ما أعتقده توفر سرعة الإفلات. في الفيزياء، سرعة الإفلات هي السرعة المطلوبة للهروب والإفلات من جاذبية الكوكب. حيث بمجرد أن تغادر قذيفة ما كوكب

الأرض بسرعة الإفلات المطلوبة، فإنها ستستمر بالتقدم والابتعاد عن الأرض بنفس السرعة إلى الأبد. فعندما يهرب ويفلت الناس من قبضة بينتهم الأقل حظاً، فإنهم أيضاً سيتقدمون ويبتعدون عن تلك البيئة إلى الأبد. وحتى إن رجعوا إلى تلك البيئة فإنهم سيعودون وهم يفكرون بطريقة مختلفة ويتحدثون بطريقة مختلفة وحتى يأكلون بطريقة مختلفة. أخبرتني إحدى قريباتي ذات مرة بأنها لا تريد إنشاء حسابات بنكية توفيرية للتعليم العالي لأطفالها وذلك لأن الناس يعودون من الجامعات ملحدين. وما فائدة زيادة دخل الفرد الناتجة من تعليمه مقارنة باللعنة الأبدية التي سيحصل عليها؟

وفي حالتي، كنت مصمماً على الإفلات والهروب مع أنني لم أكن مدركاً تماماً للعواقب المترتبة على ذلك. وعلى الرغم من زيارات الإجازات، إلا أنني لن أكون أبداً كما كنت قريباً من أخوتي مثل قرب أولئك الأشخاص الذين بقوا في ولاية كنتاكي لإخوتهم. لن تعرف ابنتي أجدادها بنفس درجة الألفة التي يكنها هؤلاء الأشخاص لأحفادهم الذين يقطنون قريباً منهم. إن عيش مثل تلك الحيوانات المختلفة في مثل تلك الأماكن غير المتشابهة يعني أننا نشارك افتراضات قليلة ربما تتضمن أحاديث السياسة المزعجة والدين والأوضاع الراهنة. لقد مررت أنا وعائلتي بالعديد من التغيرات التي توقعتها الأبحاث العلمية في الفصول السابقة. هنالك أسباب وجيهة تجعل من الناس ذوي الخبرات المختلفة يميلون إلى أن يكون لديهم فهم مختلف للعالم من حولهم. ولكن بينما الثراء والتعليم يسحبون الأشخاص ويبعدونهم عن الآخرين، فإن تلك التباينات والفروقات تصبح محصنة داخل حواجز ثقافية غير محسوسة.

يمكن لفهم آلية انعدام المساواة في تسريع دورة الفقر والخسارة، أن يبدأ في نزع فتيل العديد من النزاعات التي تنشأ عندما يناقش الناس موضوع انعدام المساواة. فعلى سبيل المثال، خذ الطرق التي يحتمل أن يستخدمها شخص ما لوصف حياة عمي ستيرمان. عاش ستيرمان في مستودع مكب نفايات بلدتنا. وفي الليالي الشتوية الباردة عندما تنخفض درجة الحرارة إلى ما يقارب الصفر، يذهب والذي لللاطمئنان عليه ويحاول إقناعه بأن ينام تلك الليلة في منزلنا. لكن بدلاً من ذلك كان عمي يصصر على البقاء في مكانه، يجلس في زاوية ذلك المكب بجانب موقد للفحم. عندما كنت صغيراً ظننت أن عمي رجل أسود البشرة وذلك بسبب أن السواد الناتج عن الفحم (أو القذارة الناتجة عن مكب النفايات، أو الأمرين معاً) قد عمل على تسويد وتلطيف لون بشرته. نجح والذي ذات مرة في إقناعه في قضاء بعض الوقت في منزلنا، إلا أن عمي رفض بأن يكون في غرفة داخل المنزل. وكحلٍ وسط قرر عمي بأن تكون إقامته في المستودع الواقع في ساحة المنزل الخارجية. كان ذلك المستودع قد تم استخدامه سابقاً كحظيرة للخنازير، لذا فقد قام والذي ببناء ووضع أرضية فوق تلك الأوساخ ومن ثم تغطيتها بسجادة حمراء اللون. كما عمدَ والذي أيضاً إلى تركيب إضاءة كهربائية وتثبيت ألواح خشبية على جدران ذلك المستودع حتى يبدو مظهره وطابعه وكأنه بالفعل منزل مريح وأليف. أقام عمي في ذلك المستودع لبضعة أشهر فقط، وكان يعيش، كما أذكر، على أصابع الذرة المنكهة بطعم الجبن (المعروفة بتشيز دودلز) وزجاجات الويسكي. وفي أحد الأيام عاد عمي إلى مكانه في مستودع مكب نفايات البلدة.

إذا كنت ترغب في تفسير هذه القصة على أنها إدانة للسلوك الفردي، فإنه لمن السهل والمسلّي

القول لو أنّ عمي قد توقف عن الشرب وقام بتنظيف نفسه وعاد إلى العمل، لكان قد عاش حياة أفضل. إنه لمن الجلي والواضح بأن خياراته قد ساهمت في وجوده المتواضع في هذه الحياة، لكن هذه الخلاصة لا تشرح شيئاً بالفعل، وذلك لأنها تطرح سؤالاً، لماذا يستمر شخص ما في التصرف بهذه الطريقة؟ يعمل سلوك التدمير الذاتي على الإخلال بأساسيات المُسلمات الاقتصادية وذلك لأنه يعني رفض النتيجة ذات القيمة الأعلى والأفضل لصالح النتيجة ذات القيمة الأسوأ. يعتبر هذا السلوك من وجهة نظر مراقب خارج إطار الصورة سلوكاً غير منطقي وغير عقلاني. ولفهم قرارات واختيارات سترمان فإنه يتعين عليك أن تعرف شيئاً حول كيف بدا وضعه الحالي من وجهة نظره الخاصة. عليك أن تعرف الأزمات والمشكلات اليومية التي واجهها. عليك أن تتعرف على أحلامه وخيبات آماله وخسائره ومحاولاته في تخفيف حزنه وآلامه. بعبارة أخرى، عليك أن تتعرف على دوائر الأذى التي وجد نفسه قد زُجَّ بداخلها. والأكثر من ذلك، عليك مواجهة الحقيقة التي يمكننا التنبؤ بها بدرجة عالية من الدقة بأنه سيكون هناك العديد والعديد من أمثال سترمان يعيشون مثل حياته في مناطق ذات مستويات عالية من انعدام المساواة.

عندما يناقش الناس موضوع السلوك الفردي مثل سلوك عمي سترمان والعوامل المنهجية كأساس لانعدام المساواة، فإن نقاشهم يفتقر إلى النقطة الجوهرية. يؤثر انعدام المساواة على سلوكنا والاختلافات في السلوك هو أمر قد يعمل على تضخيم انعدام المساواة. وعلى الرغم من أن العديد من الناس الذين درسوا وتفحصوا حياة الفقراء قد أدركوا هذه الدوائر الذاتية شديدة القوة التي تربط بين الفقر والسلوكيات المدمرة للذات، لكن يبدو أن الحزبيين في كلا اليمين واليسار سرعان ما ينسون نصف المعادلة فور شروعهم باقتراح الحلول.

يركّز المحافظون على المبادرة الفردية ويجادلون بأنه علينا تطوير الحوافز التي تشجع الطبقة الدنيا على تحسين ظروفها. لكن الفقراء تحركهم مجموعة من الدوافع الأكثر حرجاً وإلحاحاً. تتمحور حياتهم حول أزمات ومشكلات يومية، يحاولون التعامل معها باستخدام أفضل الاستجابات المتاحة لإدارة الأزمات قصيرة الأمد. لقد تخلّوا منذ فترة طويلة عن الالتزام بالرؤيا الاقتصادية التي تنص على الاستجابات العقلانية للحوافز التي تشجعهم على الإنجاز وعلى تطوير وضعهم، واستبدلوها برّدات فعل تهدف إلى إبقاء رؤوسهم فوق مستوى الماء؛ عندما تعيش في ذلك العالم فإنه من غير الصحيح التذكير ببدء تحسين الظروف بالجهود الخاصة والمحدودة.

في حين يدرك محازبو اليسار أهمية العوامل المنهجية مثل انعدام مساواة الدخل المالي وتوريث الفقر، إلا أنهم كثيراً ما يقلّلون من الدور الذي تلعبه القرارات التي يتخذها الأفراد في تحديد مصائرهم. إنهم محقون في قولهم إن نتائج الخيارات والقرارات التي يتخذها الأفراد هي جزء من ردود أفعالهم تجاه البيئة والهيكل الاجتماعية المحيطة بهم، لكن تفسيراتهم المجردة والمبنية على مستوى النظام هي تفسيرات من شأنها أن تكون أكثر إقناعاً لمعظم الناس إذا اعترفوا بأن تأثيرات النظام على أي فرد بعينه هي تأثيرات منعكسة في الخيارات والقرارات الملموسة التي يتخذها بشكل يومي.

لقد عاش عمي ما تبقى من حياته القصيرة في ذلك المستودع الوضيع في باحة المنزل. وفي عمر

التاسعة والخمسين، بعد أن قضى عمره في التدخين والشرب والعيش الصعب، عَلم بأنه مصاب بسرطان رئة وفي مرحلة متقدمة. كانت أشهره الأخيرة مؤلمة، وعندما أخبره الأطباء بأنه لا يستطيع تناول الأدوية المسكنة للألم إلى جانب شربه للكحول في نفس الوقت. اختار الويسكي. لقد عملت خياراته وقراراته، إلى حد كبير، على تحديد مصيره.

يوجد هنالك أشخاص على كلا جانبي الطيف السياسي الذين ينظرون إلى مثل هذا السلوك الضار والمتواصل ويرتؤون أنه ببساطة أنه ليس ثمة ما يفعلونه لمعالجة هذه الحالة والخروج منها. إذا لم يكن مستحيلاً فإنه بالفعل قد يكون من الصعب جداً سحب شخص ما خارج دائرة التدمير الذاتي حين نُحكّم التشبث به. لكن نفض أيدينا وإعلان حالة اليأس ليس فقط تنصلاً أخلاقياً، بل إنه أيضاً تجاهل حقيقة أن تصرفات الناس هي عبارة عن استجابات وردود أفعال لبيئتهم المحيطة بهم، وتلك البيئات هي بيئات يمكن تغييرها. في كثير من الأحيان يقوم الناس باتخاذ قرارات سيئة إذا نشأوا، مثل عمي سترمان، في حجرة ذات أرضية موحلة بين أحضان عائلة من عمّال مناجم الفحم ومزارعين يدفعون جزءاً من محصولهم كسداد للإيجار. كثيراً ما تُتخذ تلك الاختيارات بشكل أكثر في دول موحلة في انعدام المساواة (مثل الولايات المتحدة الأمريكية) ويقل اتخاذ الناس لتلك القرارات والخيارات في الدول التي تتسم بانخفاض مستوى انعدام المساواة (مثل كندا). حتى إن التباين والاختلاف في ولايات ذات مستوى مرتفع من انعدام المساواة (مثل ولاية كتاكي) وولايات ذات مستوى منخفض من انعدام المساواة (مثل ولاية أيوا) هو اختلاف قد يُترجم إلى اختلافات جلية في نتائج حياة الأشخاص القاطنين في تلك الولايات.

إن القوى التي تؤدي إلى الدوائر الفاسدة (دوائر التدمير الذاتي) هي ذاتها التي تؤدي أيضاً إلى دوائر فعالة وقوية بين الأثرياء. إذا كان من الواضح لك بأنه من الأفضل أن تضحي بـ «اليوم» في سبيل الحصول على عوائد أكبر في المستقبل، فإنه من المحتمل بأنك نشأت في بيئة تحصد ثمار ذلك الاستثمار الضميري. إذا كنت تعتقد أن معظم الناس هم أشخاص يمكن الوثوق بهم، فإنه من المحتمل بأنك قد بلغت سن رشذك في عالم ومحيط معظم الناس فيه جديرون بالثقة. إذا استقرت استجابة الإجهاد لديك بمجرد انتهاء حدث مُجهّد ومستنزف، فإنه من المحتمل بأنك معتاد على أن تكون في عالم ومحيط آمن بشكل جوهري. إذا كان لديك الحظ الجيد بأن تكون تلك الافتراضات هي الإعدادات الافتراضية، فإنك بذلك تكون منطلقاً للأعلى في مسار حياة لولبي وتصاددي. ومستقبلك سيكون من المحتمل والمتوقع مستقبلاً مشرقاً، فبحسب الاقتصاد الحديث تُعتبر غرائزك ومقدراتك الطبيعية مثمرة وتصبو إلى تحقيق نجاح طويل المدى بدلاً من إدارة الأزمات الفورية.

عندما كانت ابنتي تبلغ من العمر حوالي العام، اكتشفت لعبة مثيرة لقلقي ولقلق والدتها؛ حيث أنها كانت عندما تجد نفسها على سرير أو كنب ما فإنها تدفع بنفسها إلى الحافة وتصرخ ضاحكة وهي تسقط نفسها، واثقة تماماً بأن هناك شخصاً ما سيلتقطها قبل أن تسقط. وعلى الرغم من أنني عانيت كثيراً من تسلخ الأكواع والركب في سبيل تحقيق تلك الالتقاطات، إلا أنها لم تسقط أبداً على الأرض. كنت أعلم أن تدخلني كان فقط تشجيعاً على تلك اللعبة، لكنني لم أتمكن من السماح لنفسني بأن أدعها تتعلم بطريقة صعبة بأن تلك اللعبة كانت لعبة خطيرة. كان سبب ذلك جزئياً هو أنني كنت قلقاً من أن

تقوم فعليًا بإيذاء نفسها. والأكثر من ذلك هو أنني أردتها أن تؤمن بأنها تعيش في عالم ومحيط تعلم فيه بأنها عندما تكون على حافة ما، فإنه سيكون هنالك شخص ما لالتقاطها. لقد كانت إحدى الطرق الصغيرة لدفع دائرة توقعاتها في الاتجاه الصحيح.

وحتى وقت قريب، كان يُعتقد بأن دوائر الفقر هي دوائر مدفوعة فقط بواسطة الشح والنقص والاحتياج المادي. لقد أصبح من الواضح أكثر وأكثر بأن الفقر النسبي وانعدام المساواة الذي يؤدي إليه هما أمران مهمان في الفصل بين من يملكون المال وبين من لا يملكونه. عندما أخبرت أصدقائي أنني أكتب كتابًا حول انعدام المساواة الاقتصادية، شاركوني قصصهم حول نشأتهم وترعرعهم في الفقر. وعندما أبلغت زملائي الأكاديميين حول مشروع كتابتي لهذا الكتاب، أرسلوا لي مقالات علمية حول آثار الفقر على العقول والأجساد؛ لكن لم يُقدم لي أحدٌ منهم تقريرًا حول أغنى الناس في مدينتهم، أو حتى مقالات تناقش روائع نجوم البيسبول أو مدراء البنوك التنفيذيين. إنَّ انعدام المساواة هو أمر مدفوع بواسطة ثراء الأغنياء تمامًا كما هو مدفوع بفقر الفقراء.

من الطبيعي أن يكون التركيز على الفقراء عند النظر في آثار الفجوة الواسعة بين الأغنياء والفقراء في المجتمعات المعاصرة. عندما سُئل المجرم الشهير ويلي ساتون عن سبب سرقة البنوك، أجاب إجابته الافتراضية: «لأن المال يوجد في هذا المكان.» إذا سألنا العاملين في الشؤون الإنسانية عن سبب مساعدتهم للفقراء، فإن إجابتهم من المحتمل بأن تكون: «لأن الحاجة توجد في هذا المجال.» إن التخفيف من حدة الفقر هو بالتأكيد هدف جوهري لأسباب عملية وأخلاقية. يعمل الفقر على تدمير كل جوانب حياة الفرد. في الدول النامية حيث يحرم الفقر الناس من الاحتياجات الإنسانية الأساسية يكون من المؤكد بأن حل مشكلة الفقر تمثل أولوية أعلى من انعدام المساواة. لكن الفقر في الدول المتقدمة هو فقر نسبي إلى حد كبير؛ حيث أنه في تلك الدول يعتبر عدم ارتداء ملابس مشكلة أقل من مشكلة إرسال أطفالك إلى المدرسة بملابس تشعرهم بالعار والخجل لأنها ليست ذات علامة تجارية مشهورة أو معروفة. في هذه الحالة يعتبر أمر محاربة الفقر أمرًا بالغ الأهمية لكنه ليس إلا نصف المعركة.

إن ضرورة المواجهة الجادة لانعدام المساواة وليس مجرد مواجهة الفقر المادي هو أمر يقودنا إلى الاستنتاج المروع الذي ينص على أنه لا يمكننا ببساطة الخروج والهروب بعيدًا عن المأزق الحالي. ومثلما يخلط الناس في كثير من الأحيان بين انعدام المساواة والفقر، فإنهم غالبًا ما يخلطون بين هدف الحد من انعدام المساواة وهدف تعزيز النمو الاقتصادي (الذي بدوره يساعد في الحد من الفقر). إلا أن نتائج الدراسات حول الدور الأساسي لانعدام المساواة بحد ذاته على الصحة واتخاذ القرارات والتوجهات الاجتماعية والسياسية أثبتت أن النمو الاقتصادي أمرٌ لا يكفي وحده لحل مشكلة انعدام المساواة. فانعدام المساواة الظاهرة في الإحصائيات (مثل إحصاء معامل جيني) مُستقًى بشكلٍ كامل تقريبًا من مدى ثراء الناس الأغنياء. في حال كان على بعض الاقتصاديين العبارة أن يتوصلوا إلى ابتكار يعمل على مضاعفة دخل كل فرد بين عشية وضحاها، فإن ذلك من شأنه أن يجعل مشكلات انعدام المساواة بحالة أسوأ وليست أفضل، وذلك لأن مضاعفة دخل من يملكون الملايين هو أمر سيزيد من ثرائهم بمقدار أضخم من مضاعفة دخل شخص يجني ١٥٠٠٠ دولار

سنوياً، فعلى الرغم من أن الجميع سيكونون أغنى، إلا أن انعدام المساواة سيزداد ظهوراً ووضوحاً.

يمكنك رؤية هذا النمط في المجال المهني من خلال طريقة اتباع سعادة الناس لدخلهم المالي. قد تُستخدم السعادة كمقياس عاطفي لمعرفة كيف تسير حياة الشخص بشكل عام، كما أنه يعتبر أيضاً، مثلما ركزنا على شرحه في هذه الصفحات، مقياساً للجانب الصحي والإيجابي والاجتماعي. ابتداءً من سبعينيات القرن الماضي، وجد الاقتصادي ريتشارد إيسترلين مراراً وتكراراً بأن الأغنياء في دولة ما يكونون سعداء أكثر من غيرهم، لكن تلك السعادة تصل إلى حد معين. في حين أشارت دراسة ضخمة نُشرت في عام ٢٠١٠ م بأن نقطة التحول في أمريكا هي حوالي ٧٥٠٠٠ دولار، وعلاوة على ذلك فقد أشارت أيضاً إلى أن تأثير المال على مستويات الصحة العاطفية، وهي كالتالي: الأشخاص الذي يجنون ٨٠٠٠٠ دولار في السنة ليسوا بأقل سعادة من أولئك الذين يجنون ٨ مليون دولار.

بما أن معظم الناس في بلدنا (الولايات المتحدة الأمريكية) يجنون أقل من ٧٥٠٠٠ دولار (كان متوسط دخل الأسرة الأمريكية في عام ٢٠١٥ م حوالي ٥٤٠٠٠ دولار)، فإنه يمكن للشخص المنطقي بأن يستنتج بأن زيادة النمو الاقتصادي من المفترض أن يتبعه زيادة في متوسط السعادة. إلا أن الأمر المثير للدهشة هو أنه على العكس من ذلك؛ الناس يتكيفون مع حالتهم الاقتصادية الأعلى من سابقتها بشكل سريع، حيث أن كل زيادة في الدخل تصبح هي المحدد للوضع الطبيعي الجديد. ونتيجة لذلك فإن متوسط مستوى السعادة هو أمر لا يرتبط كلياً بالنمو الاقتصادي بمرور الوقت. عُرف هذا الاستنتاج والاكتشاف المفاجئ بـ مفارقة إيسترلين.

بحسب المعايير الاقتصادية القياسية فإن السنوات الخمسين الماضية كانت جيدة لأمريكا بشكل لا يصدق، حيث ارتفع الناتج المحلي الإجمالي سنة بعد سنة. إذا نظرت إلى الناتج المحلي للشخص منذ خمسينيات القرن الماضي فإنك ستري ارتفاعاً ثابتاً في خط الزيادة، حتى إن تلك الأزمة المالية المؤلمة التي حدثت في عام ٢٠٠٨ م والركود الذي أعقب ذلك لا يمثل إلا تراجعاً طفيفاً لخط الزيادة والارتفاع، ومنذ ذلك الوقت ونحن مستمرون في النمو والزيادة. إذا كان النمو الاقتصادي هو كل ما في الأمر وهو كل شيء مهم، فإننا حينها سنعيش جميعاً حياتنا بأجمل ما فيها طويلاً وعرضاً، ولكننا كشعب أمريكي نادرًا ما نعيش أي أمر غير الاستياء والامتعاض. لقد كنت مؤخرًا على متن طائرة من رالي إلى بوسطن عندما استرقت السمع لمحادثة بين امرأتين في المقاعد الخلفية والتي صوّرت حالة الأمّة بشكل تام. أبدت امرأة كبيرة في السن بلهجة بوسطنية رأيها قائلة: «لقد ساء الحال. كل شيء أصبح على أسوأ حال. الاقتصاد فظيع. مستوى الجريمة ارتفع بشكل جنوني. فقط أذهب إلى العمل وأرجع إلى المنزل ولا أخرج بعدها.» تهتدت السيدة الأصغر سنًا، وكانت ذات لهجة جنوبية، تهيدة موافقة لما تسمعه وأردفت قائلة: «إنه حال يجعلك تتساءلين عما إذا كنت تريد جلب طفل إلى هذا العالم.» كانت هاتان السيدتان، اللتان استطاعتا توفير قيمة تذاكر السفر، تسافران بين مدينتين ثريتين خلال فترة تاريخية من انخفاض معدلات الجريمة في أغنى دولة خلال أغنى فترة زمنية لها على مر التاريخ. يبدو من الواضح والمؤكد بأنها لم تبدُ كذلك بالنسبة إليهما.

يعتبر المفتاح لفهم مفارقة إيسترلين هو أن النمو لم يقسّم على نطاق واسع، حيث كانت النسبة

الأكبر من النمو لصالح الفئة الأغنى والتي تشكل النسبة القليلة، تاركًا الدخل المالي لمعظم الناس ثابتًا، وفق ما عرفنا في الفصل التمهيدي. إذا شكَّلت المكانة الاجتماعية النسبية السعادة، وأدَّى انعدام المساواة إلى جعل الناس يشعرون بأنهم تُركوا في الخلف، فإننا نتوقع بأن مستويات انعدام المساواة المرتفعة ستكون مؤشراً على انعدام السعادة أكثر مما هي مؤشر على الناتج المحلي الإجمالي. هذا هو بالضبط ما وجده فريق من الباحثين في علم النفس بقيادة شيجيهيرو أوشي عندما قاموا بدراسة وفحص تقلبات سعادة الأمريكيين بين عامي ٢٠٠٨ م و١٩٧٢م. وجدوا أن دخل الأسرة لا يرتبط بالسعادة، لكن عندما يرتفع مستوى انعدام المساواة أو ينخفض من سنة إلى أخرى، فإن الاستياء وانعدام السعادة يرتفع وينزل تبعاً.

اكتشفت دراسة أوشي أن الرابط بين انعدام المساواة والسعادة كان رابطاً أقوى بين الفقراء أكثر من الأغنياء، إلا أنه أثر أيضاً على الطبقة المتوسطة، في الواقع هذا الرابط أثر على الجميع باستثناء أغنى ٢٠ بالمائة. لكن كيف لشيء مجرد مثل انعدام المساواة في الدخل المالي بأن يصبح عاملاً مؤثراً على سعادة الشخص اليومية؟ تعمل مجموعة محددة من المعتقدات على ربط انعدام المساواة بالسعادة، حيث أنه في الأوقات التي يرتفع فيها انعدام المساواة يميل الناس لأن يعتقدوا بأن الآخرين من حولهم هم أشخاص لا يمكن الوثوق بهم ويحاولون استغلالهم والاستفادة منهم ما أمكنهم ذلك. وانعدام الثقة تلك، بدورها تجلب الاستياء وانعدام السعادة.

من الواضح والمؤكد بأن النمو الاقتصادي أفضل من الركود الاقتصادي، لكن النمو الذي لا يتدفق خبره إلا على الأغنياء هو أمر من شأنه أن يؤدي إلى تفاقم مشكلات انعدام المساواة. فما الذي يجب علينا فعله تجاه هذه المشكلة؟ إن فهم ما اكتشفه العلم حول دوائر انعدام المساواة وسلوكنا في ردود الفعل تجاهها هو أمر يشير إلى مقاربتين للحلول اعتقد بأنه علينا اتباع كليهما في الوقت ذاته، الأولى تتعلق بالمجتمع المحيط والثانية بردة فعلنا تجاه ذلك المجتمع. تتمحور المقاربة حول إعطاء الأولوية لبناء سلم أكثر تساوياً، والثانية أن نحسن العيش ضمن درجات ذلك السلم.

يبدو جلياً أن تقصير السلم- التقليل من انعدام المساواة- هو الطريقة الفورية والأكثر قوة للتعامل مع العديد من المشكلات التي تم استكشافها هنا، وذلك لأن تقصيره سيعمل على تقريب بعضها من الآخر. وعلى نحو تقليدي ركز خبراء السياسة على إيجاد حلول مخصصة لكل مشكلة على حدة، ويسعى الاختصاصيون الطبييون على تحسين الصحة ويصوغ علماء الجريمة سياسات تقلل وتمنع الجريمة ويسعى ويركز خبراء التعليم على تصميم وسائل لتحسين وتطوير المدارس، وما إلى ذلك. إنه لمن المؤكد بأن هنالك جوانب أخرى فريدة لكل مشكلة مجتمعية نواجهها، لكن في العديد من تلك المشكلات يكون انعدام المساواة الاقتصادية الشديد هو القاسم المشترك بينها، إنه لمن الغباء عدم مواجهة تلك المشكلة مباشرة (انعدام المساواة). تعتبر المضادات الحيوية (المياه المكلورة) والصرف الصحي العام (مجاري التصريف الصحي) من أهم وأكثر إنجازات الصحة العامة والفعالة بشكل مذهل. فقد أنقذ هذان الابتكاران الملايين من الأرواح وأطال حياة العديد من بشر القرن العشرين بشكل كبير. إنهما لم يفعل ذلك عن طريق قتل بكتيريا واحدة بعينها أو منع مرض واحد فقط. بل لقد كانا ناجحين جداً لأنه كان لهما تأثير على الآلاف من الأمراض المعدية.

وبالمثل فإن الحد من انعدام المساواة هو أمر له القوة والقدرة على معالجة عشرات المشكلات التي يواجهها العديد والعديد من الناس في الوقت نفسه. لكن ذلك الأمر يتطلب الابتعاد عن رؤية انعدام المساواة من زاوية المواظ. بل اعتقد بأنه يجب أن ننظر إليها على أنها مشكلة صحية عامة.

من الناحية العلمية، فإن الحدّ من انعدام المساواة يعني خفض الدرجات العليا ورفع الدرجات السفلى من السلم الاجتماعي. ناقشتُ العديد من الكتب فضائل ومناقب الأنواع المختلفة من السياسات التي تهدف إلى القيام بذلك الحدّ. يفضل الليبراليون بعض تلك التدابير السياسية مثل رفع الدرجة الدنيا للأجور والعناية أكثر بالتعليم في مرحلة الطفولة المبكرة وتقييد أجور المدراء التنفيذيين وتعزيز النقابات وزيادة أجر إجازة الأمومة المدفوعة. في حين تعتمد الحلول المقترحة الأخرى على قوى السوق لتقليل ووقف انعدام المساواة، الأمر الذي قد يعمل بدوره على جذب المحافظين والليبراليين. على سبيل المثال، وجدت دراسة أجرتها بافيا موهان أنه عندما يعلم الزبائن بأن الشركة لديها مستوى عالٍ من انعدام المساواة في الأجور بين المدير التنفيذي والموظفين العاديين، فإنهم على استعداد لمعاقبة هذه الشركة عن طريق الشراء من شركة منافسة لها والتي تتمتع بمستوى منخفض من انعدام المساواة.

لا تزال هنالك سياسات أخرى تتمتع بدعم محايد عام أكثر من سواها. فعلى سبيل المثال في بعض الأحيان يتفق كل من الليبراليين والمحافظين على تأييد توسيع ائتمان ضريبة الدخل المكتسب، وهو الأمر الذي من شأنه أن يعمل على دعم دخل الأسر الفقيرة العاملة. يحب الليبراليون ذلك ويفضلونه وذلك لأنه يقدم منفعة وفائدة للفقراء، في حين يحبه المحافظون ويؤيدونه لأنه يخدم العمل. والمفاجأة الأكبر أن توفير دخل أساسي ومضمون هو أمر قد نادى به أيضًا كل من الليبراليين والمحافظين، مطالبة الليبراليون هي أن يكون هذا الدخل أكثر كفاءة وذلك من خلال تقديم المال على دفعة واحدة بدلًا من تقديمه عن طريق عشرات البرامج الحكومية المنفصلة.

أواجه في بعض الأحيان معارضة مفرغة في الصف الدراسي عندما أقول إن انعدام المساواة هو في الأساس مشكلة صحية وتتطلب حلولاً من سوق العمل والحكومات على حدّ سواء. ففي أحد الأيام صرخ أحد الطلاب قائلاً: «لكن هذه هي الاشتراكية!» يعتبر هذا ردًا شائعاً لأي انحراف عن سوق العمل غير المنظم كوسيلة لتعزيز قدر أكبر من المساواة. لكن هذه الحجة غير مقنعة. إن الدعوة إلى الحد من المستويات المرتفعة الحالية من انعدام المساواة هو أمر لا يعني الدعوة إلى النظام الاشتراكي، مثلما أن الجهود المبذولة للحد من الشرب بنهم هو أمر لا يعني طلب حظر تلك المشروبات، وأيضًا مثل المطالبة بتخفيض الحد الأقصى من السرعة هو أمر لا يعني المطالبة بالزحف وإبطاء الحركة المرورية.

وفي السياق نفسه رأينا في الفصل الثاني بأن هناك مجموعة متكاملة من المشكلات الاجتماعية، بدءًا من حالات الإنجاب عند المراهقات، إلى ارتفاع معدلات التسبب من المدراس، إلى ارتكاب جرائم العنف، كلها تحدث بمستويات عالية في الولايات ذات المستويات العالية من انعدام المساواة في الدخل. لقد رأينا في الفصل الخامس أنه كلما ازداد مستوى المساواة كلما ارتفع معدل العمر عند المقارنة بين البلدان، وأيضًا عند المقارنة بين الولايات الأمريكية. تفترض هذه الإحصائيات أن

خفض انعدام المساواة في الدخل من معدلات ولاية كنتاكي أو لويزيانا إلى معدلات ولاية أيوا أو يوتا من شأنه أن يغيّر حياة الملايين من الناس. لا تُعد أيوا جنة اشتراكية للطبقة الكادحة، ولكن الحياة والفترة العمرية المتوقعة لمواطنيها قياسياً أفضل من الولايات ذات المستويات العالية من انعدام المساواة.

على الرغم من أنه هو المسلك المثالي، إلا أن الهدف هو ليس القضاء على انعدام المساواة بكامل جوانبه، وهو الأمر الذي لم يكن أبداً نموذجاً يمكن تنفيذه والعمل على تطبيقه. فبدلاً من توهم إمكانية تطبيق تلك المثل الطوباوية على أرض الواقع الفاسد والمخيف، يجب أن يكون الهدف هو ضبط مستوى انعدام المساواة على معيار أكثر واقعية وإنسانية، معيار يعطي للناس مساحة واسعة للتنافس والارتقاء في حياتهم، دون أن تكون مكافأة الفائز في تلك المنافسة الاقتصادية الحصول على كل شيء. إنّ وجود درجة لانعدام المساواة هو نتيجة طبيعية للمنافسة في اقتصاد السوق، ودائماً سيكون هنالك في ذلك النظام رابحون وخاسرون. ومع ذلك فإن هنالك عدداً من الناس الذين يستتجون من تلك النقطة الأساسية بأن بعض انعدام المساواة أمرٌ جيد لصالح الحراك الاجتماعي، إذن فإن وجود انعدام المساواة بمستويات أعلى هو أمر أفضل بكثير.

اتضح بأن هذا المنطق هو على العكس تماماً، حيث إن الأمم والولايات والمناطق ذات الدرجات العالية من انعدام المساواة في الدخل المالي تكون حركة انتقالها إلى مستوى أعلى أقل، وتُعرف هذه العلاقة بمنحنى غاتسبي. ومن وجهة نظر مختلفة، فإن ذلك يعني بأنه كلما ازداد مستوى انعدام المساواة في المنطقة التي تعيش فيها، كلما كانت آفاقك وحدودك الاقتصادية محددة بواسطة ثروة والدك بدلاً من أن تكون محددة بنجاحك. عندما تصبح درجات السلم الاقتصادي متباعدة فإن ارتفاعها يصبح صعباً للغاية.

يعتبر تغيير أساسيات المشهد الاقتصادي احتمالاً وتوقعاً بعيد المدى، ولكن هناك استراتيجيات أخرى مُقترحة من علم انعدام المساواة والتي قد تعمل على تحسين نوعية حياة الفرد على أسس فورية وسريعة. الاستراتيجية الأولى هي اختيار المقارنات الاجتماعية بحكمة.

لقد ذكرت سابقاً بأن المقارنات الاجتماعية هي أمر لا مفر منه في الحياة اليومية. وباعتبار أننا نقوم بمقارنة أنفسنا بالآخرين بشكل لا إرادي، وباعتبار أنّ المقارنات النسبية متأصلة في الطريقة التي نحكم بها على كل شيء من حولنا، فكيف يمكننا المقارنة بحكمة ما دمنا ولا نعي قيامنا بذلك؟

الإجابة هي أن الأفكار اللاواعية ليست، كما يُعتقد تقليدياً، مقيدة في المغارة الفرويدية ولا يمكن الوصول إليها. يعتبر علماء النفس اليوم بأن لمعظم التفكير اللاواعي طبيعته المختلفة كلياً. والقراءة تعتبر مثلاً جيداً على ذلك، فعندما تتعلم القراءة لأول مرة وتتعلم كيف تفك شيفرات الكلمات إلى أحرف، تكون تلك العملية عملية بطيئة ومجهدة وتتطلب انتباهك الكامل. ولكن كلما أصبحت ماهراً أكثر وأكثر في القراءة كلما أصبحت بالنسبة إليك عملية تلقائية ولا تتطلب أي مجهود لإتمامها، حيث أنك لم تعد تعي تجميع الحروف في كلمات وربط تلك الكلمات بالأفكار، وذلك على الرغم من أن هذا هو بالضبط ما يقوم عقلك بفعله. أو أثناء قراءتك لهذه الجملة لاحظ بأنك قد تكون غير واعٍ

ومنتبه لتنفسك، أو بمقدار الضغط الذي يضغطه جسمك على عضلة أردافك. نحن نفقد إدراكنا بما نقوم به أو بما نشعر به عندما يصبح ذلك النشاط روتينيًا جدًا لدرجة أننا لم نعد بحاجة لتوجيه اهتمامنا إليه. لكن هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن ندركه خلال توجيه انتباهنا إليه بشكل إرادي، كما هو الحال مع التنفس، فبمجرد ما نقوم بمراقبته فإننا غالبًا ما نمارس بعض السيطرة عليه والتحكم به.

إن ما يدل على أنك في قبضة المقارنة الاجتماعية اللاواعية هو القلق الغامض من أن هنالك شيئًا ما لديك ليس بمستوى الكفاية المطلوبة. نحن نعتقد بأن هنالك خطبًا ما بسطح طاولة المطبخ لدينا لأنها ليست مصنوعة من الجرانيت، أو أن الجرانيت الذي لدينا من نوعية ذات جودة أقل لأنه ليس رخامًا. نحن نجري هذا النوع من الحسابات بشكل مستمر بكل ما يتعلق بالامتلاكات التي نملكها ويتراوح ذلك من المساكن التي نسكنها إلى الأحذية التي نرتديها. وفي معظم الحالات لا يوجد هنالك معيار حقيقي وصحيح لما يُعتبر «جيدًا بما فيه الكفاية.» إننا وبدون وعي منا نقوم بمقارنة ما لدينا بما لدى أشخاص آخرين سواء كانوا أصدقاءنا أو جيراننا أو هذين الزوجين الجميلين في المجلة، والأمر الوحيد الذي ندركه ونعيه هو الاستنتاج الذي حسبه دماغنا بصمت: مقارنة بذلك، هذا ليس كافيًا.

يعتبر هذا التفاوت بين النتيجة والسبب بمثابة البصمة للمقارنات الاجتماعية المتزايدة. والأكثر شيوعًا هو أن تلك المقارنات تُختبر في عالم الماديات من حولنا أكثر مما تُختبر في عقولنا. فسطح طاولة المطبخ يبدو باهتًا، خزانة ملابسك تبدو عتيقة المنظر، وهذه الأشياء من حولنا لم تتغير بذاتها، الأمر الذي تغير هو نظرنا إليها. إن الإحساس بأن هناك عيبًا بها هو أمر يعتبر ميزة مضاعفة داعمة لنتائج تلك المقارنة، فهو لا يحفزنا فقط على الرغبة بالمزيد بل إنه أيضًا يعمل على تبرير رغباتنا من خلال تقديم دليل ملموس يدعم تلك الرغبة. تعتبر المقارنة الاجتماعية المتكررة بـ «هنالك خطب ما في أشيائي» سببًا رئيسيًا يجعل الكثير من الأشخاص يعيشون من الراتب إلى الراتب حتى وإن كان لديهم دخل مالي جيد. تُعتبر المقارنات الاجتماعية التصاعدية ضغطًا مستمرًا يدفعنا إلى أقصى حد يمكننا تحمله.

نحن في الواقع نمتلك القدرة على فرض سيطرتنا والتحكم بكيفية القيام بتلك المقارنات. إن ما تعنيه تلك المقارنات الموجهة والمُتحكم بها هو: أولاً، أن نتعلم معرفة ووعي أنفسنا عندما نكون تحت سيطرة تلك المقارنات. ثانيًا، أن نختار بعناية واهتمام وحكمة نوع المقارنات المناسبة لنا التي تعود علينا فعليًا بالنفع والفائدة. والفكرة ههنا هي ليست التوقف عن المقارنة، بل أن نقارن ولكن بحكمة أكثر.

كل نوع مختلف من المقارنات له تأثير مختلف. حيث تجعلنا المقارنات التصاعدية نشعر بأننا أفقر وأقل موهبة وأكثر حاجة. لذلك، إذا كان هدفك إدارة تلك المشاعر والرغبات، فقم بإعادة توجيه تركيزك إلى المقارنة التنازلية. هل ما اقترحه هنا هو أنه عليك أن تفكر في الآخرين الأقل حظًا منك بهدف أن تخرج من تلك المقارنة بشعور أفضل؟ ألا يبدو ذلك مليئًا بالجبن والخسارة والانهزامية؟ نعم، أنا في الواقع أقترح ذلك. لا تعتبر المقارنات التنازلية مجرد مصدر للفخر المزيف والفرح

بمساوئ الغير؛ حيث يمكن لتلك المقارنات أن تكون مصدرًا للامتنان. المفتاح هنا هو أن تكون متنبهاً وواعياً بأنك تحت ظروف مختلفة أو كنتيجة لتغيرات غير متوقعة لحظك قد تكون أقل حظاً مثلهم الآن.

يتضمن كلٌّ من المقارنات التصاعدية والمقارنات التنازلية بعض التبادلات والمقايضات. حيث يكمن خطر المقارنات التنازلية في القناعة والرضا بالوضع القائم والرضا عن النفس؛ فعندما تبدأ بالشعور بأنك أفضل من شخص آخر فإن ذلك الشعور بمثابة دعوة لبذل جهد أقل في حياتك. وفي الجهة المقابلة، تسهم المقارنات التصاعدية بإلهامنا على العمل بجدية أكثر وتحقيق المزيد من الإنجازات، ولكن لا ينشط مفعول تلك المقارنات التصاعدية إلا إذا اعتقدنا وأمنّا بأن أهدافنا هي أهداف واقعية وقابلة للتحقيق. حيث إن مقارنة أنفسنا بالعقري ألبرت أينشتاين ولاعب كرة السلة الأمريكي الأسطوري مايكل جوردان هو أمر من شأنه أن يُشعرنا بالتعاسة والإحباط وفقدان الدافع.

يتطلب تحقيق التوازن في المقارنات إلى أن تكون واضحاً بشأن أهدافك. فعلى سبيل المثال، هل تطمح إلى مواصلة تعليمك أو تأسيس نفسك في حياتك المهنية؟ في مثل هذه الحالات تكون المقارنات التصاعدية الانتقائية ذات أثر مفيد بشرط ألا تكون المقارنة بالأشخاص الذين هم مجرد أغنياء وناجحين بل بالأشخاص والأفراد الذين تميزوا في مجالات اهتمامك. وفي الجهة المقابلة، إذا كنت شخصاً قد حقق ووفر جميع احتياجاته الأساسية ولا تزال تشعر كما لو أنك لا تملك ما يكفيك، فإن المقارنة التنازلية ستحقق لك التوازن النفسي المناسب.

لزوجتي طريقة مفيدة في تطبيق المقارنات التنازلية على أرض الواقع. كلما أدركت بأنها تتذمر من شيء ما، ينتقل عقلها فوراً إلى أسوأ السيناريوهات، فتشعر بالامتنان لوجود ذلك «الشيء» في حياتها. وإذا شعرت بالألم في قدميها فإن تفكيرها التالي هو: لكنني ممتنة لأن لدي أقداماً! هي بذلك لا تشعر بأنها أفضل ممن لا يملكون أقداماً في هذا العالم، بل إنها تُذكر نفسها بطريقة ملموسة بأن الأقدام نعمة وأن وضعها الحالي كان من الممكن أن يكون أسوأ مما هو عليه.

الفكرة ليست أن تقارن مع الفائزين أو تقارن مع الخاسرين، بل أن تقارن مع صفاء في الرؤيا. يعتبر استخدام المقارنات التصاعدية والتنازلية بمثابة وضع حدود حول تجربتنا. تعمل تلك الحدود العليا والدنيا على توفير أساس حكيم ووجهة نظر تُذكرنا بأنه في حين أن وضعنا قد يكون أفضل إلا أنه أيضاً قد يكون أسوأ بكثير. على الرغم من أنه يمكن لسياق الظروف أن يسمح لك بأن تكون نوعاً ما أكثر تصالحاً مع الأشياء كما هي في الواقع، إلا أنك إذا واجهت مشكلة كبيرة واحتجت إلى تجميع كل ما لديك من عزيمة، حينها لا بد لك بأن تسترسل في إجراء بعض المقارنات التصاعدية.

الخيار الآخر هو إعادة توجيه مقارناتك بأشخاص آخرين إلى مقارنتك بماضيك. في حالة أنك قد تجاوزت تحديات مهمة خلال مسيرة حياتك، فإن مقارنة حاضرك مع ذاتك في الماضي هو أمر له التأثير الإيجابي لكلا المقارنتين التصاعدية والتنازلية في الوقت نفسه. حيث يمكنك الحصول على فوائد المقارنة التنازلية من خلال قولك («على الأقل أنا لم أعد ذلك المراهق الأحمق!») وأيضاً الاعتراف بفضل جهودك التي جعلتك في مكان أرفع وأفضل بقولك («احترس أيها العالم، ها أنا

قادم نحوك!«).

ولأننا بحكم العادة نجري المقارنات الاجتماعية مع الأشخاص الذين نواجههم في حياتنا اليومية، فإن الطريقة الأخرى لإدارة والتحكم بآثار انعدام المساواة تتمثل في تغيير تلك المواقف التي نواجهها. فبالإضافة إلى تغيير مقارناتك، يمكنك تحديد المواقف التي تتعرض لها بعناية وحكمة.

حوالي أربعة من عشرة أمريكيين لا يغادرون أبداً المدن التي ولدوا فيها. بينما غير ٢٠ بالمائة آخرين المدن التي ولدوا فيها ولكنهم بقوا في نفس ولايتهم التي ولدوا فيها. غالباً ما يكون الدافع وراء انتقال الأشخاص هو تحسين الوضع الاقتصادي، وفي الغالب يجدون نتيجة، حيث يجنون متوسط دخل مالي أعلى ويحصلون على مستويات تعليم أعلى من أولئك الذين لم ينتقلوا وظلوا في مدنهم، إذ يميل أولئك الأشخاص الذين لم ينتقلوا إلى الاعتماد أكثر على شبكة معارفهم من العائلة والأصدقاء. يتضمن كل من الانتقال بعيداً عن مسقط الرأس أو البقاء فيه سلسلة من التسويات والتنازلات، ولا يوجد هناك حل وسط يناسب الجميع. إذا كان لديك كل الوسائل للانتقال بعيداً عن منطقة تتصف بمستوى فقر مرتفع، فغالباً ما يكون فعل ذلك أمراً حكيماً. لكن تلك الفرص ستأتي على حساب التخلي عن الأعراف الاجتماعية والقيم الثقافية المعروفة والأسرة الكبيرة والتي يمكنها تقديم المساعدة والدعم الفعلي لك على مختلف مستوياته وأشكاله.

ولكن لا يجب أن تكون كل الانتقالات بعيداً عن العائلة والأصدقاء، حيث أنه حتى الانتقال من حي إلى آخر في نفس المدينة والمنطقة، هو أمر من شأنه أن يحدث تأثيرات عميقة. كشفت تجربة عشوائية ضخمة أجراها قسم الإسكان والتنمية الحضرية الأمريكية أن انتقال عائلة من حيها الفقير جداً هو أمر يحدث تغييرات كبيرة في حياتهم. تم اختيار مجموعتين بشكل عشوائي، أعطيت الأولى منحة قسيمة إيجار تمكن أفرادها من الانتقال، في حين أعطيت المجموعة الثانية (المحايدة) إعانة إيجار ولكن بدون الانتقال من مكانها. في الواقع لم يكن الدعم كبيراً جداً، لذا فإن العائلات التي انتقلت من أحياء فقيرة جداً إلى أحياء أقل فقراً، حققت نتائج مذهلة. حيث كان أطفال العائلات التي انتقلت أقل عرضة لأن يخوضوا في علاقات عابرة أثناء فترة المراهقة وأكثر عرضة لإكمال دراستهم للالتحاق بالجامعة. وعند بلوغهم عشرينياتهم، فإنهم كانوا يجنون ما لا أكثر بنسبة ٣١ بالمائة من أولئك الذين بقوا في أحيائهم القديمة.

تم العثور على آثار مماثلة في دراسة أخرى في مدينة شيكاغو، حيث قررت مدينة شيكاغو دعم بعض مشاريع الإسكان ذات الدخل المنخفض. زودت المدينة سكان تلك المباني بقسائم سكنية للانتقال إلى مناطق أخرى تقل فيها نسبة الفقر. وبالمقارنة مع المستأجرين الذين يعيشون في مشاريع سكنية أخرى، فإن أولئك الذين انتقلوا كان لديهم معدلات توظيف أفضل وكسب رواتب أعلى. وفي كلتا الدراستين كانت فوائد الانتقال واضحة وجليّة على أولئك الذين كانوا أطفالاً وقت الانتقال، وهو الأمر الذي يفترض بأن إحدى الطرق الرئيسية لتحسين الدخل المالي عن طريق الانتقال هو من خلال إنشاء منزل أقوى وأكثر استقلالاً وثباتاً ليستفيد منه الجيل القادم.

تعتبر الاستراتيجية البديلة للانتقال إلى الأحياء الأكثر ثراءً هي الانتقال من منطقة نقل فيها

معدلات انعدام المساواة. يعمل الموقع الإلكتروني لمكتب الإحصاء الأمريكي على توفير البيانات حول انعدام المساواة لكل ولاية ومقاطعة ورمز بريدي، يمكن أن يوفر الحي الذي يقل فيه مستوى انعدام المساواة العديد من المزايا لك ولأطفالك بدون أن تثقل كاهلك تكاليف المعيشة المرتفعة أو غلاء الممتلكات.

تتألف الفئة المستهدفة لتلك الاستراتيجيات التي ناقشتها من أولئك الأفراد ذوي الدخل المنخفض أو أبناء الطبقة المتوسطة، الذين يشعرون بأنهم يعانون أو أنهم تركوا مهملين. لكن تلك المشكلات أمورٌ ستكون مختلفة بالنسبة إليك في حال كنت في أعلى سلم الدخل المالي ومن أغنى ٢٠ بالمائة، فمن الناحية الاقتصادية يحتل أم يشكل ارتفاع انعدام المساواة في العقود الأخيرة فائدةً لك. ومع ذلك فقد أشارت دراسة حديثة بأن ارتفاع مستوى انعدام المساواة يحمل بعض العيوب التي قد تكون أقل وضوحًا وظهورًا من صافي الدخل لشخصٍ ما.

أولاً، لقد رأينا أدلة على أن ارتفاع انعدام المساواة هو أمر يرتبط طردياً مع ارتفاع معدلات الجرائم وزيادة خطر الإصابة بالأمراض المرتبطة بالتوتر وزيادة الانقسام السياسي. تعمل هذه المشكلات على تدهور جودة حياة الجميع، بما فيهم الأثرياء. وقد يكون هذا هو السبب في أن الناس يكونون أسعد في الأماكن التي تنسم بالمساواة حتى بعد تكيفهم مع دخولهم المالية.

يعتبر السبب الثاني الذي يدعو الأثرياء إلى أن يهتموا بتقليل انعدام المساواة مرتبطاً بدرجة أقل بالنتائج الملموسة وأكثر بنوع الشخص الذي ستكونه. يعتقد الكثير من الناس أنهم بمجرد مراكمتهم ثروتهم فإنهم سيتوقفون عن الكفاح والمقارنة وأنهم سيصبحون راضين عن نجاحهم. إلا أن القليل منهم فقط يظلون راضين لفترة طويلة، حيث تعمل البيئة التي تنسم بانعدام المساواة على جعل الرضا أمراً أكثر صعوبة. قارنت إحدى الدراسات مستوى انعدام المساواة في كل ولاية من ولايات أمريكا مع عمليات البحث الأكثر شيوعاً عبر Google في كل ولاية. ووجدت تلك الدراسة بأن أقوى رابط لانعدام المساواة كان البحث عن المنتجات باهظة الثمن. حيث كلما زاد انعدام المساواة في ولاية شخص ما، كلما زاد معه سعيهم إلى عرض ثرائهم من خلال المجوهرات البراقة واللامعة والسيارات والأشياء الثانوية. في حين أثبتت العديد من الدراسات بأن إنفاق الأموال على المنتجات باهظة الثمن هو أمر لا يزيد من مستوى الرفاهية التي يعيشها الشخص. وبالنسبة للأثرياء فإن المستويات العالية من انعدام المساواة من شأنها تسريع المقارنات الاجتماعية التي تعتبر بمثابة آلة الجري التي يجب على الشخص أن يركض عليها بشكل أسرع لكنه يبقى في مكانه.

كما تعمل أيضاً المستويات العالية من انعدام المساواة على تشجيع التكبر والغرور بين الناجحين من خلال طرق أخرى. وجدت دراستنا حول لعبة الأسهم ودراسة ليرنر التي خضعت لعشوائية نجاح وفشل المشاركين بها، أنه عندما ينجح الناس في شيء ما، فإنهم سرعان ما ينسبون فضل ذلك النجاح إلى أنفسهم، حتى وإن تم تحديد إنجازاتهم ونجاحاتهم بشكل عشوائي من قبل الباحثين، حيث يعتقد المشاركون الناجحون بأن موهبتهم وعملهم الدؤوب والجاد هما اللذان منحاهم مكافأتهن.

تشير الدراسات التي أجراها عالم النفس بول بيف إلى أن هذا الإحساس بالاستحقاق هو أحساس

له عواقب مؤسفة. ففي إحدى الدراسات قام الباحثون بمراقبة السيارات عند تقاطعات الطرق وسجلوا بلد صناعيتها وطرزها وحالتها. كما دونوا عدد المرات التي تقطع فيها السيارات المشاة في ممر المشاة أو تقطع السيارات الأخرى التي لها حق وأولوية المرور قبلك في الطريق. ما وجدته هذه الدراسة أنه كلما بدا مظهر السيارة أغلى ثمنًا، كلما زاد تكرار قطع السائق للآخرين وشعوره بأنه هو من له الأولوية. وفي دراسة أخرى، ترك الباحثون وعاءً من الحلوى في منطقة للانتظار وأخبروا المشاركين بأنها تخصّ أولاداً في دراسة أخرى. ووجدوا أن المشاركين الذين قيّموا أنفسهم عالياً على سلّم المكانة أكثر من أقبل على أكل الحلوى. كما أظهرت نتائج دراسة أخرى بأن الأشخاص ذوي الدخل المالي المرتفع يميلون لأن يكون تبرعهم للجمعيات الخيرية هو تبرع ذو نسبة ضئيلة من دخلهم المرتفع جداً. ويتضح هذا الاختلاف بين نسبة التبرع ونسبة الدخل في الولايات ذات المستويات العالية من انعدام المساواة.

عندما يُذكر للأشخاص الأثرياء بأنهم قد يمتلكون بعض المزايا والامتيازات غير الموجودة لدى غيرهم، فإن ردهم الفوري عادة ما يكون: «أنا عملت بجد لذلك أستحق نجاحي!» معادلة متكافئة يرددها الأثرياء. كل شخص ناجح أعرفه هو شخص يعمل بجد، لكن يمكنهم تعداد الطرق المتعددة التي استفادوا فيها من الحظ والمساعدة التي حصلوا عليها من الآخرين من حولهم. قام الخبير الاقتصادي روبرت فرانك باستخدام المحاكاة الحاسوبية لفحص دور القدرة والجهد والفرصة على النجاح في قيادة السيارة. تبدأ المحاكاة الحاسوبية بافتراض أن كلاً من القدرة والجهد تفسران معاً ٩٨ بالمائة من النتائج، في حين تفسر الفرصة ٢ بالمائة فقط. ووفقاً لتلك الافتراضيات، فإن معظم «الفائزين» في المحاكاة الحاسوبية كان لديهم، بصفة عامة، درجات عالية من القدرة والجهد كما هو بديهي ومتوقع. لكن غير البديهي وغير المتوقع يحدث عندما تكون ساحة سوق المحاكاة الحاسوبية أكثر تنافسية، يتمتع كل فرد مشارك فيها بمستويات عالية جداً من القدرة وبذل الجهد. وفي مستوى النخبة النهائي فإن ما يُفرق الناجحين جداً عن الناجحين العاديين هي الفرصة.

هذا لا يعني أن الأثرياء لا يستحقون مداخيلهم المالية. يعتمد الأداء في الحياة الواقعية على القدرة والجهد والفرصة. ولكن كما تظهر لنا المحاكاة الحاسوبية، كلما ارتفع السلم الذي تصعد عليه، كلما تأثر نجاحك أكثر بالفرصة بالإضافة إلى قدراتك وجهدك الذي تبذله. إن تذكير أنفسنا بحظنا الجيد غير المتوقع هو وسيلة قوية ومؤثرة لمحاربة الإحساس بالاستحقاق والغرور الذي غالباً ما يأتي مع النجاح. كما أنه يساعد أيضاً على تعويض الافتراضيات اللاواقعية بأن العالم هو دائماً مكان يتسم بالعدل والمساواة حيث تكون النتائج الجيدة في انتظار الأشخاص الطيبين والنتائج السيئة هي عقوبة للأشخاص السيئين. وبحسب ما ذكرته بأن العمل على ربط المقارنات التصاعدية بالمقارنات التنافسية هو أمر من شأنه أن يوفر محتوى تفكير مفيداً، فإنه يُمكننا أيضاً العمل على ربط ميلنا الطبيعي للتركيز على استحقاقنا لما حصلنا عليه بالتركيز على الحظ الجيد. ففي المرة القادمة التي تجد فيها نفسك تفكر في الطريقة التي عملت بها بجد واجتهاد وبأنك تستحق ما حصلت عليه، اسأل نفسك ما هي محطات الحظ التي توقفت عندها على طول الطريق.

إذا كنت ناجحاً أو ثرياً، فإنك في وضع متميز يسمح لك بإحداث فرق، حيث يكون لديك فائض

من المال للتبرع به سواء أكان للأعمال الخيرية أو لقضية سياسية تهدف إلى تعزيز المساواة. إذا كنت صاحب عمل، فإن لديك القدرة على إنشاء مقياس رواتب بطريقة تشجع على العمل الجماعي بدلاً من تثبيطه. يقوم بعض رجال الأعمال بالفعل بمحاولة تطبيق ذلك الإجراء.

عندما قام دان برايس الرئيس التنفيذي لشركة خدمات البطاقات الائتمانية بقراءة البحث الذي ذكرته آنفاً والذي يكشف بأن زيادة الدخل المالي تحسن من رفاهية الأفراد إلى حد معين وبعدها تتوقف الاستفادة من الزيادة في الراتب (إلى مستوى معين)، قرر في عام ٢٠١٥ زيادة الحد الأدنى للرواتب في شركته لتصبح ٧٠٠٠٠ دولار. ولإنجاح هذه الخطة وتحقيق أهدافها المرجوة، خفض راتبه الشخصي من أكثر من مليون دولار إلى ٧٠٠٠٠ دولار أيضاً. ودلالة على أهمية الوضع النسبي، قدم اثنان من المدراء التنفيذيين رفيعي المستوى استقالتيهما لأنهما اعتقدا بأنه من الظلم بأن يدفع للموظفين المبتدئين كل هذا القدر من المال على الرغم من أنه لم يتم تخفيض رواتب أولئك المدراء على الإطلاق، ولكن بقي الكثير من موظفي دان برايس على رأس العمل. من المرجح بأن تخفيض رأس المال سيوفر أموال الشركة لإنفاقها على توظيف وتدريب الموظفين الجدد، كما راهن دان برايس بأن تحسن ولاء ومعنويات الموظفين هو أمر سيؤدي إلى زيادة الإنتاجية. سيخبرنا الزمن ما إذا كانت هذه التجربة ناجحة أم لا، ولكن أداء شركة دان برايس إلى الآن هو أداء رائع وذو إنتاجية عالية، والموظفون كانوا ممتنين جداً إلى درجة أنهم جمعوا مبلغاً من المال لشراء سيارة تسلا لدان برايس.

الاستراتيجية الأخيرة التي أود أن أسلط الضوء عليها يمكن تطبيقها على كل من الكادحين والأثرياء. هذه الاستراتيجية لا علاقة لها بالمقارنات الاجتماعية أو توزيعات الدخل أو الحي السكاني، إنها تتعلق بتقييم وتقدير ما هو الأكثر أهمية بالنسبة لك. لقد ذكرت في بداية الكتاب بأنني عندما طلبت من الناس بأن يكتبوا القيم والدوافع الأكثر أهمية بالنسبة لهم، تكررت مجموعة من القيم والدوافع عدة مرات، ولكن لم يكتب أيٌّ منهم أبداً بأنه يتوق إلى المكانة.

فكر للحظة حول قيمة تعتر بها، من المحتمل بأن تتوصل إلى قيمة تشترك في الاعتزاز بها مع أي شخص آخر تقريباً، ومن المحتمل بأن تركز على قيمة لها مكانة خاصة في نفسك تربطك بمن تحب أو تربطك بفكرة أخرى أكبر من حدود نفسك، ربما ليس لها أي علاقة بتسلق أي سلم اجتماعي.

تشير الدراسات إلى أن هذا التمرين البسيط في التركيز على الأمور الأكثر أهمية قد يكون له تأثيرات ملحوظة على تجارب ومواقف إنعدام المساواة، حيث إنها بداية تجعل الناس لا يهتمون بما يفكره الآخرون عنهم. في أحد التجارب، طلب من طلاب الجامعة بأن يقضوا بضع دقائق للكتابة عن قيمة مهمة بالنسبة لهم وتعنيهم شخصياً. بعد ذلك طلب منهم بأن يختاروا عنصراً من قائمة للقيم والمحاسن (مثل العلاقات مع الأهل والأصدقاء والمهارات الفنية والإبداع وما إلى ذلك)، بعد ذلك طلب منهم بأن يكتبوا عدة فقرات حول سبب أهمية تلك القيمة بالنسبة لهم ووصف وقت من حياتهم لعبت فيه تلك القيمة دوراً مهماً. كتب المشاركون في أحد المجموعات حول قيمة قد تكون مهمة وتعني لأشخاص آخرين ولكنها ليست بتلك الأهمية بالنسبة لهم شخصياً. بعد ذلك طلب من

المشاركين بأن يُعبروا عن مدى استعدادهم لدفع ثمن ساعة ذات علامة تجارية فاخرة، والدفع لساعة ليست ذات علامة تجارية فاخرة. النتيجة كانت أن المجموعة التي كتبت عن قيمة شخصية لم تُبدِ رغبتها واهتمامها بالساعة ذات العلامة التجارية الفاخرة. وفي دراسة أخرى وجد الباحثون أن المشاركين الذين أمضوا بضع دقائق للكتابة حول قيمة أساسية كان مستوى التوتر النفسي لديهم منخفضاً أثناء تقييمهم من قبل أشخاص آخرين.

وجد عالما النفس براندون شميكل وكاتلين فوهز أن قضاء بضع دقائق في الكتابة حول القيم التي نفتقدها قد تجعل الناس أقل اندفاعية وتهوراً وأكثر ميلاً إلى تأجيل المتعة الفورية في سبيل الحصول على الفوائد الطويلة الأجل. تشير تلك الدراسات إلى أن توجُّه «عش سريعاً، مت صغيراً» المستخلص من انعدام المساواة هو توجُّه يمكن التخفيف من انتهاجه عن طريق إعادة توجيه الانتباه والتركيز على الأمور التي يهتم بها الشخص وتعني له الكثير.

حتى هذه اللحظة فإن معظم الدراسات التي تركز على القيم أجراها عالم النفس جيفري كوهين وزملاؤه بتسخير قوة القيم في سبيل تقليل فجوة الإنجازات والنجاحات الدراسية بين الطلاب البيض والطلاب السود. حيث أنشأوا عددًا من تدريبات الكتابة القصيرة والتي كانت تدار خلال العام الدراسي. وفي المجموعة التجريبية، تضمنت كل مهمة كتابة عن قيمة شخصية مهمة. كما أنهى الطلاب في المجموعة الأخرى المهمة نفسها ولكنها كانت حول قيم مهمة لأشخاص آخرين. وعندما قام الباحثون بتفحص متوسط درجات الطلاب في نهاية السنة الدراسية، كان هنالك فجوة كبيرة بين المعدلات التراكمية للطلاب البيض والمعدلات التراكمية للطلاب السود في المجموعة التي طلب منها بأن تكتب عن قيم مهمة لأشخاص آخرين، لكن انخفضت هذه الفجوة بنسبة ٤٠ بالمائة في المجموعة التي طلب منها بأن تكتب عن قيمة شخصية مهمة.

لم تكن نتائج هذه الدراسة أمرًا غريبًا أو شاذًا. حيث قام فريق العمل بإعادة إجراء هذه التجربة في قاعات الفصول الدراسية في المدارس وحصلوا على النتيجة نفسها. وعندما عاد الباحثون بعد سنتين، كان الطلاب الذين كتبوا عن قيمة شخصية مهمة بالنسبة لهم محافظين على مستوى تحسن أداؤهم الدراسي إلى الصف التاسع. وكما وجدت دراسة أخرى أجريت على يد كوهين وعالم النفس ديفيد شيرمان أن هناك انخفاضًا وتقلصًا ملحوظًا في فجوة الإنجازات والنجاحات الدراسية بين الطلاب البيض والطلاب اللاتينيين من الأسر ذات الدخل المالي المنخفض، والذين استمروا في المحافظة على مستوى ذلك التقلص لثلاث سنوات لاحقة.

ومن زاوية أخرى لنفس هذا الموضوع، قامت عالمة النفس كريستال هول بزيارة مطعم يقدم الحساء للمحتاجين في داخل المدينة في ولاية نيوجرسي وتحدثت إلى أشخاص يتناولون وجباتهم هنالك. طلبت كريستال هول من أحد المجموعات من المشاركين (ممن هم في المطعم) بأن يُحدثوها لبضع دقائق حول تجربة مروا بها وجعلتهم يشعرون بالنجاح والفخر. في حين طلبت من المجموعة الأخرى وصف روتينها اليومي. بعد ذلك عرضت كريستال هول على كلا المجموعتين فرصة إكمال نماذج التسجيل في إعانات الرعاية الاجتماعية والذين كانوا بالفعل مؤهلين للحصول عليها. تتمثل المشكلة المستمرة في تقديم وتوفير المساعدات للفقراء بأن الكثير منهم لا يلتحقون ببرامج

المساعدة وذلك ببساطة لأن عملية التسجيل تبدو لهم صعبة جدًا أو غير واضحة. فعلى الرغم من معرفتهم بأن عملية التسجيل تلك تصب في مصلحتهم الطويلة الأجل، إلا أن الناس عادةً ما يستصعبون فعل أي شيء حياله (وهو مثال آخر على أن التفكير القصير المدى والفقر يتعديان معًا تغذية ذاتية). ما وجدته الدراسة هو أن التحدث لمدة خمس دقائق حول تجربة مُشجعة وإيجابية يزيد بشكل كبير من الرغبة في التسجيل في برامج المساعدة والإعانة لمن هم في حاجة إليها.

لم تتطلب تلك التدخلات المؤثرة تمويلًا ماليًا بملايين الدولارات أو فك شفرة الجينوم البشرية أو كشف غموض آلية عمل الدماغ. لم تتضمن تلك التدخلات شيئًا آخر عدا بضع دقائق من الاهتمام والتركيز المتواصل، والذي يعتبر بدوره مصدرًا رائعًا وتحولاً بسيطاً في وجهة النظر من النموذج الاقتصادي القياسي، والذي يستجيب الناس فيه بعقلانية للحوافز إلى نموذج نفسي أكثر واقعية. ففي هذا النموذج يقيس الناس عادةً وضعهم النسبي مقابل الظروف الاجتماعية المحيطة للحكم على قيمتهم الخاصة. يعتبر بذل الجهد الواعي وتركيزه في النظر فيما هو مهم فعليًا أمرًا يتعارض مع النمط الافتراضي اللاواعي الذي يتضمن التطلع إلى الآخرين لمعايرة وقياس مدى تقديرنا لأنفسنا.

أدى تطوير علم انعدام المساواة الجديد إلى إلقاء وتسليط الكثير من الضوء على سبب التمازج العميق بين الطبيعة البشرية وبين سلم المكانة. حيث يعتبر ربط الطائرات الخاصة بالأثرياء، وربط مستودعات الخردة في ساحة المنزل الخارجية بالمعدمين والفقراء هو طبيعة بشرية وليست نظرية اقتصادية. كما تعتبر المقارنة بين الأشخاص الأثرياء الذين يزدرون قيمة ساعة رولكس من جهة بطلاب الصف الرابع الذين يقفون في طوابير الغداء دون سننٍ واحد في جيوبهم من جهة أخرى هي طبيعة بشرية وليست نظرية اقتصادية. وبالنسبة لنا نحن المخلوقات البشرية التي خُلقت من الطين فإن النمو والازدهار في خضم انعدام المساواة هو أمر يعني في الأساس إعادة تشكيل السلم؛ وإلى أن يتم إعادة تشكيل ذلك السلم فإن فهم العلم السلوكي لانعدام المساواة هو أمر من شأنه أن يساعدنا على الانسجام والتعايش في هذا العالم العامودي.

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يصبح حقيقةً لو لم تطلب منّي زوجتي (إليزابيث مارش) التوقف عن التحدث في موضوع انعدام المساواة بطريقة نظرية، لأبدأ الكتابة عنه كما عرفت. أنا مدين لها بالشكر، ليس من أجل تلك الحكمة والمشورة فحسب، بل أيضًا من أجل تلك التعليقات اللبقة التي تكتبها لي على الفصول، ومن أجل تشجيعي في «أيام الكتابة» عندما تغيب حماسي وأشعر بالركود في الكثير من تلك الأيام. عائلتي حاضرة في هذه الصفحات، وأنا ممتن بشكل خاص لأخي جايسون ووالدي بولا وميتشيل الذين سمحوا لي بكرمهم ولطفهم بأن أروي قصصًا عنهم بالطريقة التي أذكرهم بها. تعتمد جميع أبحاث عدم المساواة التي كنتُ جزءًا منها على العمل الجاد وذكاء طلابي الحاليين والسابقين، خاصة جزمين لوران لانزي، وهايدي فولتش، وكريستين لوندبرج، وإيرين كولي، وداريل كامبيرون، وكينت لي، وجيسون هانا. أنا مدين بالشكر لزميلي سام فيلنباوم لقراءته ومراجعته لفصول هذا الكتاب وللمحادثات التي لا تعدّ حول العلوم والكتب والحياة. ممتنّ لوكيلي الرائع ريتشارد باين الذي أخذ محاولتي المبهمة في عرض لكتاب وكان لديه الحماس والمثابرة للمساعدة في تحويل تلك المحاولة إلى شيء حقيقي. أشكر محرري المدهش ريك كوت الذي لم يأل جهداً بعينه ويده اللتين جعلتا هذا الكتاب يبدو بأفضل شكل في كل صفحة من صفحاته. والشكر أيضًا موصول لـ ميتش برينشتاين لمقارنة الملاحظات ومكابدة تعثري ونهوضي في تأليف هذا الكتاب الأول. واعتقد بأننا قد أبلينا بلاءً حسنًا.

مؤسسة أمريكية لا حزبية تعني بإجراء الاستبيانات والبحوث الإجرائية وتحليل محتوى وسائل الإعلام وغيرها من البحوث العلمية الاجتماعية بهدف تقديم معلومات عن القضايا الاجتماعية والرأي العام والاتجاهات الديموغرافية التي من شأنها أن تشكل الولايات المتحدة الأمريكية والعالم بأسره.

لاعبيسبو لأمركيو يعتبر واحدًا من أكثر اللاعبين احترافية على مر العصور وقامبتوقع أكثر العقود الرياضية ربحاً في العالم. شخصية أمريكية تحظى بالاهتمام على مختلف الوسائط الإعلامية واحتلت المرتبة التاسعة في أول شخصية نسائية الأكثر نفوذاً في الإعلام والاقتصاد في العالم.

مستثمر أمريكي تحقق ثروته باستخدام مقايضات التخلف عن السداد الائتمان. فيسوقاقر اضال هنال عقاري عال المخاطر فيالو لايالات المتحدة الأمريكية. مدينة تعفيغير بأمركا

فيمنتصفاقرنالماضي بهبطاقتصادأمريكا بشكل كبير وقتحركة ثراء الحليمنمر بيالماو اشيا لأمركيو ينظر القلة توفر المالدي المواطنين. قامتالحكومة الأمريكية بشراء الكميات الكبيرة من الحليمنمر بيالماو اشيو تحوإلهاليجنيلسهلتخزينهو منتمتوزيعهعلى المواطنينلأمركيو ينال محتاجينكمحاولة فيإعاشسوقمر بيالماو اشيو إطعاممواطنيها.

ولاية تشتهر بالغابات الكثيفة، تعفيالمنطقة الجنوبية الشرقية لأمريكا شركة عالمية تقدم الاستشارة الإدارية للموارد البشرية والبحوث الإحصائية، مقرها الرئيسي في العاصمة الأمريكية واشنطن منأعرقالجامعاتالأمريكية وتعفيمدينةنيويوركمطعممتخصصبالأكلا لإيطالي.

مدينة في ولاية كارولينا الشمالية الأمريكية. يمكن لشبكة الصبغة القدامى أن تشير إلى الروابط الاجتماعية والتجارية بين من كانوا تلاميذ سابقين في مدارس النخبة المخصصة للذكور فقط. نشأ المصطلح من أبناء الطبقة العليا البريطانية الذين التحقوا بمدارس عامة معينة كأولاد، وبالتالي فإن التلاميذ السابقين هم «أو لاد كبار السن» يعرف تأثير التناقض التجمع حول العلمار تقاعالموافقةموالاقلز عماءفيوقتا لأزمات.

أكبر استطلاع رأي العلماء الأكاديميين أجروا خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية. يدير همرکز أننبر غللسياسة العامة بجامعة بنسلفانيا. هو مرهوشخصية كرتونية ساخرة لشخص يدعى كسول غير مبال لعواقب الأمور ولا يهتم بأيا الآخرين. مُنحتُ هذا الأرض (المقبرة) لجامعة ولاية كارولينا الشمالية من قبل حكومة الولاية.

منتج مشهور لدى البريطانيين، عبارة عن مادة فكرية يتم انتاجها من الخمر وتؤكل كعاد قنخلالدهنها على الساندويتشات.

عن المترجمة:

سارة الخمعلي

- مترجمة سعودية.

- تخرجت من جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن كلية اللغات تخصص ترجمة لغة إنجليزية.

